ابن خلدون

حياته وتراثه الفكرى

تأليف

محمد عبد الله عنان

الطبعة الثانيـــة

نشرت بعناية المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

ابن خلدون

حياته وتراثه الفكري

تأليف

محمد عبد الله عنان

الطبعة الثانيـــة

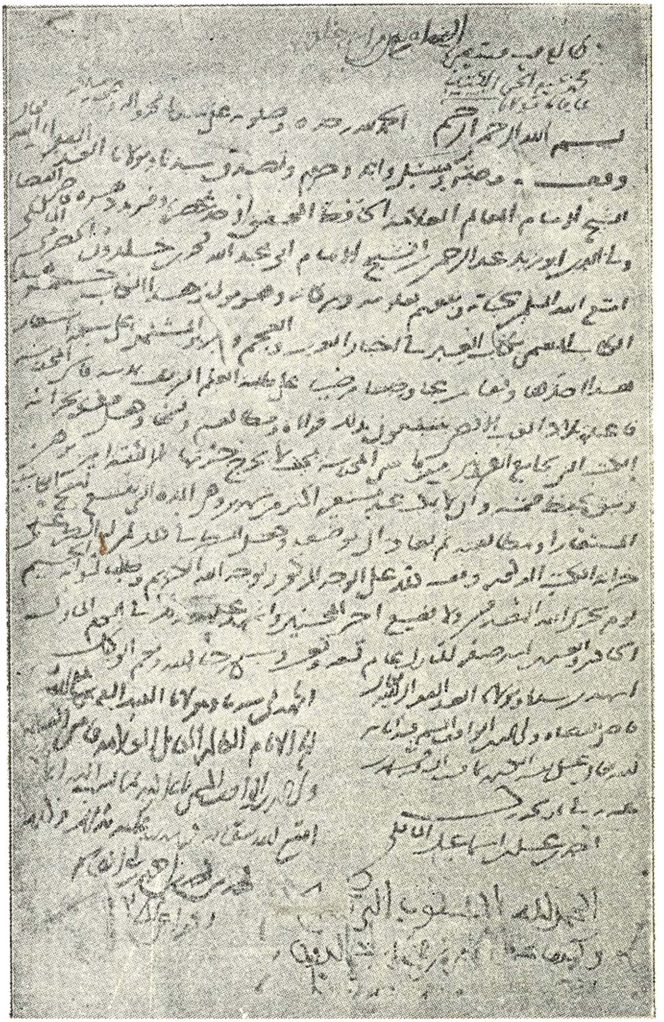
المكتبة التجارية الكبرى

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

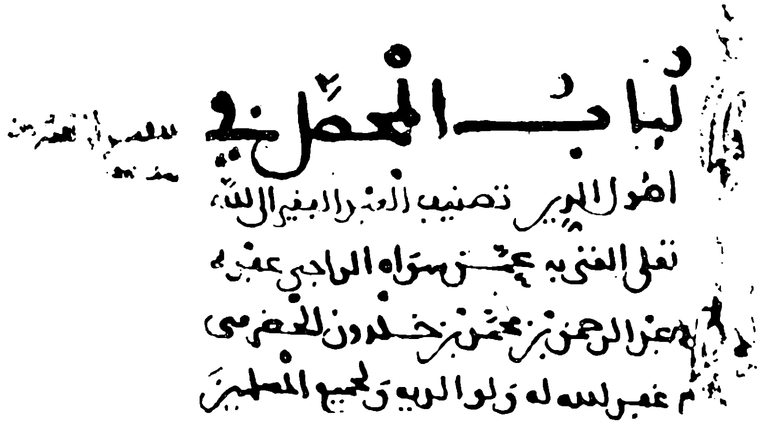
الطبعة الثانيـــة

القـــاهرة

١٣٧٢هـ — ١٩٥٣ م



صيغة الوقف التي تحملها نسخة «كتاب العبر» التي وقفها ابن خلدون
على طلبة العلم بجامع القرويين بفاس وهي محررة بالقاهرة سنة ٧٩٩ هـ

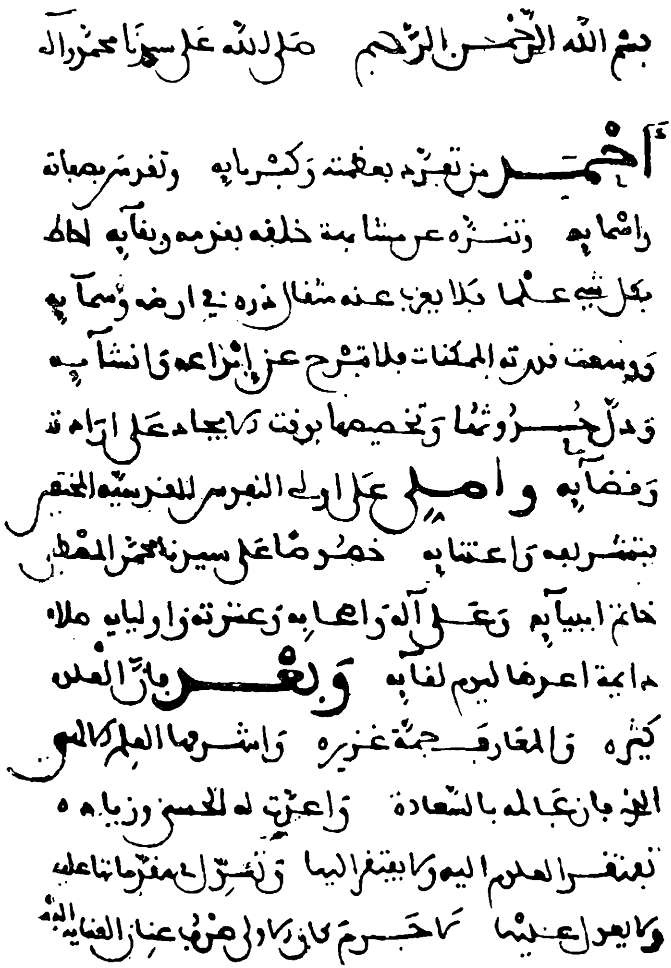

لباب المحصل في
أصول الدين تصنيف العبد الفقير إلى الله
تعالى الغني به عمن سواه الراجي عفوه
عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

صفحة العنوان

من كتاب لباب المحصل فى أصول الدين لابن خلدون

وهو المحفوظ بمكتبة دير الاسكوريال (باسبانيا)

برقم ١٦١٤ . والكتاب مكتوب بخط مؤلفه


بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله
الحمد لمن تعزز بعظمته وكبريائه وتقدس بصفات
ذاته وأسمائه وتنزه عن مشابهة خلقه بقدمه وبقائه أحاط
بكل شيء علما فلا يعزب عنه مثقال ذرة في أرضه وسمائه
ووسعت قدرته الممكنات فلا تبرح عن اختراعه وإنشائه
ودل حدوثها وتخصيصها بوقت الإيجاد على إرادته
وقضائه والصلاة على أولي النفوس القدسية المختصة
بتشريفه واعتنائه خصوصا على سيدنا محمد المصطفى
خاتم أنبيائه وعلى آله وأصحابه وعترته وأوليائه صلاة
دائمة أعرفها ليوم لقائه وبعد فإن العلوم
كثيرة والمعارف جمة غزيرة وأشرفها العلم الإلهي
الفائز حامله بالسعادة والحائز له الحسنى وزيادة
نعم تقصر الهمم اليوم عن ابتغائها وتنزل مقرباتها عليه
ولا يعول عليها لا جرم أن أولى من صرف العناية إليه

الصفحة الأولى من كتاب لباب المحصل

وهى نموذج حسن من خط ابن خلدون فى شبابه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ما زال تراث ابن خلدون فريداً بين آثار التفكير الإسلامى ، وما زال يحتفظ رغم كر العصور بكل قيمته وروعته وجدّته ، ويتبوأ مقامه بين تراث التفكير العالمى . ولكن ابن خلدون الذى اكتشفه الغرب وعكف منذ أكثر من قرن على دراسة آثاره ونقدها وتحليلها ، يغمط فى الشرق حقه ، ويكاد يغمر ذكره ، وينسى تراثه . وبينما ظهرت فى الغرب عنه وعن تراثه تراجم وبحوث نقدية عديدة ، إذا به لا يكاد يظفر بشىء من ذلك فى الشرق موطنه وصاحب تراثه .

وقد كان مما يدعو الى الغبطة أن تجددت ذكرى ابن خلدون فى العهد الأخير ؛ وفى سنة ١٩٣٢ ترددت الدعوة لإحياء ذكراه لمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولده ؛ فاستجابت دوائر التفكير والأدب فى جميع البلاد العربية لهذه الدعوة الكريمة ، وأقيمت عدة حفلات علمية للإشادة بذكره وخالد آثاره ، ولا سيما فى تونس مسقط رأسه ومطلع مجده ، وفى مصر مقام شيخوخته ومثوى رفاته ؛ وحفلت المجلات والصحف العربية حيناً بمختلف البحوث عنه ؛ والتفتت الأنظار نوعاً الى قراءته ودرسه ؛ وظهرت

فى الأعوام الأخيرة عنه وعن تراثه بعض الكتب والدراسات المفيدة .

ولما كان ابن خلدون فى مقدمة المفكرين المسلمين الذين عرفتهم وقرأت لهم منذ الحداثة ، وطبعوا ذهنى بطابع عميق ؛ وكان فى مقدمة المؤرخين الذين أكبرت فهمهم للتاريخ ونقده وقيمته ، فان هذه الدراسة التى أقدمها اليوم فى طبعتها الثانية للتعريف بابن خلدون وتراثه ، والتى التمست لكتابتها هذه الذكرى السمائة لمولد المؤرخ الفيلسوف ، إنما هى عنوان الوفاء والتقدير للمفكر العظيم .

وقد عنيت بأن أتتبع حياة ابن خلدون بإفاضة ، وأن أفصل الحوادث السياسية التى اشترك فيها واتصل بها . ولما كانت حياته قطعة من تاريخ الدول المغربية فى أواسط القرن الثامن ، فقد رأيت أن أفصل تاريخ هذه الدول وتقلباتها فى هذه الحقبة ، وأن أشرح أوضاعها السياسية . كذلك عنيت بحياة ابن خلدون فى مصر عناية خاصة ففصلتها تفصيلا وافياً ، وشرحت علائق المؤرخ بالمجتمع المصرى المفكر ، وما وقع بينه وبين الكتاب المصريين من صنوف الخصومة والجدل ، شرحاً ضافياً .

أما تراث ابن خلدون فقد رأيت أن أتناوله بطريق العرض والشرح المرسل ، ورأيت أن أجتنب الجدل والمقارنات المعقدة ، مع حرصى فى الوقت نفسه على مواطن التقدير والجدل المفيد . وقصدى بما كتبت فى ذلك أن أقدم تراث ابن خلدون الى الشباب المثقف بطريقة موجزة واضحة ، حتى إذا وقف عليه واستطاع أن يسيغه وأن يقدره ، ارتد الى أثر ابن خلدون نفسه يقرأه ويدرسه بإمعان وإفاضة . أما دراسة البحث الغربى لابن خلدون

وما تناول به تفكيره ونظرياته من التقدير والتحليل والمقارنة ، فقد أفردت له فصلا خاصاً يضم خلاصة وافية لكل ما كتب فى هذا الشأن .

كذلك رأيت أن أضع بياناً فهرسياً عن كتاب العبر يتضمن شرح الأدوار التى مر بها حتى تم نشره وظهوره ، والمخطوطات التى رُجع إليها فى نشره ، وما ترجم منه الى مختلف اللغات الأوربية ، وما يوجد من مخطوطاته فى مختلف المكتبات. وشفعت ذلك ببيان مفصل لجميع المصادر العربية والغربية التى رجعت إليها ، والتى يُدرس فيها ابن خلدون وأثره ، لكى يرجع إليها من شاء التوسع والمزيد .

وقد تناولت هذه الطبعة الجديدة بكثير من التنقيح والإضافة ، ورأيت أن أذيلها بتراجم الكتاب المصريين المعاصرين لابن خلدون ومعظمها لا يزال مخطوطاً ، وكذلك بالترجمة التى وضعها له صديقه ومعاصره المفكر الأندلسى العظيم ابن الخطيب ، وذلك زيادة فى التعريف به وبخلاله ممن عرفوا شخصه حق المعرفة .

وعرضت فى هذه الطبعة أيضاً عدة نماذج من خط ابن خلدون ، فى مختلف أدوار حياته ، فى شبابه ، وفى اكتمال كهولته ، وفيها يرى القارىء أثراً مادياً من آثار المفكر الكبير ، هذا فضلا عما تدلى به من وقائع وبيانات تاريخية ذات شأن .

وأود أن أذكر هنا أن هذه الدراسة التى أقدمها عن ابن خلدون قد ترجمت الى الإنجليزية منذ أعوام طويلة ، وصدرت منها إلى اليوم عدة طبعات[1] .

---

(١) نشرت الترجمة الانجليزية بمدينة لاهور ، بعناية ناشر الكتب السيد محمد اشرف بعنوان "Ibn Khaldun; his Life and Work" وظهرت الطبعة الثالثة منها فى سنة ١٩٤٦ .

ان ابن خلدون على قدمه من حيث الزمن ، يجب أن يكون أستاذاً لجميع الشباب الذى ينطق بالعربية . ويجب أن يقرأ الشباب مقدمة ابن خلدون، وأن يستعيدها مراراً وتكراراً ، لا ليعجب فقط بما حوت من رائع التفكير والبحث ،ولكن أيضاً ليستقى منها أساليب البيان والتعبير عن كثير من الآراء والخواطر الإجتماعيــة التى تجول بذهنه وكثيراً مايتعثر فى التعبير عنها ؛ ذلك أن مقدمة ابن خلدون إذا كانت ثروة لا تقدر فى تراث التفكير العربى ، فهى أيضاً ثروة لا تقدر فى تراث البيان العربى .

فالى الشباب المثقف فى مصر ، وفى جميع البلاد العربية ، أقدم هذه الدراسة — فى طبعتهـــا الثانية — لشخصية ممتازة فى التفكير الإسلامى ، وذهن عظيم مبتكر ، سبق الغرب كله إلى وضع مبادىء الاجتماع ، وما زال موضع إعجاب التفكير الغربى وتقديره ، راجياً أن يجد الشباب فى هذه الدراسة ما يحفزه إلى قراءة ابن خلدون ودرسه والانتفاع بنفيس تراثه .

القاهرة فى مايو سنة ١٩٥٣ — محمد عبد الله عنان

الكتاب الأول

حياة ابن خلدون

١

في المغرب والأندلس

٧٣٢ — ٧٨٤ هـ : ١٣٣٢ — ١٣٨٢ م

الفصل الأول

نشـأة ابن خلدون

بنو خلدون . نشأتهم بالأندلس وظهورهم فى ميدان الرياسة . نزوحهم إلى المغرب . محمد بن خلدون والد المؤرخ . نشأة ابن خلدون ودراسته الأولى . فقده لأسرته وصحبه أثناء الفناء الكبير . دعوته لتولى كتابة العلامة فى بلاط تونس .

كانت سنة ١٩٣٢ مبعث ذكرى خالدة فى التفكير الإسلامى : تلك هى انقضاء ستمائة عام كاملة على مولد ابن خلدون المؤرخ والسياسى والفيلسوف الإجتماعى . ولما كانت آثار هذا المفكر العظيم تتبوأ بين تراث العربية أسمى مكانة ، فقد كانت هذه الذكرى فرصة سانحة لدراسة حياته واستعراض آثاره ؛ فلم يحظ ابن خلدون رغم شهرته الواسعة ، ولم تحظ آثاره رغم نفاستها وطرافتها ، من تفكيرنا المعاصر ، بما يجب من درس ونقد واطلاع .

ترك لنا ابن خلدون ترجمة نفسه[1] ، ودون لنا بقلمه حوادث حياته منذ نشأته حتى مشرف خاتمته ، وصور لنا كثيراً من خلاله وخواصه ونواحى نفســه ؛ وقد نحسب لأول وهلة ونحن نتلو تلك السيرة الفياضة التى تركها لنا المؤرخ عن نفسه ، انه لم يترك لمترجمه كبير مجال للبحث والتحقيق ، وأن ليس عليــه إلا النقل والتكرار ؛ وفى هذا الفرض كثير من الصحة ، فابن خلدون هو

(١) سنتناول وصف هذه الترجمة عند الكلام على تراث ابن خلدون .

أخصب مصادرنا وأهمها فى كل ما يتعلق بسيرة حياته وحوادث عصره ؛ ولكن مهمة المترجم الحديث لا تقف عند تدوين الوقائع والحوادث المادية ؛ فاذا لم تلك ثمة حاجة الى تحقيق الوقائع والحوادث ، فهنالك دائماً وجهة التقدير واستخلاص النواحى المعنوية ؛ وهنالك اختلاف الفهم والعرض . وإذا كان ابن خلدون يقدم لنا سيرة حياته وحوادث عصره التى ارتبطت بهذه السيرة ، فانه يعرضها طبقاً لفهمه ووجهة نظره ، وقد يتأثر عرضه فى كثير من الأحيان بالعاطفة والهوى . وتحرى الحقيقة خلال هذه المؤثرات مهمة شاقة . فاذا كنا نغتبط بهذا التراث الذى تركه لنا المؤرخ عن نفسه ، ونجد فيه ما يسهل مهمة ترجمته ، فانا قد نشعر من جهة أخرى بالحرج فى كثير من المواطن التى نلمح فيها أثر العاطفة والهوى .

وإذاً فسيكون تراث المؤرخ عمدتنا الأولى فى ترجمته ؛ ولكنه لن يكون مصدرنا الوحيد ؛ فهنالك مصادر وتراجم عديدة أخرى جديرة بالبحث والمراجعة ، ولا سيما عن حياته فى مصر . وسوف نستشيرها جميعاً . وسنتتبع أدوار حياته خلال هذا التراث كله . ولكنا سنحاول أن نفهمها على ضوء الحقيقة المجردة ، وأن نستخلصها من مختلف المؤثرات والأهواء .

— ١ —

ولد ابن خلدون بتونس فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ (٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م) فى أسرة أندلسية نزحت من الأندلس الى تونس فى أواسط القرن السابع الهجرى . وهو ولى الدين عبد الرحمن بن محمد ابن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن

عبد الرحمن بن خلدون . ويُرجع ابن خلدون أصله الى العرب اليمانية فى حضرموت ، ونسبه الى وئل بن حُجر ، ويعتمد فى ذلك على رواية العلامة النسابة الأندلسى ابن حزم[١] ؛ التى أوردها بمناسبة الكلام عن نسب بنى خلدون الإشبيليين حيث يقول : « وكان من أكابرهم كُريب وأبو عثمان خالد ، القائمان بإشبيلية ، اللذين قتلهما ابراهيم بن حجاج اللخمى غيلة ، وهما ابنا عثمان بن بكر بن خالد المعروف بخلدون الداخل من المشرق » .

وأما نسب جده خلدون هـذا الداخل الى الأندلس ، فهو طبقاً لابن حزم أيضـاً « خالد بن عثمان بن هانىء بن الخطاب ابن كريب بن معـد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر » ، فابن خلدون طبقاً لهـذه النسبة سليل أصل من أعرق الأصول اليمانية . ولكن ابن خلدون يشك فى صحة هـذه السلسلة لأنه إذا كان خلدون هو جده الداخل الى الأندلس عنـد الفتح ، فان عشرة أجداد لا تكفى لقطع الستة قرون ونصف التى انقضت منذ الفتح حتى مولده ، وفى رأيه أنه يجب لقطعها عشرون

(١) فى كتاب « جمهرة أنساب العرب » (ص ٤٣٠) وقد نشر فى سنة ١٩٤٨ بالقاهرة بعنـاية صديقى العـلامة الأستاذ ليفى بروفنسال . وابن حزم هو أبو محمد بن سعيد بن حزم الأندلسى . وهو فقيه ومفكر كبير، ولد بقرطبة و برع فى الفقه والأصول ودراسة الفرق الاسلامية . وأشهر مؤلفاته كتاب «الأحكام فى أصول الأحكام» و «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» و«طوق الحمامة» وغيرها . توفى سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) . وقد خصه العلامة الاسبانى آسين بلاثيوس بكتاب باللغة الاسبانية عنوانه « ابن حزم القرطبى » Abenhazm de Cordoba

باعتبار ثلاثة أجداد لكل قرن . ومن جهة أخرى فهنالك ما يحمل على الشك فى صحة هذا النسب البعيد الذى يدونه ابن حزم لأول مرة فى القرن الخامس الهجرى ، ويقوى هذا الشك لدينا مانعرفه من ظروف الخصومة والتنافس بين العرب والبربر فى الأندلس ؛ فقد اشترك البربر فى فتح الأندلس، وقاموا بمعظم أعبائه ، ولكن العرب انفردوا دونهم بالرياسة والحكم ؛ واستمرت الخصومة بينهما أحقاباً طويلة حتى اضمحلت العصبية العربية ، وبدأت غلبة البربر منذ أوائل القرن الخامس . وكانت العروبة فى الأندلس شرفاً يرغب فى الانتساب إليه ، لما كان لها من السيادة والنفوذ ؛ ولكن الشك كان يحيق بأنساب كثير من أهل العصبية والرياسة ؛ بل لقد تطرق هذا الشك إلى أصول وأنساب زعماء الفاتحين أنفسهم ، فقيل مثلا عن طارق ابن زياد ، إنه من البربر وقيل إنه فارسى من موالى العرب . وهنالك أيضاً ما يبعث على التأمل فى تعلق ابن خلدون بهذه النسبة العربية ، وهو أنه فى مقدمته يضطرم نحو العرب بنزعة قوية من الخصومة والتحامل ، بينا نراه فى مكان آخر من تاريخه يمتدح البربر ويشيد بخلالهم وصفاتهم(١) .

وعلى أى حال فان ابن خلدون ينتمى الى بيت من بيوت الرياسة فى الأندلس يرجع الى عصر الفتح ذاته . قدم جده الأكبر خالد المعروف بخلدون الى الأندلس فى جند اليمانية ونزل أولا فى مدينة قرمونة ، ونشأ بها بيته . ثم انتقل بنوه الى إشبيلية .

---

(١) سنعرض إلى ذلك فى فصل قادم .

ولم يظهر بنو خلدون على مسرح الحوادث إلا فى أواخر القرن الثالث فى عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأموى (٢٧٤ — ٣٠٠ هـ) ، ففى عهده اضطرمت الأندلس بالفتن ، وامتدت الثورة الى معظم النواحى ؛ وكانت إشبيلية فى مقدمة المدن الثائرة ؛ ثار بها أمية بن عبد الغافر بن أبى عبدة ، وعبد الله وابراهيم ابنا الحجاج ، وكريب[1] وخالد ابنا خلدون ، وهم يومئذ زعماء البيوت الكبيرة . وكان أمية حاكم المدينة من قبل الأمير محمد ، فخلع الطاعة واستبد بها ، ودس على عبد الله ابن الحجاج من قتله ؛ فثار عليه بنو خلدون وبنو الحجاج ، واشتدوا فى مناوأته ، وقاتلوه حتى قتل ؛ واستبد كريب بن خلدون بالأمر ، واستقل بإمارة إشبيلية . ولكن ثار عليه بنو الحجاج ، وتحالف زعيمهم ابراهيم مع عمر بن حفصون أعظم ثوار الأندلس يومئذ المتغلب على جنوبها ما بين مالقة ورندة ، فخشى كريب أمره وأشركه معه فى حكم إشبيلية . ولما اشتدت الفتنة أرسل الأمير عبد الله قواته الى إشبيلية ، فقاتلت الثوار حتى هزموا ، وقتل منهم عدد كبير ، وأسر زعماء الفتنة . واتفق فى النهاية على أن يشترك فى حكم المدينة ابراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون باسم الأمير وفى طاعته . وكان كريب صارماً شديد الوطأة فانحرف عنه أهل إشبيلية ومالوا إلى ابراهيم لما رأوه من رفقه

---

(١) وردت فى التعريف (كريت) — كتاب العبر ، ج ٧ ص ٣٨٠ . وهو تحريف واضح والصواب أنها كريب .

ولينه ؛ واتصل ابراهيم بالأمير عبد الله وحصل منه سراً على عهد بولاية إشبيلية ؛ ثم ثار فى أهل المدينة بكريب وقتله ، واستقل بالإمارة وعظم أمره . واستمر بنو خلدون بإشبيلية ، طوال عهد الدولة الأموية ، ولكن دون زعامة أو رياسة ، حتى كان عهد الطوائف واستيلاء بنى عباد على إشبيلية ؛ فعندئذ سطع نجم الأسرة ثانية ، ورقت الى مراتب الرياسة والوزارة فى دولة بنى عباد ، وشهد زعماؤها موقعة الزلاّقة الشهيرة التى انتصر فيها المرابطون بقيادة أميرهم يوسف بن تاشفين اللمتونى وحلفاؤه الأندلسيون وعلى رأسهم المعتمد بن عباد على ألفونسو السادس ملك قشتالة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦م) واستشهد جماعة منهم فى الموقعة . ثم دالت دول الطوائف سريعاً ، واستولى المرابطون على الأندلس مدى حين ؛ ثم قام الموحدون بالمغرب وقضوا على دولة المرابطين وانتزعوا منهم سيادة الأندلس ؛ وأقطعوا زعماءهم الولايات والمدن ، فولى على إشبيلية وغرب الأندلس أبوحفص زعيم قبيلة هنتاتة ، وتوارث بنوه الولاية . واتصل بنو خلدون بالولاة الجدد ، واستعادوا قسطاً من الجاه والرياسة .

ولما اضمحلت دولة الموحدين واضطربت أمور الأندلس ، وتضعضعت قواعدها وثغورها ، وأخذت تسقط تباعاً فى يد الاسبان ، نزح الأمير أبو زكرياً الحفصى حفيد أبى حفص الى إفريقية سنة ٦٢٠هـ (١٢٢٣ م) وخلع طاعة الموحدين بنى عبد المؤمن ودعا لنفسه . وخشى بنو خلدون سوء العاقبة فغادروا إشبيلية قبل أن تقع فى يد النصارى ، ونزلوا حيناً بسبتة ، فأكرمهم حاكمها الحفصى ؛ ثم لحق زعيم الأسرة يومئذ وهو الحسن بن

محمد بن خلدون رابع جد للمؤرخ بالأمـــير أبى زكريا فى مدينة بونه ، فأغدق عليه عطفه ونعمه ؛ ثم توفى الأمـير أبو زكريا وخلفه ابنه المستنصر ، فولده يحيى ، فأخوه إسحاق ؛ وبنو خلدون خلال ذلك ينعمون بالجاه والســعة . وفى عهد أبى إسحاق ، ولى أبو بكر محمد بن خلدون جد المؤرخ الثانى شئون الدولة ، وولى ولده محمد جـــد المؤرخ شئون الحجابة حيناً لأبى فارس ولد أبى إسحاق وولى عهده ، وكان قد استقل بحكم بجاية . ثم اضطرب ملك بنى حفص ، وثار بهم زعيم يدعى ابن أبى عمارة وتغلب على تونس ، واعتقل أبا بكر بن خلدون وقتله وصــادر أمواله ؛ وبقى ولده محمد فى بلاط بجاية ، وخاض غمار المعارك التى نشبت يومئذ بين بنى حفص والخوارج عليهم ؛ ولبث يتقلب فى ظل بنى حفص فى مراتب الدولة . ثم غلب على تونس زعيم الموحدين الأمير أبو يحيى اللحيانى سنة ٧١١ هـ فقربه وتولى حجابته حيناً . ثم اعتزل الحياة العامة ، وبقى مع ذلك على مكانته ونفوذه فى الدولة حتى توفى سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٧ م) . أما ولده محمد وهو أبو المؤرخ ، فقد زهد فى الحياة السياسية ، وآثر حياة الدرس والعلم ، وبرز فى الفقه وعلوم اللغة ، ونظم الشعر . وتوفى إبان الفناء الكبير (أو الطاعون الجارف) سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) وله من الولد عدة : أبو زيد ولى الدين وهو المؤرخ ، وكان وقتئذ فتى يافعاً فى الثامنة عشرة ، وعمر وموسى ويحيى ومحمد وهو أكبرهم ، ولم يظهر منهم إلى جانب المؤرخ سوى يحيى الذى تولى الوزارة فيما بعد[١] .

---

(١) ذكر ابن خلدون أخوته هؤلاء فى مواضع متفرقة من « التعريف » .

— ٢ —

كان ابن خلدون إذاً سليل أسرة عريقة نابهة ، وبيت علم ورياسة ، فنشأ فى مهد هذا التراث الذى تلقاه عن أسرته ، تهديه جدودها وتقاليدها ، ودرج فى حجر أبيه ، فكان معلمه الأول ؛ وقرأ القرآن وحفظه ، وتفقه فى القراءات السبع ، ودرس شيئاً من التفسير والحديث والفقه ، ودرس النحو واللغة ، على أشهر أساتذة تونس . وكانت تونس يومئذ مركز العلوم والآداب فى بلاد المغرب ؛ وكانت منزل رهط من علماء الأندلس الذين شتتهم الحوادث أو ضاق بهم الوطن . ويذكر لنا ابن خلدون أسماء معلميه وأساتذته فى كل علم وفن ، ويعنى عناية خاصة بترجمتهم ووصف مناقبهم ؛ ويذكر لنا أيضاً أسماء بعض الكتب التى درس فيها . ويبدو مما كتبه فى ذلك أنه تخصص نوعاً فى درس الحديث والفقه المالكى ، وعلوم اللغة والشعر[١]. ثم درس المنطق والفلسفة فيما بعد أثناء حياته العملية ؛ وينوه ابن خلدون بتفوقه فى درسهما[٢] ، وقد شهد له جميع أساتذته وأجازوه[٣].

وعكف ابن خلدون على التحصيل والدرس حتى بلغ الثامنة عشرة . وهنا طافت بالمغرب تلك الكارثة العظمى التى نكبت العالم الإسلامى كله من سمرقند الى المغرب ، ونعنى بها الفناء الكبير أو الطاعون الجارف كما يسميه ابن خلدون ؛ وهو نفس الوباء

(١) راجع التعريف — كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٨٤ و ٣٨٥ .

(٢) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨٦ و ٣٩١ .

(٣) من الإجازة وهى شهادة الأستاذ لتلميذه بأنه أتم دروسه بنجاح .

الفاتك الذى عصف يومئـذ بايطاليا ومعظم الأمم الأوربيـة ، والذى ترك لنا عنـه معاصره وشاهده بوكاشيو أروع الصور[١] . وقد وقعت هـذه النكبة بالمشرق والمغرب معاً سـنة ١٣٤٩ م (٧٤٩ هـ) ، وهلك فيهـا والدا المؤرخ وجميع شيوخه ومعظم سكان تونس . ويشير ابن خلدون الى تلك النكبة غير مرة فى لهجة مؤثرة فيقول إنها : « طوت البساط بما فيـه » ، وفيهـا : «ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواى رحمهما الله » ، ثم يقول لنا إنه استوحش لذهاب أهله وشيوخه وتعذر عليه الاستمرار فى الدرس ، فعول على النزوح الى المغرب الأقصى حيث نزح بعض شيوخه وأصحابه ، فرده عن ذلك أخوه الأكبر محمد .

وتبدو روعة النكبة فيما ذكره ابن خاتمة الأندلسى فى رسالة له عن هـذا الوباء الذى طاف بالأندلس فى نفس الوقت وعصف بمدنها ومجتمعاتها أيما عصف . فقـد ذكر أن الوباء لبث فى بلده ألمرية أشهراً وأحصى من يموت كل يوم بسبعين . ثم يقول . « وأين هـذا العدد مما بلغنا عن غيره من بلاد المسلمين والنصارى فقـد بلغنا على ألسنة الثقات أنه هلك فى يوم واحد بتونس ألف نسمة ومائتا نسمة ، وبتلمسان سـبعمائة نسمة ، وهلك بجزيرة ميورقة فى يوم أربعة وعشرين من شهر مائة ألف نسمة . . .وكذا كان سائر البلاد صغيرها وكبيرها على ما تأتى إلينا »[٢] .

---

(١) تناولنـا تاريخ هذا الوباء ووصف مناظره فى الشرق والغرب فى فصل خاص فى كتابنا مصر الاسلامية (ص ٨٨ — ٩٥) .

(٢) اطلعنا على هذه الرسالة ضمن مجموعة خطية بمكتبة الأسكوريال وعنوانها «تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد » ورقم هذه المجموعة ١٧٨٥ .

ولم يمض طويل على ذلك حتى سنحت لابن خلدون فرصة النزول الى ميدان الحياة العامة ، إذ استدعاه أبو محمد بن تافراكين طاغية تونس يومئذ ، لكتابة العلامة عن محجوره وأسيره السلطان الفتى أبى اسحاق ؛ وكتابة العلامة هى التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية ؛ وكان المؤرخ يومئذ حدثاً فى دون العشرين .

الفصل الثاني

ابن خلدون فى بلاط فاس

أوضاع إفريقية السياسية فى القرن الثامن . بنو حفص و بنو عبدالواد و بنو مرين . السلطان أبو الحسن واستيلاؤه على تونس . أحوال الدول والقصور المغربية فى هذا العصر. تأثر الحركة الفكرية بالتطورات السياسية . أمنية ابن خلدون فى النزوح إلى المغرب. فراره من تونس . اتصاله بالسلطان أبى عنان ملك المغرب الأقصى . توليه الكتابة والتوقيع له . أطماعه ونفسه الوثابة . خوضه لغمار الدسائس . اتهامه بالتآمر . سجنه ومحنته . إفراج الوزير الحسن بن عمر عنه و رده إلى وظائفه . انتهازه للفرص وانقلابه على الوزير الحسن . دعوته للسلطان أبى سالم وتآمره على السلطان منصور . جلوس أبى سالم وتوليته كتابة السر والانشاء لابن خلدون . شعر ابن خلدون ونثره فى هذا العهد . ولايته لخطة المظالم . سقوط أبى سالم ومصرعه . تغلب الوزير عمر بن عبدالله على الدولة. انضواء ابن خلدون تحت لوائه . النفرة بينه و بين الوزير . إعتزامه الرحلة إلى الأندلس

— ١ —

ويجدر بنا قبل أن نتتبع المؤرخ فى أدوار حياته العامة ، وتقلباته فى دول المغرب وقصوره ، أن نذكر كلمة عن أحوال هذه الدول والقصور .

كانت إفريقية الشمالية منذ أواخر القرن السابع الهجرى مسرحاً للثورات السياسية العنيفة ، وكانت دولة الموحدين قد انهارت دعائمها وقامت على أنقاضها دويلات وإمارات عديدة . فقامت فى تونس

(إفريقيـــة) دولة بنى حفص ، وقامت دولة بنى عبد الواد فى تلمسان والمغرب الأوسط ، وقامت دولة بنى مَرِين فى فاس والمغرب الأقصى . وقامت فى ظل هذه الدول وخارجها إمارات صغيرة فى بعض القواعد والثغور على يد بعض الخوارج والزعماء الأقوياء . وكان أكبر غنم فى تراث الموحدين لبنى مرين ؛ وكانت دولتهم أعظم الدول الجديدة وأقواها ، تشمل المغرب الأقصى وسبتة وجزءاً من المغرب الأوسط وأحياناً جبل طارق . وكان عميدهم ومؤسس دولتهم السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى عبر الى الأندلس وغزا أرض النصارى وهزمهم أكثر من مرة مجدداً بذلك عهد الجهاد ، وتوفى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) . وتعاقب من بعده على العرش عدة من الملوك الأقوياء . وكان على عرش فاس فى العصر الذى نتحدث عنه السلطان أبو الحسن ؛ تولى الملك بعد وفاة أبيه السلطان أبى سعيد سنة ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م) . وكان يجيش بأطماع ومشاريع كبيرة . ففى سنة ٧٣٣ هـ غزا جبل طارق وافتتحها من يد النصارى . ثم زحف على المغرب الأوسط ، وما زال يفتتح ثغوره تباعاً من يد بنى عبد الواد حتى استولى على تلمسان قاعدة ملكهم سنة ٧٣٧ هـ . وبذا امتدت دولة بنى مرين شرقاً حتى حدود إفريقية (تونس) . وأخذ السلطان أبو الحسن بعـــد ذلك يتطلع الى فتح إفريقية من يد بنى حفص أصهاره وأصدقائه ؛ فسار إليها فى أوائل سنة ٧٤٨ هـ بعد أن عقد لابنـــه السلطان أبى عنان على المغرب الأوسط . واستولى على تونس من يد سلطانها عمر بن أبى يحيى ؛ ولبث نحو عامين فى تونس يوطد شئونها ؛ ولكن الثورة سرت أثناء غيابه الى المغرب الأقصى

وخرج كثير من الثغور عن طاعته ، وبلغه تحفز ولده السلطان أبي عنان لانتزاع العرش ، فاختار ولده الفضل لولاية تونس ، وغادرها سنة ٧٥٠ ه إلى المغرب الأقصى . وفى ذلك الحين كان بنو حفص قد استجمعوا أمرهم لاسترداد ملكهم ، وظاهرتهم الثغور وبايعتهم ؛ فلما غادر أبو الحسن تونس ، زحف عليها المولى الفضل بن السلطان أبي يحيي ، واستولى عليها ، واستعاد ملك أسرته. ولكنه لم يلبث طويلا حتى خرج عليه الوزير أبو محمد عبد الله ابن تافراكين ، وانتزع منه العرش ،وأقام فيه أخاه الطفل أبا اسحق ابن أبي يحيي فى كفالتـــه وتحت اســتبداده ، وذلك فى أوائل سنة ٧٥١ ه . (١٣٥٠ م) .

هكذا كانت أحوال الدول المغربية فى منتصف القرن الثامن الهجرى : كانت الثورات والانقلابات السياسية دائمة لا تنقطع ؛ والدول تتعاقب بين مختلف المتغلبين والأسر . وكانت تقوم إمارات صغيرة متعاقبة ، فى القواعد والثغور الوسطى مثل بجاية وقسنطينة ، وبونه ، وتلمسان ، وتضطرم حول امتلاكها معارك لا نهاية لها ، فكانت عروش المغرب يومئذ تهتز كلها فى يد القدر ؛ وكانت قصوره لذلك مهبط الأطماع والمنافسات ، ومكمن الدسائس والمكايد ، ومطمح أنظار المتغلبين والمتنافسين فى طلب الرياسة والملك ؛ وكانت العروش والإمارات دائمة التقلب والتداول ، والحروب والمعارك الأهلية دائمة الضرام بين مختلف الأسر أو فروع الأسرة الواحدة . ومع ذلك فقد كانت هذه القصور المضطربة تسطع فى فترات السلم القليلة ، وتتنافس فى البهاء والبذخ ، وتجتذب

إليها رجال التفكير الأدب . وكان بنو حفص ، وبنو مرين بالأخص ملاذ العلماء والأدباء ، يلتفون حولهم ويستظلون برعايتهم ويتقلبون فى نعمهم ؛ ويتولون لديهم مناصب النفوذ والثقة . ونلاحظ فى تاريخ المغرب فى هذه الحقبة أن الحركة الفكرية تزدهر وتستقر وتتنقل طبقاً لأحوال الدول وتقلباتها ، وانها كانت كالدول دائمة الاضطراب والتنقل ، وانها لا تكاد تحتشد حول قصر معين ، حتى تهرع إلى غيره كلما انتابه الوهن والانحلال .وكما أن الحركة الفكرية كانت يومئذ فى المغرب دائمة الاحتشاد والتنقل حول دوله وقصوره ، فكذا كانت دائمة التردد بين المغرب والأندلس . وكانت غرناطة لا تزال مهد حركة فكرية زاهرة ، ولكن الأندلس كانت تضيق يومئذ بعلمائها وأدبائها خصوصاً بعد أن قصت مملكة قشتالة النصرانية أطرافها ، واستولت على كثير من أراضيها وقواعدها ؛ ولذا نرى كثيراً من علماء الأندلس وأدبائها ينزحون إلى المغرب باعتباره أوسع آفاقاً ، وأوفى طمأنينة وأيسر رزقاً .

فى معترك هذه الظروف والأحوال بدأ ابن خلدون حياته العامة . وكان بنو خلدون مذ نزحوا الى إفريقية فى أواسط القرن السابع يستظلون برعاية بنى حفص وينعمون فى ظل دولتهم بمراتب الجاه والنفوذ . ولكن الدولة الحفصية كانت يومئذ فى دور انحلالها ؛ وفقدت أسرة المؤرخ كثيراً مما كانت تتمتع به من الجاه والرزق ؛ وكان ابن خلدون يتطلع بلا ريب الى اجتناء تراث أسرته ، وإحياء نفوذها الذاهب ، وكان رأسه الفتى يضطرم بلا ريب بكثير من الأطماع والمشاريع . وقد سنحت له أول فرصة للنزول إلى ميدان

الحياة العامة ، حينما استدعاه ابن تافراكين كما قدمنا لكتابة العلامة عن محجوره السلطان أبي اسحاق ، وذلك فى أواخر سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) . ولكن ابن خلدون كان ينظر الى ضعف حكومة تونس واضطراب أحوالها بعين التوجس والجزع . وكان بنو مرين قد غلبوا على تونس نحو عامين كما قدمنا ، وشهد ابن خلدون قوتهم وضخامة سلطانهم ؛ ولما غادر السلطان أبو الحسن تونس الى المغرب الأقصى ، غادرها فى ركبه معظم المفكرين والأدباء من شيوخ ابن خلدون وأقرانه ، إيثاراً للعيش فى ظل الدولة القوية الظافرة ، وطموحاً الى اجتناء الجاه والرزق بعد أن نفقت سوقهما فى تونس . وكانت مثل هذه الأمنية تجيش بنفس المؤرخ ، ولكن أخاه الأكبر صده حيناً عن تحقيقها ؛ فلما استدعى لكتابة العلامة أخذ يترقب الفرص للنزوح الى المغرب الأقصى ليبحث وراء طالعه ، وليعالج تحقيق أطماعه حيثما يلوح أفق المغامرة أوسع وأجدى .

— ٢ —

ولم يمض سوى قليل حتى سنحت هذه الفرصة ؛ ففى أوائل سنة ٧٥٣ هـ ، زحف أمير قسنطينة أبو زيد حفيد السلطان يحيى فى قواته وجموعه على تونس يريد الاستيلاء عليها واسترداد تراث أسرته من قبضة الوزير المغتصب ابن تافراكين . فسار ابن تافراكين فى جنده الى لقائه ، وصحبه ابن خلدون فى ركبه . ووقعت بين الفريقين عدة معارك كانت الدائرة فيها على جند تونس ؛ وانسل ابن خلدون خلسة من المعسكر المهزوم ناجياً بنفسه ، وأقام حيناً فى أبة عند بعض شيوخ المرابطين ؛ ثم قصد سبتة ، ثم ارتد الى

قفصة حيث وافاه بعض فقهاء تونس ، وكان يحاصرها عندئذ أمير قسنطينة ؛ ومن هنالك سار معهم الى بسكرة وقضى بها الشتاء .

وفى ذلك الحين كان السلطان أبو الحسن ملك المغرب الأقصى قد توفى (فى ربيع الثانى سنة ٧٥٢) على أثر خروج ولده السلطان أبى عنان عليه واستيلائه على فاس . وكان أبو عنان أميراً وافر البأس والعزم ، فما كاد يستقر على عرش أبيه ، حتى أخذ يهيء العدة لافتتاح المغرب الأوسط واستعادة تلمسان التى افتتحها أبوه من يد بنى عبد الواد ثم استعادوها لأعوام قلائل . فزحف عليها فى أوائل سنة ٧٥٣ واستولى عليها وقتل ملكها أبا سعيد ؛ ثم استولى على بجاية بدخول صاحبها فى طاعته . وكان ابن خلدون يومئذ فى بسكرة كما قدمنا ، فسعى الى لقاء السلطان أبى عنان أثناء مقامه بتلمسان ؛ ويقول لنا المؤرخ إن السلطان أكرمه بما لم يكن يحتسب ، ورده مع حاجبه ابن أبى عمرو الى بجاية حيث شهد مراسيم البيعة والتسليم . فلما عاد الحاجب الى السلطان ، وهرعت معه الوفود الى ركابه سار ابن خلدون معهم ، وحظى بلقاء السلطان وأكرم وفادته مرة أخرى . ثم ارتد السلطان الى فاس عاصمة ملكه ، وارتد ابن خلدون مع ابن أبى عمرو الى بجاية ، وأقام هنالك عنده حتى أواخر سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) .

ولبث ابن خلدون يسعى فى الالتحاق ببطانة السلطان أبى عنان حتى ظفر ببغيته . ويقول لنا ابن خلدون إن السلطان هو الذى استدعاه بعد أن جرى ذكره أمامه فى مجلس عقد لاختيار طلبة العلم ؛ فقدم الى فاس سنة خمس وخمسين ، وعينه السلطان عضواً

فى مجلسه العلمى ، وكلفه بشهود الصلوات معه . وما زال يدنيه و يقربه حتى عينه فى العام التالى ضمن كتابه وموقعيه . على أن ابن خلدون يقول لنا إنه قبل هذا المنصب على كره منه لأنه ليس من المناصب التى شغلها أسلافه ، أو بعبارة أخرى كان دونها مقاماً وخطورة . وفى ذلك ما يدل على مبلغ ما كان يجيش به المؤرخ رغم حداثته من الأطماع الكبيرة . على أنه استطاع أثناء مقامه بفاس ، أن يستأنف الدرس والقراءة ، على جماعة من أكابر العلماء الوافدين إليها من الأندلس وباقى أقطار المغرب . ولا ريب أنه استفاد كثيراً فى تلك الفترة ، ونمت معارفه نمواً كبيراً .

ومن ذلك الحين يغدو ابن خلدون شخصية ظاهرة فى تاريخ الدول المغربية فى هذا العصر ؛ تأخذ بقسط بارز فى تطورات هذه الدول وتقلباتها ، وتشترك أحياناً فى تدبير عوامل نهوضها أو سقوطها ، وأحياناً تثير بينها ضرام الكيد والتنافس والقتال . وكان ابن خلدون لا يزال عندئذ فتى فى نحو الثانية والعشرين من عمره ؛ ولكن ذكاءه ، وقوة نفسه وعزمه ، ووفرة أطماعه ، واعتزازه بتراث أسرته ، كانت تحفزه دائماً الى طلب المزيد من الجاه والنفوذ والرزق. وكانت أحوال الدول والقصور المغربية فى ذلك العصر ، مما يفسح مجال النهوض والتقدم للطامعين ذوى الكفاية والعزم . وكانت صلة ابن خلدون بالسلطان أبى عنان ، وهو يومئذ أعظم سلاطين المغرب ، وانتظامه فى سلك ذلك البلاط العريض الزاهر ، مفتتح أفقه ، وبدأ ذلك النشاط السياسى الزاخر الذى لبث مدى ثلث قرن يحمله بين

دولة ودولة ، وبين قصر وقصر ؛ وبين الرفعة والسقوط ، والنعم والمحن ، مراراً وتكراراً .

لم يمض على انتظام ابن خلدون فى بلاط فاس عامان حتى تحركت نفسه الوثابة الى خوض غمار الدسائس السياسية . ومع أن سيده وحاميه السلطان أبى عنان لم يدخر باعترافه وسعاً فى إكرامه والعطف عليه ، ومع أنه ولاه رغم حداثته منصب الكتابة واختصه بمجلسه للمناظرة والتوقيع عنه ، فانه لم يحجم عن التآمر عليه مع الأمير أبى عبد الله محمد صاحب بجاية المخلوع ، وكان يومئذ أسيرا فى فاس . ويروى لنا ابن خلدون قصة هذه المؤامرة فى عبارة غامضة[١] ؛ ويعترف بما وقع بينه وبين أمير بجاية الأسير من التفاهم ، وأنه خرج فى ذلك التفاهم عن حدود التحفظ . ولكنه يعتذر لنا بأنه حمل على ذلك بما كان بين أسرته وبين بنى حفص الذين ينتمى إليهم الأمير المخلوع من الود القديم . وكان السلطان أبو عنان يومئذ مريضاً فنمى إليه خبر المؤامرة ، وأن ابن خلدون يعمل لفرار أمير بجاية واسترجاع ملكه ، على أن يوليه حجابته متى تم له الأمر[٢] . فأمر بالقبض عليه وألقاه فى غيابة السجن ، ومع أنه أطلق أمير بجاية فيما بعد ، فأنه أبقى المؤرخ يرسف فى أغلاله . ونزلت بابن خلدون تلك المحنة التى ينسبها الى سعاية خصومه فى أوائل سنة ٧٥٨ هـ (١٣٥٧ م) .

وقضى ابن خلدون فى ظلام السجن زهاء عامين طويلين ،

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٠٣ .
(٢) كتاب العبر ج ٧ ص ٤١٧ .

وتضرع الى السلطان أبي عنان مراراً أن يطلقه ، ولكن السلطان أعرض عن كل تضرع وشفاعة ؛ وأخيراً رفع إليه قصيدة طويلة في نحو مائتي بيت يلتمس عطفه وصفحه ؛ وقد ذكر لنا منها الأبيات الآتية :

على أي حال لليالي أعاتب ... وأي صروف للزمان أغالب
كفى حزناً أني على القرب نازح ... وأني على دعوى شهودي غائب
وأني على حكم الحوادث نازل ... تسالمني طوراً وطوراً تحارب

* * *

سلوتهم إلا ادكار معاهد ... لها في الليالي الغابرات غرائب
وإن نسيم الريح منهم يسوقني ... إليهم وتصبيني البروق اللواعب

ويقول لنا ابن خلدون إن قصيدته وقعت من السلطان أحسن موقع . وكان أبو عنان يومئذ بتلمسان فوعد بالإفراج عنه . ولكن المرض اشتد به وتوفي قبل تحقيق هذا الوعد في ذي الحجة سنة ٧٥٩ (أواخر ١٣٥٨ م) . فعندئذ بادر الوزير الحسن بن عمر القائم بأمر الدولة باطلاقه مع جماعة من المعتقلين الآخرين ، ورده الى سابق وظائفه ، وأغدق عليه عطفه ، وأحسن رعايته ومثواه .

— ٣ —

ولما توفي السلطان أبو عنان ، أقصى الوزير الحسن بن عمر ولده وولي عهده أبا زيان عن الملك ، وأقام ولده الطفل السعيد على العرش ، واستبد بالدولة وقتل منافسيه من الوزراء الآخرين . وكان أبو عنان حينما انتزع العرش من أبيه قد قبض على أخيه المولى أبي سالم ونفاه الى الأندلس مع باقي إخوته ؛ فلما توفي أبو عنان

بادر أبو سالم بالسعى الى استرداد العرش ، وعبر الى المغرب بعد صعاب جمة ، ونزل بجبال غمارة ودعا بالملك لنفسه ، فاجتمعت إليه قبائل غمارة وظاهرته على أمره ؛ وحدث فى الوقت نفسه انقلاب جديد بفاس . ووثب منصور بن سليمان وهو من عقب يعقوب ابن عبد الحق بالوزير الحسن فانتزع السلطة من يده ، وتوارى الوزير وسلطانه السعيد ، فحاصرهما المنصور . وألفى ابن خلدون فى تلك الحوادث فرصة للعمل والظهور ؛ وقام خلالها بدور لا يحمد ، وقد كان تصرفه فى حق السلطان أبى عنان بادرة سيئة تنم عن عواطف وأهواء ذميمة ؛ بيد أنه لم يكن وليد خطأ موقت بل كان بالعكس عنوان نزعة متأثلة فى النفس ، وثمرة مبدأ راسخ . كان ابن خلدون رجل الفرص ، ينتهزها بأى الوسائل والصور ؛ وكانت الغاية لديه تبرر كل واسطة ، ولا يضيره فى ذلك أن يجزى الخير بالشر والإحسان بالإساءة ؛ وهو صريح فى تصوير هذه النزعة لا يحاول إخفاءها . فقد أطلقه الوزير ابن عمر من الأسر ، وأحسن إليه وأثابه ؛ ولكنه ما كاد يرى وثوب المتغلب منصور بن سليمان حتى ترك جانب الوزير الى جانب خصمه ، وتولى الكتابة للملك الجديد ؛ بيد أن ولاءه لم يطل ؛ فان السلطان أبى سالم نزل فى غمارة وأخذ يدعو لنفسه ، فاتصل مبعوثه الفقيه ابن مرزوق بابن خلدون سراً ، وسلمه من أبى سالم كتاباً يرجوه فيه بث دعوته والتمهيد لعوده ويعده بأجمل خير وحظوة ، فقام ابن خلدون بالمهمة ، ومضى فى تحريض الزعماء والشيوخ حتى استجابوا لدعوة أبى سالم ، وأجمعوا أمرهم على تأييده ؛ وكذا وافق الوزير ابن عمر على طاعته بعد أن

أجهده الحصار . ثم غادر ابن خلدون سيده فجأة مع نفر من الزعماء إلى معسكر السلطان أبى سالم ، وعرض عليه خطته لخلع منصور ابن سليمان . وهنا يعتذر ابن خلدون عن تصرفه ، ويصرح لنا بأنه انحرف عن منصور « لما رأيت من اختلال أحواله ومصير الأمر إلى السلطان »(١) . وسار أبو سالم فى جموعه ، وابن خلدون فى ركابه ، إلى فاس ، ففر منصور بن سليمان عند مقدمه ؛ وجلس أبو سالم على عرش أبيه (فى شعبان سنة ٧٦٠) وعين ابن خلدون كاتب السر والإنشاء ، وجعله موضع ثقته وعطفه . وينوه ابن خلدون بأنه نهج يومئذ فى كتابة الرسائل نهجاً جديد ، إذ تحرر من قيود السجع وكان يومئذ قاعدة الكتابة ، وعدل عنه الى السهل المرسل ؛ ويقول لنا أيضاً إن شاعريته تفتحت فى هذه الفترة ، فنظم الكثير من الشعر الذى « يتوسط بين الإجادة والقصور » وأنشد السلطان كثيراً من القصائد فى مختلف المناسبات ، وكان من أشهر وأبدع ما نظمه فى ذلك الوقت ، قصيدة طويلة رفعها الى السلطان ليلة المولد النبوى (سنة اثنتين وستين) يعدد فيها مناقب النبى الكريم ومعجزاته ، ويمتدح السلطان ، وهذا مطلعها :

أسرفن فى هجرى وفى تعذيبى ... وأطلن موقف عبرتى ونحيبى
وأبين يوم البين موقف ساعة ... لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا ... قلبى رهين صبابة ووجيب
غربت ركائبهم ودمعى سافح ... فشرقت بعدهم بماء غروب

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٥ .

سائل به طامى العباب وقد سرى | تزجيه ريح العزم ذات هبوب
تهديه شهب أسنة وعزائم | يصدعن ليل الحادث المرهوب
حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه | وسط الهدى بفريقها المغلوب

ورفع الى السلطان يوم وفدت عليه هدية ملك السودان (سنة ٧٦٢) وفيها الزرافة ، قصيدة أخرى ينوه فيها بعهده ومآثره ، ويصف الزرافة بما يأتى :

ورقيمة الأعطاف حالية | موشية بوشائح البرد
وحشية الأنساب ما أنست | فى موحش البيداء بالقود
تسمو بجيد بالغ صعدا | شرف الصروح بغير ما جهد
طالت رؤوس الشامخات به | ولربما قصرت عن الوهد

وقد كانت هذه الفترة بالنسبة لابن خلدون ، فيما يظهر ، عهد البيان والشاعرية ؛ فاشتهر أمر نثره ونظمه فى دوائر الأدب والشعر بالمغرب والأندلس يومئذ . ويصف لنا ابن الخطيب نثره ورسائله السلطانية بأنها « خلج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن إبداع يفرغ عنه يراعه الجرىء ، شبيهة البداءات بالخواتم فى نداوة الحروف وقرب العهد بجرية المداد ، ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع » . ويقول عن نظمه إنه «نهض لهذا العهد قدماً فى ميدان الشعر ونقده باعتبار أساليبه ، فانثال عليه جوه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة »[1] .

ونلاحظ أن شعر ابن خلدون تبدو عليه مسحة من التصوف

---

(١) ابن الخطيب فى ترجمته لابن خلدون فى « الاحاطة فى أخبار غرناطة » ونقلها المقرى فى نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٤١٤ وما بعدها .

وأنه ينحو فى كثير من قصائده منحى الشعراء الصوفيين فى صوغ الغزل الروحى . وقد كان ابن خلدون على ما يظهر يجيش بنزعة صوفية ؛ ويبدو مما كتبه فى المقدمة عن التصوف وعن تجرد النفس من الاعتبارات الدنيوية والسمو الى الملكوت الأعلى[١] أنه قد درس التصوف وخواصه دراسة لا بأس بها . ونحن نورد خلال حديثنا نماذج من نظم ابن خلدون مما دونه فى « التعريف » أو ترجمته لنفسه . وأما رسائله السلطانية فلم يدون لنا شيئاً منها ؛ غير أنه دون بعض رسائله الخاصة التى تبادلها مع ابن الخطيب ، وفيها تبدو قوة بيانه ومقدرته فى معالجة النثر المرسل[٢] . على أنه يبدى مثل هذه المقدرة فى البيان والتعبير بالأخص فى مقدمته وجميع تاريخه حسبما نبين بعد .

ولبث ابن خلدون فى كتابة السر والإنشاء والمراسيم للسلطان أبى سالم زهاء عامين ، ثم ولاه « خطة المظالم » (القضاء) فأداها بقوة وكفاية . بيد أن حظوته لدى السلطان ضعفت واضمحل نفوذه ؛ وكانت المنافسات دائمة الاضطرام بينه وبين رجال الدولة. وكان الخطيب ابن مرزوق صديق السلطان وزميله فى المنفى متمكناً من حظوته ، يستأثر لديه بكل نفوذ ورأى ، حتى أصبح هو المتسلط على شئون الدولة والقابض على كل سلطة ، يتصرف بالأمر والنهى طبق هواه ؛ فكان هذا الطغيان يسخط رجال الدولة وأولى الرأى ويفسد ما بينهم وبين السلطان . وكان ابن خلدون ممن

---

(١) المقدمة ص ٣٩٠ وما بعدها وص ٤٢٧ .

(٢) تراجع هذه الرسائل فى كتاب العبر ، ج ٧ ص ٤٢٧ ، ٤٣٤

عمل ابن مرزوق على إضعاف حظوتهم ونفوذهم ، وكثرت منه الوقيعة والسعاية فى حقه غيرة منه ، وخشية من نفوذه ؛ وتمادى ابن مرزوق فى طغيانه حتى انفجر بركان السخط عليه وعلى السلطان من كل ناحية ، وأجمع الزعماء والكبراء رأيهم على الخروج والثورة . وكان زعيمهم فى ذلك الوزير عمر بن عبد الله صهر السلطان . وكان أبوه الوزير عبد الله بن على من قبله متمكناً فى دولة بنى مرين بجاهه وواسع ثرائه . فلما توفى سنة ستين عند ولاية السلطان أبى سالم تطلع الولد الى تراث أبيه ، واستعان بابن مرزوق على تحقيق بغيته ، وزوجه السلطان بأخته ، وعينه كبير أمنائه وجعله موضع ثقته حيناً . ولكن استبداد ابن مرزوق بشئون الدولة كان يحفظه ويذكى سخطه ؛ وكان السلطان من جهة أخرى يشك فى صلته بأمير تلمسان وأنه يأتمر معه به حتى هم بنكبته غير مرة ؛ فلما تجاوز ابن مرزوق فى طغيانه كل حد ، واختمرت فكرة الثورة تفاهم عمر بن عبد الله مع قائد الجند ، ووثب بالقصر الملكى فى غيبة السلطان واستولى على البلد الجديد (العاصمة الجديدة) ونادى بخلع أبى سالم وتولية أخيه تاشفين سلطاناً مكانه ؛ واضطرمت عندئذ نار الثورة فى كل ناحية ونهبت الخزائن الملكية ؛ وحاول أبو سالم أن يهاجم الثوار لاسترداد عرشه ، ولكنه لما رأى تسرب أصدقائه من حوله الى الظافر ، فر فى جماعة من صحبه ، فطارده الوزير عمر وقبض عليه وأمر بقتله ؛ واستبد بالأمر واستأثر بكل سلطة ؛ وكان ذلك الانقلاب فى أواخر سنة ٧٦٢ ﻫ (١٣٦١ م)(١) .

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣١٢ — ٣١٤ .

ماذا كان موقف ابن خلدون إزاء ذلك الانقلاب الجديد ؟
كان كما عهدناه دائماً الى جانب الظافر ينضوى تحت لوائه دون إحجام ولا تردد . فلما تم الأمر لعمر بن عبد الله أقره فى وظائفه وزاد فى إقطاعه ورزقه . ولكن ابن خلدون لم ترضه هذه النتيجة . فقد كان على قوله « يسمو بطغيان الشباب الى أرفع مما كان فيه » . وكانت له مع الوزير عمر منذ عهد السلطان أبى عنان صداقة قديمة، وكان يعتمد على هذه الصداقة فى التمكن لدى الوزير ويرى لها حقها عليه ، ويرجو أن تكون الفرصة قد سنحت لتحقيق أمانيه فى الظفر بمناصب الدولة العليا من حجابة أو وزارة . ولكن الوزير عمر لم يحقق له أملا فى ذلك . ولعله كان يخشى بحق مما تجيش به نفسه من المشاريع والخطط . فعندئذ غضب ابن خلدون واستقال من وظائفه ، واستاء منه الوزير وأعرض عنه وتنكر له ؛ فتوجس ابن خلدون شراً ، واستأذن فى السفر الى بلده تونس فمنعه الوزير من ذلك خشية أن يمر فى طريقه بعدوه أبى حمّـو أمير تلمسان التى استرجعها بنو عبد الواد يومئذ ؛ فاستغاث ابن خلدون بمسعود ابن ماسى زميل الوزير عمر وصهره فأغاثه وما زال بعمر ، حتى أذن له فى السفر بشرط أن يجانب تلمسان وألا يذهب إليها بأى حال ومن أى طريق . فاختار ابن خلدون الرحلة الى الأندلس . وهنا يحدثنا ابن خلدون لأول مرة عن زوجه وولده ، فيقول لنا إنه صرفهم الى أخوالهم فى قسنطينة . وإذاً فقد كان ابن خلدون يومئذ متزوجاً وكان له أولاد . ولم يقل لنا من قبل إنه تزوج ، ولا نعرف تاريخ زواجه بالتحقيق . غير أنا نعتقد أن هذا الزواج

كان فى سنة ٧٥٤ هـ ، أعنى قبل ذلك بعشرة أعوام ، فى الوقت الذى كان يتجول فيه فى المغرب الأوسط على أثر مغادرته لتونس سنة ٧٥٣ هـ ؛ وكان عندئذ يقيم ببجاية على مقربة من قسنطينة ، وفق ما أسلفناه . وسنرى أن ابن خلدون يتتبع منذ الآن أسرته بالذكر فيشير الى تنقلاتها معه فى مختلف المواطن ؛ بيد أنه لا يقدم إلينا عنها أو عن ولده أو حياته المنزلية أى تفصيل آخر .

الفصل الثالث

رحلة الأندلس

محمد بن الأحمر ملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب . نكبة ابن الأحمر ووفوده مع وزيره الى بلاط فاس . قصيدة ابن الخطيب فى استنهاض ملك المغرب لنصرة ملكه . ابن الخطيب وابن خلدون . إسترداد محمد بن الأحمر لعرشه ورده ابن الخطيب الى وظائفه . سفر ابن خلدون الى غرناطة . توثق الصلة بينه و بين ابن الأحمر . إرساله سفيراً لملك قشتالة . رواية ابن خلدون عن زيارته لاشبيلية موطن أجداده . فتور العلائق بينه و بين ابن الخطيب . مغادرته للأندلس .

وكان ملك غرناطة (الأندلس) فى ذلك الحين محمد بن يوسف بن اسماعيل بن الأحمر النصرى . ولى الملك عقب مقتل أبيه السلطان يوسف أبى الحجاج سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤م) . وكان حدثا ضعيفاً فاستبد حاجبه أبو النعيم رضوان بشئون الدولة ؛ وكان من وزرائه لسان الدين محمد بن الخطيب أشهر كتاب الأندلس وشعرائها يومئذ ، وكان وزيراً لأبيه من قبل . وكان السلطان أبو عنان قد قبض على أخيه السلطان أبى سالم وباقى أخوته و نفاهم الى الأندلس كما قدمنا ، فأكرم السلطان محمد مثواهم ، وأحكمت بينه وبين السلطان أبى سالم صداقة متينة . فلما توفى السلطان أبو عنان ، واسترد أبو سالم عرشه فى شعبان سنة ستين ، كانت الصلة بين الأميرين أوثق ما تكون . بيد أنه لم تمض أسابيع قلائل على جلوس أبى سالم ، حتى نكب صديقه السلطان محمد وفقد عرشه فى أواخر

رمضان سنة ستين . وكان أخوه اسماعيل تؤازره جماعة من الزعماء فى مقدمتهم صهر له من أبناء عمومته يدعى الرئيس عبد الله . فكان أبو عبد الله يدعو لاسماعيل سراً ويترقب الفرص للوثوب بمحمد . فانتهز فرصة غيابه ذات يوم عن غرناطة ، واستولى على قصبة الحمراء فى جمع من أتباعه ، وقتل الحاجب رضوان ، ونادى باسماعيل أخى السلطان ملكاً مكانه . ففر محمد الى وادى آش ، واعتقل وزيره ابن الخطيب[1] ؛ وعلم أبو سالم بمحنة صديقه ،

(١) لسان الدين بن الخطيب ، هو محمد بن عبد الله بن سعيد من أعظم كتاب الأندلس وشعرائها فى القرن الثامن الهجرى . ولد بلوشة من أعمال غرناطة سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) ودرس دراسة حسنة ، و برز فى النظم والانشاء . ودرس الطب والفلسفة ؛ وخدم سلاطين غرناطة منذ حداثته فتولى ديوان الكتابة ثم الوزارة للسلطان أبي الحجاج ، ثم تولى الوزارة لولده محمد ، وشاطره محنته ونفيه ؛ فلما استرد عرشه عاد الى سابق مراتبه ، واستبد بشئون الدولة حيناً ؛ فلما أخذ نجمه فى الأفول ، ونفوذه فى الضعف ، نزح الى المغرب الأقصى واستظل بلواء سلطانها ؛ ولكن خصومه سعوا الى هلاكه ، وما زالوا به حتى اتهم بالزندقة والكفر حسبما نفصل بعد ، فقبض عليه وأعدم وأحرقت جثته سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) وله ثبت حافل من الآثار أشهرها : الاحاطة فى أخبار غرناطة (ومنه جزءان بالاسكوريال) . واللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية (طبع بمصر) . ريحانة الكتاب (فى الاسكوريال والفاتيكان) رقم الحلل فى نظم الدول (بالاسكوريال وطبع بتونس) . السحر والشعر . الكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة . أعمال الأعلام (أكاديمية التاريخ بمدريد) . منفعة السائل فى المرض الهائل (بالاسكوريال) . كناسة الدكان بعد انتقال السكان (بالاسكوريال) . نفاضة الجراب (بالاسكوريال) . الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية . وغيرها . وله رسائل وقصائد لا تحصى . وقد أفرد له المقرى صاحب نفح الطيب من مؤلفه مجلدين كبيرين ألم فيهما بكثير من أخباره وآثاره .

ورعى له عهد الصداقة والوفاء ، فأرسل الى الأندلس سفيراً يسعى لدى حكومة غرناطة فى إجازة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل الى المغرب . فنجح السفير فى مهمته ، وعاد الى المغرب صحبة السلطان محمد والوزير ابن الخطيب (المحرم سنة إحدى وستين[1]) واستقبلهما أبو سالم فى فاس أجمل استقبال ، واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدة رائعة ، يدعوه فيها لنصرة سلطانه وغوثه ، هذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى دارا على اللوى ... عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذى ربى جناحى وكره ... فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر

* * *

ومنها :

قصدناك ياخير الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها ... وقد رأينا منها التعسف والكبر
وعذنا بذاك المجد فانصرم الردى ... ولذنا بذاك العزم فانهزم الشر
ولما أتينا البحر نرهب موجه ... ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر

* * *

ومنها :

---

(١) راجع فى تفصيل هذه الحوادث ، تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب ص ١٠٨ وما بعدها ، وابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها .

وأنت الذى تدعى إذا دهم الردى ... وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيالمرين جاءه العز والنصر
وخذ يا إمام الحق بالحق ثأره ... فنى ضمن ما تأتى به العز والأجر(١)

وكان ابن خلدون من شهود ذلك الحفل . ويقول لنا إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى . ويقول لنا ابن الخطيب نفسه إن القوم كانوا يرتجفون تأثراً لأقواله . وكان هذا أول لقاء بين هذين الرجلين العظيمين اللذين تجمع بينهما مشابهات عديدة ؛ فقد كان كلاهما أستاذ عصره وقطره فى التفكير والكتابة ؛ وكان كلاهما شخصية بارزة فى حوادث عصره يتصل منها بأوثق صلة ، ويخوض غمارها متقلباً بين الظفر والمحنة ؛ وكان كلاهما وزيراً ومستبداً ومستشاراً لأمراء عصره ، ومحرضاً لهم أو عليهم . كان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب نفس المركز الذى كان يشغله ابن الخطيب فى الأندلس ؛ وقد استأثر فى المغرب بزعامة التفكير والكتابة التى كان يستأثر بها ابن الخطيب فى الأندلس . وقد جمعت بين الرجلين أواصر الحب والصداقة ، وفرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ؛ وكان كل منهما رغم ذلك يحترم صاحبه ويجله ، ويكبر مواهبه وخلاله . وقد ترجم كل منهما الآخر ؛ وذكره بما ينم عن خالص التقدير والإجلال ؛ فيقول لنا ابن خلدون فى ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ فى الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدائحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه » ثم ينوه بعد ذلك بروعة

(١) والقصيدة طويلة فى نحو ثمانين بيتاً وقد ورد نصها كاملا فى الكتابين السابقين .

رسائله السلطانية ، وبُعد همته فى الإدارة والحكم[1] ؛ ويصف ابن الخطيب ، ابن خلدون فى ترجمته إياه بأنه : « جم الفضائل باهر الخصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، عالى الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامح لقنن الرياسة ، خاطب للحظ ، متقدم فى عدة فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث كثير الحفظ ، صحيح التصور . . . » .[2] ويبدى كلا الرجلين فيما تبادلا من رسائل ، لصاحبه مثل هذا التقدير والإجلال .

وأقام السلطان محمد فى بلاط فاس حيناً ولم يدخر أبو سالم وسعاً فى إكرامه . وتجول ابن الخطيب حيناً بالمغرب ، واستقر بسلا . وتوثقت بين ابن خلدون وهو يومئذ من أكابر رجال الدولة وبين الأمير المخلوع روابط المحبة والصداقة ؛ وكان يقوم بخدمته وقضاء مطالبه ؛ فلما سافر الأمير الى الأندلس ليحاول استرجاع ملكه تولى ابن خلدون أمر أسرته ، ورعاية شئونها ومطالبها ، وتوفير راحتها . وعقدت أيضاً بينه وبين ابن الخطيب أواصر صداقة نمت وتوثقت فيما بعد ؛ وحاول السلطان محمد أن يعمل لاسترداد ملكه بمعاونة بيدرو القاسى (بتره أو بطره) ملك قشتالة ،

---

(١) وردت هذه الترجمة خلال حديث ابن خلدون عن حوادث الأندلس والمغرب فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ وما بعدها . وراجع حديث ابن خلدون عن مصرع ابن الخطيب ج ٧ ص ٣٤١ .

(٢) وردت هذه الترجمة فى كتاب «الاحاطة فى أخبار غرناطة» ونقلها المقرى فى نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٤١٤ وما بعدها .

تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما ؛ ولكن ملك قشتالة حينما سمع بمصرع السلطان أبى سالم ، أبدى فتوراً فى التنفيذ ، فاستغاث محمد عندئذ بالوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب ، ووسط لديه ابن خلدون ، وكانت له يومئذ لديه حظوة ، فى أن يقطعه إحدى مدن الأندلس المغربية ، ليتخذها قاعدة للعمل والتأهب . فأقطعه رندة وأعمالها . وما زال يدبر أمره ، حتى استعاد ملكه من أيدى خصومه ، ودخل غرناطة ظافراً فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ واستتب له الأمر ؛ واستقدم إليه أسرته من فاس ، واستدعى وزيره ابن الخطيب ورده الى سابق مراتبه و نفوذه .

ثم وقع الجفاء بين ابن خلدون وبين صديقه الوزير عمر ، فاعتزم الرحلة الى الأندلس كما قدمنا . وإذ كانت بينه وبين سلطان الأندلس ووزيرها صداقة حميمة ، وكان له عليهما أياد لا تنسى ، فانا نستطيع أن نتصور العوامل التى دفعته الى تلك الرحلة ، والآمال التى كان يعلقها عليها . فقصد الى سبتة فى أوائل سنة ٧٦٤ هـ ، ثم جاز منها الى الأندلس ، وكتب الى السلطان وابن الخطيب بمقدمه . ولما أشرف على مرج غرناطة تلقى رسالة رقيقة من ابن الخطيب يهنئه فيها بالقدوم . ووصل الى غرناطة فى الثامن من ربيع الأول ، فاهتم السلطان لمقدمه ، واحتفى بلقائه وأكرم مثواه ، ونظمه فى أهل مجلسه ، وقربه إليه ، وآثره بصحبته وأسماره . وعامله ابن الخطيب بمنتهى الإكرام والرعاية . وفى العام التالى ، أعنى سنة خمس وستين (١٣٦٣ م) ، أوفده السلطان

سفيراً عنه الى بيدرو القاسى (بترة أو بطرة) ملك قشتالة[١] ، ومعه هدية فخمة ، لإتمام عقد الصلح وتنظيم العلائق بينهما . فقصد ابن خلدون إليه فى إشبيلية وكانت يومئذ عاصمة قشتالة ومستقر البلاط ؛ وتلقاه ملك قشتالة بالترحيب والإكرام . وهنا يقول لنا ابن خلدون ، إنه عاين آثار أسرته باشبيلية، وقد كانت كما رأينا منزل بنى خلدون وفيها سطع نجمهم حيناً ؛ وإن ملك قشتالة وقف على تاريخ أسرته ؛ وعرفه به وبمكانته طبيب يهودى فى بلاطه يدعى ابراهيم بن زرزر ، وكان قد تعرف به فى مجلس السلطان أبى عنان من قبل حين استدعاه لمعالجته ؛ ثم يقول لنا إن ملك قشتالة عرض عليه عندئذ أن يبقى فى خدمته ، وأن يسعى لدى زعماء دولته ليرد إليه تراث أسرته بإشبيلية ولكنه أبى . ولا ريب أن ابن خلدون كان أذكى من أن يعتقد أن ملك قشتالة كان جاداً فى عرضه . وأدى ابن خلدون مهمته بنجاح ، ووهبه ملك قشتالة « بغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيين » فأهداهما الى السلطان ؛ وأقطعه السلطان عند عوده قرية إلبيرة بمرج غرناطة ، فزاد رزقه واتسعت أحواله ، واستأذن السلطان فى استقدام أسرته من قسنطينة ، فبعث السلطان فى استقدامها . وعاش مدى أشهر أخر مع أسرته فى رغد وطمأنينة . ولكنه لم يلبث أن شعر بانقباض السلطان عنه ، وشعر بأثر ابن الخطيب وسعايته فى ذلك من فتوره وإعراضه ؛

---

(١) هو بيدرو أو بطرس القاسى ملك قشتالة ولد سنة ١٣٣٤ وتوفى سنة ١٣٦٩ ، وتولى العرش بعد وفاه أبيه الفونسو الحادى عشر سنة ١٣٥٠ ، وقد اشتهر بصرامته وطغيانه و بطشه .

وكان الوزير يخشى بلا ريب منافسته ومشاريعه . وأدرك ابن خلدون أنه لم يبق للبقاء موضع ، ووصلته فى الوقت نفسه رسالة من صديقه الأمير أبى عبد الله محمد أمير بجاية بأنه استرد ملكه ، وأنه يرغب فى قدومه ، فقرر مغادرة الأندلس عندئذ واستأذن السلطان فأذن له ، وزوده بأعطيته ، وشيعه معززاً مكرماً ؛ فغادر الأندلس ، وركب البحر من ألمريّة الى بجاية، فى منتصف سـنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) .

الفصل الرابع

ذروة المغامرة

أبوعبد الله محمد أمير بجاية . استعادته لملكه واستدعاؤه لابن خلدون . تولى ابن خلدون الحجابة المطلقة فى بجاية . استيلاء أبو العباس أمير قسنطينة على بجاية ومصرع الأمير محمد . انضواء ابن خلدون تحت لواء الظافر . الوحشة بينه وبين أبى العباس وفراره الى بسكرة . المغزى الأخلاقى لهذه الحوادث . استدعاء أبو حمو سلطان تلمسان لابن خلدون . اعتذاره وقيامه بالدعوة له . السلطان عبد العزيز المرينى يفتتح تلمسان . اتصال ابن خلدون به وقيامه بدعوته . قدوم ابن الخطيب الى المغرب . سفر ابن خلدون الى فاس . تطور الحوادث فى المغرب وقيام السلطان أبو العباس أحمد . الدسائس حول ابن خلدون . سفره الى الأندلس . المطالبة بتسليمه . مصرع ابن الخطيب .

لم ينس أمير بجاية إبان ظفره صديقه أيام محنته ، ولم ينس أن هذا الصديق قد عانى من أجله عذاب الأسر والسجن. فكتب إليه يستدعيه ليشاركه فى أمره وليحقق له الوعد الذى قطع على نفسه. وكانت بجاية من قبل من أعمال مملكة إفريقية (تونس) خاضعة للدولة الحفصية . فلما غلب على تونس الأمير أبو يحيى اللحيانى سنة ٧١١ هـ كما قدمنا ، أقطع الثغور لأولاده فتولى بجاية ابنه الأمير أبو زكريا ولبث فى حكمها حتى وفاته سنة ٧٤٦ هـ ، وخلفه فى حكمها ولده الأكبر الأمير أبو عبد الله محمد . ولما زحف السلطان أبو الحسن على إفريقية خلع الأمير محمداً فيمن خلع من أمراء الثغور ونفى الى المغرب . ولما ثار السلطان أبو عنان على أبيه أثناء

غيبته فى إفريقية رد الأمراء المخلوعين وفيهم الأمير محمد الى ثغورهم لكى يعترضوا أباه عند العودة . فاستقر محمد حيناً آخر فى حكم بجاية ثم توفى السلطان أبو الحسن ، وتم الأمر لأبى عنان . فانتزع بجاية. من صاحبها كرة أخرى وأرغمه على النزول عنها إليه ونفاه الى المغرب فأقام هنالك حتى قدم ابن خلدون على السلطان أبى عنان ودخل فى خدمته . وعندئذ توثقت أواصر الصداقة بين ابن خلدون والأمير المخلوع لما كان بين أسرتيهما من سابق المودة ؛ واتهم ابن خلدون بالتآمر مع صديقه ، وبأنه يدبر له سبل الفرار لكى يسترد إمارته ثم يوليه حجابته ، واعتقل مدى عامين حتى وفاة السلطان أبى عنان. فلما تولى السلطان أبو سالم سعى ابن خلدون لإطلاق الأمير محمد وباقى الأمراء المنفيين الى ثغورهم ، وكتب له الأمير محمد بخطه عهداً بأن يوليه حجابته متى استرد سلطانه . ثم سار الأمير الى بجاية وما زال حتى انتزعها من يد خصومه ومنافسيه فى سنة ٧٦٥ ه ، واستوزر يحيى أخا ابن خلدون الأصغر ، وبعث الى ابن خلدون وهو بالأندلس يستدعيه ليوليه حجابته وفاء بعهده . فاستجاب إليه وكان قد اعتزم الرحيل من الأندلس كما قدمنا . ووصل الى بجاية فى منتصف سنة ست وستين . فاستقبله أمير بجاية وأهلها أجمل استقبال . ويصف لنا ابن خلدون يوم مقدمه فى تلك العبارة الرنانة : « فاحتفل السلطان بقدومى ، وأركب للقائى ، وتهافت أهل البلد على من كل أوب يمسحون أعطافى ، ويقبلون يدى ، وكان يوماً مشهوداً » .

وتولى ابن خلدون فى الحال منصب الحاجب لسلطان بجاية ،

وقد كانت الحجابة يومئذ فى الدول المغربية حسب تعريفه هى : « الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وأهل مملكته لا يشاركه فى ذلك أحد » . واستبد بشئون الدولة ، ومضى يدبر الأمور بعزم ويعالج الفتن القائمة بحزم وذكاء ، ويتجول بين القبائل الجبلية يستخلص منها الجباية قسراً بقوة دهائه ونفوذه . ولكن الخصومة ما لبثت أن نشبت بين أمير بجاية وبين ابن عمه السلطان أبى العباس صاحب قسنطينة . وكان أبو العباس يتطلع الى امتلاك بجـاية ويثير على أميرها القبائل والبطون المجاورة . ويقول لنا ابن خلدون أيضاً إن الأمير محمدا لم يحسن السيرة فى أهل بجاية بل كان يرهقهم ويشدد الوطأة عليهم ، حتى انحرفوا عنه واعتزموا الخروج عن طاعته إجابة لتحريض أبى العباس . وفى سنة سبع وستين قصد أبو العباس فى جموعه الى بجاية ، وقاتل الأمير محمدا بظاهرها وهزمه وقتله ، ودخل بجاية ظافراً . وكان ابن خلدون أثناء ذلك يلزم القصر فى بجاية ، فلما كانت الدائرة على محمد خاطبه بعض الزعماء فى تولى الأمر والدعوة لأحد أبناء السلطان ، فأبى وخرج كعادته الى تحية الظافر والانضواء تحت لوائه ؛ وسلم ابن خلدون المدينــة الى أبى العباس ، فأكرمه وأقره حيناً فى وظيفته ؛ ولكن ابن خلدون شعر عما قليل بانحرافه فانصرف باذنه الى أحد الأحياء القريبة . ثم رأى أبو العباس بعد حين أن يقبض عليه ، ففر ابن خلدون الى بسكرة فقبض أبو العباس على أخيه الأصغر يحيى ، واعتقله ببونه ، وفتش بيوتهم وصادر أموالهم .

وهكذا اختتمت تلك المغامرة التى كان ابن خلدون مدبرها

منذ البداية ، وكانت من نفثات أطماعه ؛ وكانت كسابقاتها دليلا على ما تجيش به نفسه من الأثرة ، ونكران الصنيعة ، وانتهاز الفرص السانحة مهما كان انتهازها ينافى الوفاء والولاء والعرفان . كان ابن خلدون ينطق فى خططه وأعماله عن احتقار عميق للعاطفة ، والأخلاق المرعية ؛ وكان يسيره مثل ذلك الروح القوى الذى أعجب به مكياڤيللى فيما بعد ، وتصوره فى أميره الأمثل ؛ ذلك الروح الجرىء الثابت الذى يقتحم كل ضعف انسانى ، ويحمل توا الى الغاية المرغوبة بأى الوسائل والخطط . ويحاول ابن خلدون أن يعرب عن ندمه وأسفه لتطور الحوادث على هذا النحو ، فيقول لنا فى مكان آخر فى حديثه عن أمير بجاية التعس : « فلما استدعانى هذا الأمير أبو عبد الله بادرت الى امتثاله ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » (١) . ولكن الذى لا ريب فيه هو أن ابن خلدون كان يجوز فى حوادث بجاية مغامرة من صنعه ، ويحاول اجتناء ثمار فرصة ترقبها وهيأها منذ بعيد ؛ ولا ريب أن مقتل حليفه وسيده لم يضره ولم يحزنه ، وقد كان معقد آماله أن ينضوى تحت لواء الظافر ، لولا أن أنكره الظافر ورغب عن خدمته تلك المرة .

وتحول ابن خلدون عندئذ الى بِسْكِرة لصداقة بينه وبين أميرها . ولبث هنالك يرقب الحوادث . وكان الأمير أبو حمّو موسى ابن عبد الرحمن سلطان تلمسان صهراً لأمير بجاية المقتول . وكان يطمح الى فتح بجاية . فلما بلغه مقتل صهره بعث قواته الى بجاية

(١) كتاب العبر ج ٦ ص ٣٧٧ .

تحاول أخذها ، ولكنها هزمت هزيمة شنيعة ؛ وكتب أبو حمو على أثر ذلك الى ابن خلدون يستدعيه من بسكرة ليوليه حجابته لما كان يعلمه من نفوذه فى بجاية وما حولها من القبائل ، وأرسل إليه بالفعل مرسوم الحجابة ؛ وكتب إليه يرجوه فى السعى لبث دعوته واستمالة القبائل إليه . فاعتذر ابن خلدون عن قبول الوظيفة تلك المرة ، وأرسل أخاه يحيى ، وكان قد أطلق سراحه، الى سلطان تلمسان نائباً عنه ؛ ولكنه استجاب الى بث الدعوة بين القبائل وتحويلها من جانب أبى العباس الى جانب خصمه أبى حمو . ويقول لنا ابن خلدون إن نفسه كانت قد سئمت يومئذ مخاطر المغامرة وأهوال الوظيفة ، وزهدت فى غواية الرتب ، واشتاقت الى الدرس بعد أن هجرته طويلا ؛ فعول على استئناف الدرس والقراءة ، والإعراض عن ميدان السياسة والخدمات السلطانية . ولكن سنرى أنه يعود الى ميدان الحوادث وخوض المغامرات السلطانية مراراً أخرى .

وفى ذلك الحين وصلته رسائل من صديقه ابن الخطيب يعرب فيها عن شوقه وحبه ، ويحدثه بأخبار الأندلس ، ثم عن جهوده الأدبية وكتبه الجديدة . فرد عليه ابن خلدون ، يعرب عن مثل شوقه وحبه ، ويحدثه بأخباره ومحنته فى بجاية ، ثم عن أخبار المغرب وأخبار مصر كما وصلت إليه(١) . ويبدو فى هذه الرسائل ما يحمله كل من الرجلين للآخر من آيات التقدير والإجلال .

ولبث ابن خلدون فى بسكرة يبث الدعوة لأبى حمو ويحشد القبائل فى جانبه ، ويؤلبها على أبى العباس ؛ ويعمل من جهة

(١) راجع هذه الرسائل فى كتاب العبر ج ٧ ص ٤٢١—٤٣٠ .

أخرى على عقد أواصر التحالف بين أبى حمو وأبى إسحاق سلطان تونس . وكان بينه وبين أخيه أبى العباس جفاء وخصومة . وزادت متاعب أبى حمو بخروج ابن عمه أبى زيان عليه ، فضاعف ابن خلدون همته فى استمالة القبائل إليه ؛ ثم خرج مع صاحب بسكرة وباقى الزعماء الذين استمالهم فى قواتهم لنصرة أبى حمو ، وكان يتهيأ لمحاربة خصومه (سنة ٧٧١ هـ) ولكن أبا حمو هزم أمام خصومه مرة أخرى ؛ وارتد ابن خلدون الى بسكرة ، يستأنف جهوده لحشد القبائل الى جانب أبى حمو ، وإحكام الصلة بينه وبين سلطان تونس.

وفى العام التالى ، سار ابن خلدون فى وفد من الرؤساء لزيارة أبى حمو والتفاهم معه على تدبير الخطة اللازمة . فلقيه بالجزائر ، وبقى لديه مدى حين ، وأنشده يوم الفطر قصيدة تهنئة يقول فيها :

هـــذى الديار فحيهن صباحاً ... وقف المطايا بينهن طلاحاً
لا تسأل الأطلال ان لم تروها ... عبرات عينك واكفا ممتاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقاً ... أن لا يرين مع البعاد شحاحا

ولكن ولاء ابن خلدون لأمير تلمسان لم يطل أمده ، وسرعان ما تحول عنه الى عدوه ، يوئلب الجموع عليه بعد أن كان يوئلبها لتأييده . ذلك أن صاحب المغرب الأقصى السلطان عبد العزيز ابن الحسن خرج فى جيوشه يومئذ يزمع غزو تلمسان وانتزاعها كرة أخرى من قبضة بنى عبد الواد . وكان الوزير عمر بن عبد الله قد استبد بشئون المغرب منذ مصرع السلطان أبى سالم سنة ٧٦٢ هـ كما قدمنا ، وأخذ يولى العرش ملوكاً وأحداثاً ضعافاً من بنى مرين . ففى سنة ٧٦٨ هـ ولى السلطان عبد العزيز بن السلطان أبى الحسن ،

وكان أسيراً فى اعتقاله ، وشدد عليه الحجر والاستبداد كعادته ؛ فأنف السلطان لذلك ، ووثب بالوزير عمر فقتله غيلة وفتك بذويه واسترد السلطة كاملة ؛ ثم خرج بجيوشه للغزو فى تخوم المغرب الأوسط يقصد فتح تلمسان والقضاء على سلطة بنى عبد الواد فى المغرب الأوسط ؛ وكان ابن خلدون يقيم عندئذ فى ضيافة أبى حمو. فلما بلغه مقدم ملك المغرب ، ورأى الطريق الى بسكرة قد سدت فى وجهه ، وسرت الفتنة الى كل ناحية ، خشى العاقبة على نفسه واستأذن أبى حمو فى السفر الى الأندلس ، فأذن له وبعث معه برسالة الى ملك غرناطة ، وأسرع ابن خلدون الى مرسى هنين ليركب البحر منها ؛ ولكن ملك المغرب أشرف عندئذ بجيوشه على تلمسان فغادرها بوحمو الى الصحراء ليحشد جموعه وأنصاره . ونمى الى ملك المغرب أن ابن خلدون فى هنين وأنه يحمل ودائع لأبى حمو ، فأرسل فى طلبه سرية من الجند ، فدهمته فى المرسى وفتشته فلم تجد معه شيئاً ، وحملته الى السلطان فى ظاهر تلمسان ، فحقق فى شأنه وعنفه على انسلاخه عن بنى مرين وانضوائه تحت لواء أعدائهم ؛ فاعتذر ابن خلدون بما كان بينه وبين الوزير عمر ، وشفع له أكابر الدولة الحاضرين ، ونوهوا بسابق خدماته لبنى مرين ؛ ووعد السلطان بمعاونته على أخذ بجاية حين كاشفه برغبته فى فتحها ، فارتاح السلطان لذلك وأطلق سراحه لليلة من اعتقاله ، فارتد الى مكان فى الصحراء يعرف برباط أبى مدين ونزل به حيناً يشتغل فى عزلته بالقراءة والدرس .

ولما استولى السلطان عبد العزيز على تلمسان بعدئذ بقليل

(سنة ٧٧٢ هـ) استدعى ابن خلدون وعهد إليه بأن يبث دعوته بين القبائل وأن يحملهم على مناصرته ومقاتلة عدوه أبى حمو، فقبل ابن خلدون المهمة وأخذ يسعى لحشد القبائل واستمالتها لمحاربة صديقه بالأمس، وانتظم فى سلك الحملة التى بعثها السلطان لمطاردة أبى حمو، وأخذ يعمل تباعاً على سلخ القبائل عن أبى حمو بما كان له من النفوذ والدهاء بين الرؤساء والشيوخ؛ ولبثت جنود السلطان تقتفى أثر أبى حمو حتى دهمته فى أعماق الصحراء ومزقت معسكره، وفر أبو حمو وآله تحت جنح الظلام. وتخلف ابن خلدون بعدئذ لدى أسرته أياماً فى بسكرة، ثم قصد الى السلطان عبد العزيز فى تلمسان فأحسن استقباله وأكرم مثواه؛ وأرسله ليعمل على تهدئة بعض الأحياء الخارجة فى المغرب الأوسط وردها الى الطاعة؛ فصدع بالأمر، ولكنه لم ينجح فى مهمته فى تلك المرة، فعاد الى بسكرة واكتفى بمراسلة السلطان. وهنا وصلته الأنباء بمقدم صديقه ابن الخطيب على السلطان فى تلمسان، وقد غادر الأندلس فراراً من بطش مليكه سلطان غرناطة بعد ما فسدت بينهما العلائق. وكان ابن الخطيب حين استرد الغنى بالله عرشه، قد استأثر لديه بكل سلطة واستبد بشئون الدولة، ونقم الغنى بالله منه هذا الاستئثار فعول على نكبته؛ وشعر الوزير بتجهم الجو من حوله، فتحيل فى الخروج من الأندلس، وعبر البحر الى المغرب؛ فاستقبله السلطان عبد العزيز أجمل استقبال وأغدق عليه عطفه وعطاءه. وكتب ابن الخطيب الى صديقه ابن خلدون فى بسكرة يقص عليه خبره، ويعتب عليه فيما كان منه فى حقه حين مقامه بالأندلس؛ فرد عليه

ابن خلدون برسالة مؤثرة يؤكد فيها تقديره وحبه لصديقه ، ويدفع عن نفسه مظنة الفتور والوقيعة ويهنئه بنجاته[١].

ولبث ابن خلدون مقيما فى بسكرة ، والمغرب الأوسط يضطرم بالثورة فى جميع نواحيه . فلما حشد السلطان حملة لمحاربة الثوار بقيادة وزيره أبى بكر بن غازى ، عهد الى ابن خلدون باستمالة القبائل كرة أخرى ، فأدى ابن خلدون المهمة ، وقصد الى الوزير بمكانه بالصحراء فى شيوخ القبائل الموالية ، ونظم معه برنامج العمل ، ثم عاد الى بسكرة ، ولكن مقامه بها لم يدم طويلا لأنه آنس فى نفس أميرها تغيراً ونزوعاً الى الثورة ، فغادرها مع أسرته ليلحق بالسلطان فى تلمسان ، ولكنه ما كاد يصل الى منتصف الطريق حتى بلغته الأنباء بوفاة السلطان وتولية ابنه السعيد مكانه فى كفالة الوزير ابن غازى وقفول البلاط كله الى فاس ، (سنة ٧٧٤ هـ) ، فعول عندئذ على اللحاق بفاس واخترق الصحراء مع بعض البطانة والجند . واعترضت القافلة أثناء مسيرها عصابة من الأشقياء بتحريض أبى حمو الذى عاد فاستولى على تلمسان على أثر وفاة السلطان ، ونهبت متاع المسافرين ؛ ولم ينج ابن خلدون وأسرته من الأسر إلا بصعوبة ، ووصل أخيراً الى فاس فى حال سيئة ، فأكرمه الوزير ابن غازى وغمره برعايته ، وأقام فى فاس موقراً مبجلا .

وفى ذلك الحين ساءت العلائق بين بلاط فاس وبلاط غرناطة . وكان الوزير ابن الخطيب قد التجأ كما قدمنا الى

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٣٤—٤٣٦ .

بنى مرين فطلب سلطان الأندلس محمد بن الأحمر الى بلاط فاس إبعاده وتشريده فأبى الوزير ابن غازى ، وأطلق بعض اللاجئين من أسرة بنى الأحمر لمناوأة حكومة الأندلس ؛ وأطلق ابن الأحمر زعيمين من زعماء المغرب كانا بالأندلس ، وهما عبد الرحمن بن يفلوس من أمراء بنى مرين والوزير مسعود بن ماسى لمناوأة حكومة فاس ، وبعثهما فى أسطوله الى شواطىء المغرب ، وحاصر جبل طارق وهى يومئذ من أملاك بنى مرين . وبعث الوزير ابن غازى جيشاً لمقاتلة الخوارج بقيادة ابن عمه محمد بن عثمان . فاستماله ابن الأحمر وحرضه على الخروج ، فأعلن الثورة ودعا للأمير أحمد ابن السلطان أبى سالم وكان يومئذ معتقلا بطنجة ، وزحف لقتال ابن غازى . ونشبت بين الفريقين معارك طاحنة بقرب مكناسة ، وارتد ابن غازى الى فاس وتحصن بها . فحاصره الخوارج حتى أذعن وخلع الملك السعيد . واستولى السلطان أبو العباس أحمد على فاس (سنة ٧٧٦ هـ) وعين ابن عثمان لحجابته . واستولى الأمير عبد الرحمن على شمال المغرب تنفيذاً للاتفاق المعقود .

وكان ابن خلدون أثناء هذه الحوادث مقيما بفاس ؛ فلما وقع الانقلاب ، وشى بعضهم فى حقه الى الحكومة الجديدة ، فقبض عليه حيناً ثم أفرج عنه بسعى صديقه الأمير عبد الرحمن سلطان الشمال . وعندئذ أزمع الرحلة الى الأندلس بعد أن أغلقت فى وجهه قصور المغرب كلها . ويقول لنا ابن خلدون انه أراد اللحاق بالأندلس طلباً للاستقرار والدرس . والظاهر أن فكرة الانقطاع الى البحث والتأليف كانت قد اختمرت فى ذهنه يومئذ ، وقد رأيناها تساوره

مراراً منذ اضطربت شئون السياسة واكفهر أفق المغرب ، فجاز البحر الى الأندلس فى ربيع سنة ٧٧٦ هـ تاركاً أسرته بفاس . ولقى فى طريقه وزير ابن الأحمر أبا عبد الله بن زَمرك ذاهباً الى بلاط فاس للتهنئة والمفاوضة ، فرجاه أن يسعى لإطلاق أسرته ولحاقها به . ولكن ابن خلدون لم يحسب حساباً لدسائس خصومه ، ولم يدر بخلده أنه سيغدو موضعاً للمساومة فى مفاوضات شائنة . ذلك أن بلاط فاس توجس شراً من استقراره بالأندلس وأبى أن تلحق به أسرته لما نمى إليه من أن ابن خلدون على صلة مع الأمير عبد الرحمن وأنه يحرضه على غزو المغرب . وقد جاء ابن زمرك من جهة أخرى الى فاس ليسعى فى تنفيذ عهد شائن قطعه سلطان المغرب الجديد على نفسه لابن الأحمر ضمن شروط التحالف بينهما ، وهو أن يعمل على نكبة الوزير ابن الخطيب ومصرعه ، وذلك لما كان يعتقــده ابن الأحمر من أن وزيره السابق كان يحرض السلطان عبد العزيز على محاربته . وكان بلاط غرناطة قد مهد لنكبة الوزير السابق بتدبير اتهامه بالزندقة والخروج على شريعة الإسلام ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدين فى بعض رسائله . وكان تلميذه ومنافسه القديم الوزير ابن زمرك أكبر مروج لهذه الدعاية . وقد حل فى بلاط فاس ليسعى الى اتمام ما بدأ به من العمل على سحق ابن الخطيب وإهلاكه . وعندئذ رأى بلاط فاس الفرصة سانحة لمطاردة ابن خلدون ونكبته ، فطلب الى ابن الأحمر تسليمه بحجة أنه كان يسعى لإنقاذ ابن الخطيب ، فأبى ابن الأحمر ، ولكنه ارتضى أن يجيز ابن خلدون الى إفريقية . والواقع أن ابن خلدون

سعى لإنقاذ صديقه . وكان ابن الخطيب حين اضطرام الثورة قد لجأ الى البلد الجديد (ضاحية فاس) مع الوزير ابن غازى ؛ فلما استولى السلطان الجديد على فاس قبض عليه . وكان يرسف فى سجنه حين قدم ابن زمرك على السلطان يسعى لإهلاكه . وأصغى السلطان الى سعاية ابن زمرك ، وعقد مجلساً من رجال الدولة وأهل الشورى ، واستدعى الوزير السجين لمواجهة التهم المنسوبة إليه وأخصها الزندقة والخروج على شريعة الإسلام استناداً الى بعض رسائله . وذهب المفكر والكاتب والسياسى العظيم ضحية المساومة الشائنة ، وضحية التعصب والجهل ، إذ أدين فى تهمة الزندقة ، وعذب وأفتى بعض الفقهاء السفلة بقتله ، ودُس عليه بعض الأوغاد فقتل خنقاً فى سجنه وأحرقت جثته (سنة ٧٧٦ هـ — ١٣٧٤ م)[1] .
وقد نقل إلينا ابن خلدون هذه الأبيات المؤثرة من شعر كان ينشده ابن الخطيب فى سجنه يرثى به نفسه :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة ... كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاما ... وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا ... غربن فناحت عليها البيوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ... وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له ... فقل يفرح اليوم من لا يموت

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ — ٣٤٢ .

الفصل الخامس

العزلة والتأليف

عود ابن خلدون الى المغرب وعود الصلة بينه و بين أبى حمو . التجاؤه الى أحياء عريف . بدؤه بكتابة مؤلفه التاريخى . كتابه المقدمة وتاريخ العرب والبربر . سعيه الى العودة الى تونس . السلطان أبو العباس يأذن له . عوده الى وطنه . إتمامه لمؤلفه ورفعه إياه الى السلطان . قصيدته يوم الاهداء . الدسائس من حوله . خروجه مع السلطان فى الحملات الحربية . اعتزامه الرحلة الى المشرق وركوبه البحر . زهده فى الحياة السياسية .

وهكذا كاد القدر يجمع بين الصديقين لآخر مرة فى ظروف مماثلة ، وكاد ينكبهما بمحنة مشتركة . ولكن ابن خلدون كان أسعد حظاً من صديقه إذ اكتفى سلطان غرناطة بأن يقصيه عن أرضه وأن يرده الى إفريقية . فنزل فى مرسى هنين حائراً جزعاً لا يعلم أنى يقصد . وكان أخوه يحيي قد عاد الى خدمة أبى حمو أمير تلمسان ، ولكن أبا حمو كان ناقماً عليه أيما نقمة لما فعله فى حقه مرة بعد مرة ، فتركه شريداً فى هنين . ثم شفع فى أمره صديقه محمد بن عريف من رؤساء بنى عريف ، وما زال حتى عفا عنه أبو حمو وأذن فى قدومه الى تلمسان ، فقدمها فى عيد الفطر سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) ، وأراد أن ينقطع للدرس والقراءة ولكن أبا حمو انتدبه مرة أخرى ليدعو له بين القبائل ؛ فاضطر ابن خلدون أن يتظاهر بالقبول مرغماً . ولكنه كان على ما يظهر قد عاف غمار

السياسة نهائياً ، فما كاد يغادر تلمسان حتى ولى شطر قبلة أخرى ، وسار الى أحياء بنى عريف فنزل لديهم ، ولحقت به أسرته بعد قليل من تلمسان ، واعتذر له أصدقاؤه لدى السلطان أبى حمو ، وأكرم بنو عريف مثواه أيما اكرام ، وأنزلوه مع أسرته بأحد قصورهم فى قلعة سلامة من أعمال توجين[1] ؛ فقطع ابن خلدون فى ذلك المقر النائى مدى أربعة أعوام ، ونعم لأول مرة بالاستقرار والهدوء المستمر ، بعيداً عن غمار السياسة والدسائس السلطانية ، ومخاطر التجوال والحملات الحربية ، وألفى لأول مرة فرصة واسعة للبحث والدرس .

وفى تلك الفترة الهادئة بدأ ابن خلدون بكتابة مؤلفه التاريخى وكان يومئذ فى نحو الخامسة والأربعين من عمره ، وقد نضجت مباحثه ومطالعاته . وكان قد قطع نحو ربع قرن يخوض معترك السياسة ، متقلباً فى خدمة القصور والدول المغربية ، يدرس شئونها ونظمها ويستقصى سيرها وأخبارها ، ويجوس خلال الهضاب والصحارى المغربية متغلغلا بين القبائل البربرية يدرس طبائعها وأحوالها وتقاليدها فى الحياة العامة والحياة الخاصة . وكان ذهنه الخصب ، فضلا عن هذه الدراسة العملية ، يفيض بثمار الاطلاع الشاسع ، الذى كان يجدّ فى تحصيله كلما سنحت الفرص فى مكاتب المغرب والأندلس . وكانت عزلة مباركة موفقة ؛ ففى ذلك المقام النائى المنعزل ، كتب ابن خلدون مقدمة تاريخه ، وألهم تلك المباحث

---

(١) تقع هذه المنطقة جنوب إقليم قسنطينة حول مدينة تاوغورت على نحو مائة ميل من حدود تونس الغربية .

والنظريات التى تتبوأ مكانة رفيعة بين ثمرات التفكير البشرى ، ووهب تراث العربية ذلك الأثر الخالد الذى ما زالت تزهو به وتفاخر ؛ وانتهى ابن خلدون من كتابة مقدمته الرائعة لأول مرة فى منتصف سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) واستغرق فى كتابتها خمسة أشهر فقط (١) ثم نقحها وهذبها بعد ذلك . وهو يقول لنا فى دهشة من نفسه وإعجاب بتوفيقه « وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذى اهتديت إليه فى تلك الخلوة ، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر حتى امتخضت زبدتها ، وتألفت نتائجها » (٢) . ثم شرع بعد إتمام المقدمة فى كتابة تاريخه ، فكتب منه تاريخ العرب والبربر وزناتة أو بعبارة أخرى كتب منه أقسامة الأولى والأخيرة حسب النظام الذى انتهى به الينا . ولم يكن فى برنامج ابن خلدون أن يكتب تاريخاً عاماً للخليقة ، بل كان قصده الأساسى أن يكتب تاريخ المغرب والدول البربرية ، وهو ما يشير إليه فى المقدمة بقوله : « وأنا ذاكر فى كتابى هذا ما أمكننى منه فى هذا القطر المغربى إما صريحاً أو مندرجاً فى أخباره وتلويحاً ، لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه دون ما سواه من الأقطار ، لعدم اطلاعى على أحوال المشرق وأممه ، وأن الأخبار المتناقلة لا توفى كنه ما أريده منه » (٣) ، ولكنه عاد فعدل برنامجه ، ورأى أن يكتب تاريخاً عاماً للخليقة . ولما كان

(١) راجع ختام المقدمة ص ٥٣٤ .

(٢) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٤٤ .

(٣) المقدمة ص ٢٧ .

ينقصه فى مقامه المنعزل كثير من المراجع الضرورية ، فقد اعتزم العودة الى وطنه تونس حيث تهيء له مكاتبها الغنية فرصة المراجعة والتحقيق . وكان ذلك فى أواسط سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) بعد أن أكمل المقدمة والأقسام المتعلقة بتاريخ العرب والبربر .

وكان على عرش تونس يومئذ السلطان أبو العباس الذى عهدناه من قبل أميراً لقسنطينة ثم انتزع بجاية من يد ابن عمه الأمير محمد ، وولى ابن خلدون له الحجابة حيناً ، ثم سخط عليه وحاول اعتقاله ففر منه الى بسكرة ؛ فاعتقل عندئذ أخاه يحيى فى بونه وصادر أموالهم . ولبث أبو العباس بعد ذلك يتحين الفرص للاستيلاء على تونس ؛ ولجأ اليه وزيرها ابن تافراكين الذى استبد حيناً بشئونها حينما جرده السلطان أبو اسحاق من سلطته ، وأخذ يعمل لمعاونته على تحقيق مشروعه . وفى سنة ٧٧١ هـ زحف على تونس فى قوات كبيرة واستولى عليها من يد سلطانها الطفل ولد أبى إسحاق ، ثم استولى من بعدها تباعاً على جميع ثغور إفريقية ، وقامت الدولة الحفصية مرة أخرى قوية وطيدة الدعائم . وكانت العلائق سيئة بين السلطان أبى العباس وبين ابن خلدون منذ حوادث بجاية أعنى منذ أكثر من عشرة أعوام . فلما اعتزم المؤرخ العودة الى تونس مسقط رأسه ومثوى أسرته ، يحمله حب الوطن ورغبة البحث والمراجعة ، كتب الى السلطان أبى العباس يرجوه الصفح والإذن بالعودة ، فرد السلطان بالقبول والصفح والدعوة بالقدوم ، فغادر ابن خلدون أحياء عريف فى شهر رجب سنة ٧٨٠ واجتاز الصحراء ومر فى طريقه بقسنطينة فاستراح بها حينا فى ضيافة الأمير إبراهيم

ابن السلطان أبى العباس ، ثم قصد الى السلطان أبى العباس ، وكان يومئذ على رأس جيشه ، يعمل على إخماد الثورة فى بعض النواحى ، فلقيه بظاهر سوسة ؛ فحياه السلطان أجمل تحية وبالغ فى إكرامه وقربه وشاوره فى أموره . ثم بعثه الى تونس وأصدر أوامره بتوفير ما يجب لراحته من المسكن والمعاش . ونزل ابن خلدون تونس ، وطنه ومسقط رأسه ، لأول مرة مذ فارقها حدثا دون العشرين فى سنة ثلاث وخمسين ؛ واستقدم أسرته من أحياء عريف ، وأقام فى دعة وأمن وسعة ، عاكفاً على الدرس والبحث ، حتى عاد السلطان من رحلاته الحربية بعد أشهر ؛ فقربه اليه واختصه بمجلسه وكلفه باتمام مؤلفه . وهنا شعر ابن خلدون كرة أخرى بالدسائس القديمة تعمل حوله ، لما آثره السلطان به من الرعاية . وكان محور هذه الدسائس خصمه الفقيه ابن عرفه شيخ الإفتاء . ويقول لنا ابن خلدون فى سبب هذه الخصومة ، إنه كان يتفوق على ابن عرفه فى المجالس العلمية ، وأن تلامذة ابن عرفة هرعوا اليه يتلقون عليه دونه فأحفظه ذلك ، وأخذ يسعى مع رجال البطانة فى حقه لدى السلطان . ولكن هذه السعاية لبثت حينا دون أثر لتمكن منزلته ومقامه .

ولما توفرت لدى المؤرخ وسائل البحث والمراجعة ، عكف على إتمام مؤلفه وتنقيحه وتهذيبه حتى أتم منه نسخة أولى رفعها الى مولاه السلطان أبى العباس فى أوائل سنة ٧٨٤ هـ (أوائل ١٣٨٢ م) وكانت هذه النسخة الأولى تشمل المقدمة وأخبار البربر وزناتة ، وتاريخ العرب قبـــل الإسلام وبعده ، وتاريخ الدول الإسلامية

المختلفة[١]؛ وقد انتهى ابن خلدون فيما كتبه عن أخبار الدول المغربية فى عصره حتى استرجاع السلطان أبى العباس لتوزر فى سنة ٧٨٣ هـ[٢]. ولكن هذه النسخة الأولى أكملت بعدئذ، وأضيفت اليها أقسام كبيرة أخرى فى تاريخ الدول الإسلامية فى المشرق، وتاريخ الدول القديمة والدول النصرانية كما سنبين بعد.

وفى نفس اليوم الذى رفع فيه ابن خلدون النسخة الأولى من كتابه للسلطان أبى العباس، أنشده قصيدة طويلة فى نحو مائة بيت، يشيد فيها بسيرته وأعماله، ويستدر عطفه ورعايته، وينوه بكتابه؛ وهى من أشهر قصائده، وهذا مطلعها:

هل غير بابك للغريب مؤمل — أو عن جنابك للأمانى معدل
هى همة بعثت إليك على النوى — عزما كما شحذ الحسام الصيقل
متبوأ الدنيـــا ومنتجع المنى — والغيث حيث العارض المتهلل

ومنها:

أرح الركاب فقد ظفرت بواهب — يعطى عطاء المنعمين فيجزل
لله من خلق كريم فى النـــدى — كالروض حياه ندى مخضوضل
هـــذا أمير المؤمنين أمامنا — فى الدين والدنيا اليه الموئل
هذا أبو العباس خير خليفة — شهدت له الشيم التى لا تجهل
سبق الملوك الى العـــلا متمهلا — لله منك الســـابق المتمهل
فلأنت أعلى المالكين وإن غدوا — يتسابقون الى العـــلاء وأكمل

(١) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤٥ و ٣٤٦.
(٢) كتاب العبر ج ٦ ص ٣٩٦.

ومنها فى ذكر الكتاب :

واليك من سير الزمان وأهـــله ... عبرا يدين بفضلها من يعدل
صحفا تترجم عن أحاديث الألى ... غبروا فتجمل عنهم وتفصل
تبدى التبابع والعمالق سرها ... وثمـــود قبلهم وعاد الأوّل
والقائمون بملة الإســـلام من ... مصر وبربرهم إذا ما حصلوا
لخصت كتب الأولين بجمعها ... وأتيت أولها بما قد أغفـــلوا
وألنت حوشىّ الكلام كأنما ... شُرُد اللغات بها لنطقى ذلَّلُ
وجعلته لسوار ملكك مفخرا ... يبهى الندى به ويزهو المحفل
ولله ما أسرفت فيما قلتـــه ... شيئاً ولا الإسراف منى يجمل

على أن هذه الدعة التى تفيأ ابن خلدون ظلالها مدى حين ، ما لبث أن غشيها الكدر . فما زال ابن عرفه وحلفاؤه خصوم المؤرخ فى دسهم وسعايتهم ؛ ولم تثمر هذه السعاية فى حرمان المؤرخ من عطف مليكه ، ولكنها أثمرت فى إزعاجه من طريق آخر . ذلك أن السلطان حينما تأهب للخروج بجيشه لمقاتلة الخوارج عليه فى توزر وأعمالها سنة ثلاث وثمانين ، أمر ابن خلدون بالسفر معه ، فصدع ابن خلدون بالأمر مكرها . وكانت نفسه قد عافت أحداث السياسة ، وأضحى يرغب عن هذه المهام السلطانية الخطرة . ولما أتمت الحملة أعمالها أذن له السلطان بالعود قبله ، فقصد الى ضيعته بجوار تونس وأقام بها حتى عاد السلطان ظافرا ، فصحبه الى تونس. ولم تمض أشهر قلائل حتى تأهب السلطان للخروج فى جيشه مرة أخرى . فخشى ابن خلدون أن يعود السلطان الى استصحابه فى حملاته ، وألا يستقر له قرار بعد . فاعتزم عندئذ مغادرة تونس

وخطرت له فكرة الحج ، يتوسل بها عذراً الى السلطان . فتضرع إليه أن يخلي سبيله وأن يأذن له في قضاء الفريضة ، فأذن ؛ وغادر ابن خلدون وطنه ومسقط رأسه كرة أخرى ، فكانت الهجرة الأبدية ؛ وخرج الى مرسى السفينة ، في حفل مؤثر من الأعيان والأصدقاء والتلاميذ يودعونه بين مظاهر الحزن والأسى ، وركب البحر الى المشرق في منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (اكتوبر سنة ١٣٨٢م) .

* * *

وهكذا اختتم ابن خلدون بالمغرب حياة حافلة بصنوف المغامرات والحوادث ؛ ولم تكن بلا ريب خاتمة باهرة ؛ ولم تكن مما يرضي نفسه الكبيرة . كان ابن خلدون بلا ريب أعظم سياسي ومفكر عرفته إفريقية[1] والأندلس في القرن الثامن الهجري ؛ وكانت تلك الخلال والمواهب البديعة التي حملته الى ذروة الحوادث ، وجعلت منه شخصية بارزة في تاريخ المغرب وتطوراته السياسية مدى ربع قرن ، واستطاع بفضلها أن ينعم بالزعامة والنفوذ الواسع بين تلك القبائل الصحرية التي عرفت دائماً بقوة الشكيمة وجفاء النزعة ، خليقة بأن تهيء له مكانة رفيعة وطيدة في دول العصر وقصوره . وقد أنفق ابن خلدون ربع قرن في خوض غمار السياسة ودسائس القصور ، وتقلب في خدمة جميع الدول المغربية ، وتمتع مراراً بمزايا الرياسة والحكم ، وذاق مراراً محن النقمة ومرارة الاعتقال والأسر وخطر الهلاك ؛ ثم إذا به بعد طول العناء والجهد يجد نفسه حيث بدأ ، ويصبح فإذا به قد فقد عطف جميع القصور والدول

(١) نستعملها هنا بمعنى المغرب بجميع أقطاره .

التى تقلب فى خدمتها وأسدى اليها أجل الخدمات أحياناً ؛ ثم إذا به يجد نفسه فى هذا الملاذ الأخير الذى آوى اليه واستقر فى ظلاله ، موضع السعاية والكيد . وكان يشعر منذ حين بمرارة هذه الخيبة ويلتمس السلوى فى البحث والتأليف ؛ وقد هدأت نفسه المضطرمة بشغف النضال والمغامرة ، وعاف أحداث السياسة ، وأخذ يتبرم بقضاء تلك المهام السلطانية التى كان يتخذ قضاءها وسيلة للنفوذ والرياسة . وكان ينشد الاستقرار والحياة الهادئة بعد طول التجوال ويرجو أن يطوى مرحلة الحياة فى وطنه ، ويثوى اليه الثواء الأخير الى جانب آبائه وأجداده . ولكنه لم يظفر حتى بتلك الأمنية المتواضعة ، وأزعجه كيد خصومه فى مقامه الهادىء ؛ وخشى أخيراً عاقبة الكيد والسعاية ، ولم يجد فى تونس ما كان ينشد من هدوء وسكينة ؛ فاضطر أن يلتمس الحج عذراً للرحيل والنجاة ، وأن يودع الأهل والولد ، وأن يغادر الوطن وحيداً فريداً ، الى حيث لايعلم ماذا هيأت له الأقدار .

٣

ابن خلدون فى مصر

٧٨٤ – ٨٠٨ هـ : ١٣٨٢ – ١٤٠٦ م

الفصل السادس

ولاية التدريس والقضاء

مقدم ابن خلدون الى مصر. وصفه للقاهرة . جلوسه بالأزهر . اتصاله بالبلاط . ولايته التدريس بالمدرسة القمحية . الدرس الأول . ولايته لقضاء المالكية . اضطراب الأفق حوله . حديثه عن القضاء . تعليق الكتاب المصريين على مسلكه . هلاك أسرته فى البحر . عزله عن القضاء وبقاؤه فى منصب التدريس . سفره للحج . ولايته للتدرس فى الصرغتمشية . الدرس الأول . تعيينه شيخاً لخانقاه بيبرس . ثورة يلبغا الناصرى وعزل السلطان برقوق . سقوط يلبغا وعود برقوق الى العرش . تأملات ابن خلدون عن الدول المصرية . انقطاعه للدرس والبحث . سعيه الى عقد الصلة بين بلاط مصر وقصور المغرب .

— ١ —

غادر ابن خلدون تونس فى منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (اكتوبر سنة ١٣٨٢م) ، كما قدمنا ، فوصل الى ثغر الاسكندرية فى يوم عيد الفطر بعد رحلة بحرية شاقة . ويقول لنا ابن خلدون إنه قدم الى مصر لينتظم منها فى ركب الحاج وإنه لبث بالاسكندرية شهراً يهيىء العدة لذلك ، ولكن لم يتح له يومئذ أن يحقق هذه الغاية ، فقصد الى القاهرة [١] . ولكن قضاء الفريضة لم يكن سوى حجته الظاهرة فى مغادرة تونس ؛ وكان مقدمه الى مصر ، كما رأينا نوعاً من الفرار ، وخيفة البطش والمحنة . وكان يرجو بلا ريب أن

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٥٢ .

يقضى أيامه بمصر فى هدوء ودعة ، وأن ينعم بذلك الاستقرار الذى لم تهيئه له بالمغرب حياة النضال والمغامرة . وكان يومئذ فى الثانية والخمسين من عمره ، ولكنه كان وافر النشاط والقوة ، يتطلع دائماً الى مراتب النفوذ والعزة ؛ وكانت القاهرة يومئـذ موئل التفكير الإسلامى فى المشرق والمغرب ، ولبلاطها شهرة واسعة فى حماية العلوم والآداب . فكان يرجو أن ينال قسطه من هذه الرعاية والحماية .

ووصل ابن خلدون الى القاهرة فى أول ذى القعدة سنة ٧٨٤ — نوفمبر سنة ١٣٨٢ ؛ فبهرته ضخامتها وعظمتها وبهاؤها كما بهرت سلفه ومواطنه الرحالة ابن بطوطة قبل ذلك بنصف قرن[1] ، وكما بهرت على كر العصور كل من رآها من أعلام المشرق والمغرب. ولا غرو فان المؤرخ لم ير بالمغرب سوى تلك المدن الصحرية المتواضعة ، ولم ير بالأندلس حيث قضى ردحاً من الزمن مدينة فى عظمة القاهرة وروعتها . وهو يهتف للقاهرة أثر مقدمه ويحييها بحماسة تنم عن عميق إعجابه وسحره وتأثره ، ويصفها فى تلك الفقرة الرنانة : « فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكرسى الملك ؛ تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه ؛ قد مثل بشاطيء النيل نهر ، ومدفع مياه السماء ، يسقيه العلل والنهل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجه ؛ ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم ... » .

---

(١) وفد ابن بطوطة على القاهرة سنة ٧٢٦ هـ — ١٣٢٦ م فى عهد الناصر بن قلاوون .

ولم يكن ابن خلدون نكرة فى مصر ، فقد كان المجتمع القاهرى يعرف الكثير عن شخصه وسيرته ؛ وكان ذكر مؤلفه الضخم ولا سيما مقدمته الشهيرة قد سبقه ، وذاعت نسخه الأولى قبل ذلك بقليل فى مصر وغيرها من بلدان المشرق ، وأعجبت دوائر العلم والتفكير والأدب بطرافة مقدمته وجدتها وروعة مباحثها. فلم يكد يحل بالقاهرة حتى أقبل عليه العلماء والطلاب من كل صوب . يقول ابن خلدون فى كبرياء وتواضع معاً : « وانثال على طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة ، ولم يوسعونى عذرا »(١) وهذا ما تشير اليه التراجم المصرية ؛ فيقول أبو المحاسن بن تغرى بردى فى ترجمته لابن خلدون : « واستوطن القاهرة وتصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة ، واشتغل وأفاد »(٢) ويقول السخاوى : « وتلقاه أهلها (أى أهل مصر) وأكرموه ، وأكثروا ملازمته والتردد عليه ، بل تصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة ... »(٣) . جلس ابن خلدون للتدريس بالأزهر ، والظاهر أنه كان يدرس الحديث والفقه المالكى ويشرح نظرياته فى العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول ، وغيرها مما عرض اليه فى مقدمته . وكانت هذه الدروس خير اعلان عن غزير علمه ، وشائق بحثه ، وساحر

---

(١) كتاب العبر ج ١ ص ٤٥٢ .

(٢) كتاب المنهل الصافى لابن تغرى بردى — نسخة دار الكتب الخطية رقم ١١٣ تاريخ — ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٣) كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى — نسخة دار الكتب الفوتوغرافية رقم ٦٧٥ تاريخ المجلد الثانى من القسم الثانى ، ص ٣٦٧ (وقد طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ . ج ٤ ص ١٤٦).

بيانه . وكان ابن خلدون محدثاً بارعاً رائع المحاضرة ، يخلب ألباب سامعيه بمنطقه وذلاقته . وهذا ما يحدثنا به جماعة من أعلام التفكير والأدب المصريين الذين سمعوه أو درسوا عليه ؛ ومنهم المؤرخ الكبير تقي الدين المقريزى الذى سمعه ودرس عليه فتى[1] ، وكذا الحافظ ابن حجر ؛ فقد درس عليه وانتفع بعلمه ووصفه بقوله : « وكان لسنا ، فصيحاً ، حسن الترسل وسط النظم ؛ مع معرفة تامة بالأمور خصوصاً متعلقات المملكة »[2] ونقل السخاوى عن الجمال البشبيشى أنه « كان فصيحاً مفوهاً جميل الصورة » ، وعن الركراكى « ان محاضرته اليها المنتهى »[3] .

وهكذا استطاع ابن خلدون لأول مقدمه أن يخلب ألباب المجتمع القاهرى ، وأن يستثير إعجابه وتقديره ؛ ولكن صفاء الأفق من حوله لم يدم طويلا كما سنرى . وفى أثناء ذلك اتصل ابن خلدون بأمير من أمراء البلاط يدعى علاء الدين الطنبغا الحوانى[4] فشمله برعايته ، وساعده على التقرب من السلطان والاتصال به ؛ وكان السلطان يومئذ الظاهر برقوق ، وقد ولى الملك قبيل مقدم ابن خلدون بأيام قلائل (أواخر رمضان سنة ٧٨٤) ، فأكرم وفادة المؤرخ واهتم بأمره ؛ يقول ابن خلدون : « فأبر

---

(١) نعود الى تقدير المقريزى لشيخه ابن خلدون فيما بعد .

(٢) كتاب أنباء الغمر فى أنباء العمر لابن حجر العسقلانى (نسخة دار الكتب الخطية رقم ٢٤٧٦ تاريخ) ج ١ ص ٧١١ .

(٣) الضوء اللامع — المجلد الثانى من القسم الثانى ، ص ٣٦٩ .

(٤) هكذا اسمه فى «المنهل الصافى» ولكن السخاوى يسميه « الطنبغا الجوبانى » .

مقامى ، وآنس الغربة ، ووفر الجراية من صدقاته ، شأنه مع أهل العلم » وبذا تحققت أمنية المؤرخ من الاستقرار والمقام الهادىء فى ظل أمير يحميه ويكفل رزقه . ولم يمض قليل على ذلك حتى خلا منصب للتدريس بالمدرسة القمحية ، بجوار جامع عمرو وهى من مدارس المالكية ، فعينه السلطان فيه . ويعنى ابن خلدون فى تعريفه ، بوصف مجلسه الأول فى هذا المعهد ، فقد شهده جمهرة من الأكابر أرسلهم السلطان لشهوده والتفوا حول المؤرخ . وألقى ابن خلدون فى ذلك الحفل خطاباً بليغاً ، يحرص على إيراده بنصه . وقد تكلم فيه بعد الديباجة عن فضل العلماء فى شد أزر الدولة الإسلامية ، وعن تغلب الدول ؛ ثم أشاد بما لدول السلاطين المصرية من فضل فى نصرة الإسلام ، وإعزازه ، ومن همم فى إنشاء المساجد والمدارس ، ورعاية العلم والعلماء والقضاة ؛ ثم دعا للملك الظاهر ، وأشاد بعزمه وعدله وعقله ؛ وعطف بعدئذ على نفسه ، وما أوليه من شرف المنصب فى تلك العبارة الشعرية :

« ولما سبحت فى اللج الأزرق ، وخطوت من أفق المغرب الى المشرق ، حيث نهر النهار ينصب من صفحة المشرق ، وشجرة الملك التى اعتز بها الإسلام تهتز فى دوحه المعرق ، وأزهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق ، وينابيع العلوم والفضائل تمد وشلنا من فراته المغدق ... أولونى عناية وتشريفاً ، وغمرونى إحساناً ومعروفاً ، وأوسعوا همتى إيضاحاً ونكرتى تعريفاً ، ثم أهلونى للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف ... الخ » .

وإنه لمنظر شائق ذلك الذى يقدمه إلينا ابن خلدون عن مجلسه

فى ذلك اليوم ومن حوله العلماء والأكابر يشهدون الدرس الأول لذلك المفكر المبدع . وهو يحرص على تدوينه كما يحرص على تدوين الأثر الذى يعتقد أنه أحدثه إذ يقول : « وانفض ذلك المجلس وقد شيعتنى العيون بالتجلة والوقار »[١] . وفى ذلك ما يدل على ما كان يشعر به ابن خلدون فى كبرياء وثقة من أنه كان شخصية ممتازة تجب إحاطتها بمظاهر خاصة من التكريم والرعاية .

وهنا يجب أن نلاحظ انه لم يرد وصف هذا المجلس العلمى ولا نص هذه الخطبة فى فصول « التعريف » الملحقة بكتاب « العبر » فى نهاية الجزء السابع من طبعة بولاق . فهذه الفصول تقف فى ترجمة ابن خلدون عند مستهل سنة ٧٩٧ هـ ، حيث يختتم ابن خلدون كلامه فى التعريف بنفسه[٢]. ولكن ابن خلدون قد أتم فصول التعريف بنفسه فيما بعد ، وزاد عليها تفاصيل سيرة حياته ، وما شهده من الحوادث فى مصر والشام منذ سنة ٧٩٧ هـ الى أواخر سنة ٨٠٧ هـ ، أعنى قبيل وفاته بقليل . وتوجد من هذا «التعريف» فى صورته المزيدة الكاملة نسخة خطية بدار الكتب المصرية [٣] ، هى التى اعتمدنا عليها فيما دونه ابن خلدون بعد ذلك من أحداث حياته وعصره ، وهى تحتوى على عدة فصول أخرى عن حياة

---

(١) راجع وصف ابن خلدون لمحاضرته الأولى وخطبته فى هذا الحفل فى التعريف بابن خلدون (١٩٥١) ص ٢٨٠—٢٨٥ . وهى النسخة الكاملة من التعريف التى يجىء ذكرها ووصفها بعد .

(٢) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٤٦٢ .

(٣) تحفظ هذه النسخة بدار الكتب رقم ١٠٩ م تاريخ .

ابن خلدون فى مصر ، وسفره الى الشام فى ركب السلطان ، حينما زحف عليها التتار ، ولقائه عاهل التتار تيمورلنك فى دمشق ، ثم عوده بعد ذلك الى مصر ، وما تلا بعد ذلك من حوادث حياته حتى قبيل وفاته ، وسوف نعود الى الكلام عن « التعريف » فى فصل خاص [1] .

ثم كانت الخطوة الثانية فى ظفره بمناصب الدولة ، وتعيينه قاضياً لقضاة المالكية فى أواخر جمادى الآخرة سنة ٧٨٦ هـ (أغسطس ١٣٨٤ م) [2] مكان القاضى المعزول جمال الدين ابن خير السكندرى . وكان ارتفاعه الى هذا المنصب الذى هو رابع

---

(١) هذا وقد عنى الأديب المغربى الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى باخراج نسخة التعريف الكاملة ، ورجع فى إخراجها بالأخص الى نسختين أصليتين تحفظ إحداهما بمكتبة أيا صوفيا والأخرى بمكتبة طبوقبوسراى باستانبول . وظهرت هذه الطبعة الكاملة المحققة من التعريف أخيراً بعناية لجنة التأليف والترجمة والنشر (سنة ١٩٥١) بعنوان : «التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً» فى مجلد كبير فى نحو أربعمائة صفحة حسنة التعليقات والشروح . وسوف تكون هذه النسخة مرجعنا منذ الآن .

(٢) يذكر ابن خلدون أن تعيينه فى هذا المنصب وقع لأول مرة فى رجب سنة ٧٨٦ . ولكن الروايات المصرية كلها متفقة على أن هذا التعيين كان فى جمادى الآخرة (السخاوى فى الضوء اللامع ؛ وابن تغرى بردى فى المنهل الصافى كل فى ترجمته لابن خلدون — والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٣) . ولكن يبدو من رواية ابن خلدون أنه بدأ بمباشرة وظيفته فى رجب ، وأنه يجعل من التعيين وبدء العمل واقعة واحدة .

أربعة تعتبر من أهم مناصب الدولة إيذاناً بوثوب العاصفة من حوله، واضطرام تلك الخصومات التى كدرت صفو مقامه، وأدالت نفوذه، واقتلعته من المنصب غير مرة. يقول ابن خلدون فى سخرية: «وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه الى أن سخط السلطان قاضى المالكية يومئذ فى نزعة من النزعات الملوكية، فعزله واستدعانى للولاية فى مجلسه وبين أمرائه، فتفاديت من ذلك، وأبى إلا مضاءه»(١). وقد عرف ابن خلدون هذه «النزعات الملوكية»، وعرف أنها تبطن من الشر والنقم فى معظم الأحيان أكثر مما تسبغ من العطف والنعم. ولكنه يريد أن نفهم أن ارتفاعه الى منصب القضاء لم يكن نزعة ملوكية فقط، وإنما اختاره السلطان كما يقول، «تأهيلا لمكانه وتنويها بذكره».

— ٢ —

ونستطيع أن نقدر أن ولاية ابن خلدون لخطة القضاء لم تكن حادثاً عادياً. فقد كان أجنبياً، وكان تقدمه فى حظوة السلطان، وفى نيل المناصب، سريعاً. وكانت مناصب التدريس والقضاء دائماً مطمح جمهرة الفقهاء والعلماء المحليين؛ ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بها الأجانب الوافدون دونهم. وإذاً فقد تولى العلامة المغربى منصبه فى جو يشوبه كدر الخصومة والحسد. وجلس بمجلس الحكم فى المدرسة الصالحية بحى بين القصرين؛ فلم يمض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية. ويقول لنا ابن خلدون فى سبب هذه العاصفة التى ثارت حول

(١) التعريف بابن خلدون ص ٢٨٥.

توليه القضاء ، كلاما طويلا عما كان يسود القضاء المصرى يومئذ من فساد واضطراب ، وما يطبع الأحكام من غرض وهوى ، وعما كان عليه معظم القضاة والمفتين والكتاب والشهود من جهل وفساد فى الذمة ؛ وانه حاول إقامة العـدل الصارم المنزه عن كل شائبة ، وقمع الفساد بحزم وشدة ، وسحق كل سعاية وغرض . يقول : « فقمت بما دفع الى من ذلك المقام المحمود ، ووفيت جهدى بما أمننى عليه من أحكام الله لا تأخذنى فى الله لومة ، ولا يرغبنى عند جاه ولا سطوة ؛ مسوياً بين الخصمين ، آخذاً بحق الضعيف من الحكمين ، معرضاً عن الشفاعات والوسـائل من الجانبين ؛ جانحاً الى التثبت فى سماع البينات ، والنظر فى عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات ؛ فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر ، والطيب متلبساً بالخبيث ؛ والحكام ممسكون عن انتقادهم ، متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم ، لما يموهون به من الإعتصام بأهل الشوكة ؛ فان غالبهم مختلطون بالأمراء ، معلمون للقرآن وأئمة للصلوات ؛ يلبسون عليهم بالعدالة فيظنون بهم الخير ؛ ويقسمون لهم الحظ من الجاه فى تزكيتهم عند القضاة والتوسل لهم ؛ فأعضل داؤهم ، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ؛ ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ، وموئلم النكال .. » . ثم يعدد نواحى الفساد التى شهدها ، وجد فى إصلاحها وقمعها ، وكيف مضى فى سبيله « من الصرامة وقوة الشكيمة » وكيف احتقر شفاعات الأعيان والأكابر خلافاً لما اصطلح عليه زملاؤه القضاة

من قبولها ، حتى ثار عليه السخط من كل ناحية ، وسلقته جميع الألسن وكثرت في حقه السعاية لدى البلاط[1] .

وهذا التعليل الذى يقدمه لنا ابن خلدون عن سبب الحفيظة عليه ، واضطرام الخصومة حوله ، معقول يحمل طابع الصراحة والصدق . بل هذا ما تسلم به التراجم المصرية المعاصرة والقريبة من عصره . فيقول أبو المحاسن مثلا مشيراً الى ولايته للقضـــاء : « فباشره بحرمة وافرة ، وعظمة زايدة ، وحمدت سيرته ودفع رسائل أكابر الدولة ، وشفاعات الأعيان ، فأخذوا فى التكلم فى أمره»[2] . ويقول ابن حجر وينقله السخاوى : « فتنكر (أى ابن خلدون) للناس بحيث لم يقم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه مع اعتذاره لمن عتب عليه فى الجملة ، وفتك فى كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وصار يعزر بالصفع ، وشبهة الزج ، فاذا غضب على إنسان قال زجوه ؛ فيصفع حتى تحمر رقبته »[3] . وفيما ينقل السخاوى قصد الى التعريض والانتقاص . وسنرى أنه شديد الوطأة على ابن خلدون يشتد فى نقده وتجريحه ؛ ولكن فى قوله ما يؤيد أن ابن خلدون كان يصدر فى قضائه عن نزاهة وحزم وصرامة ؛ بل هو يشهد لابن خلدون بذلك صراحة ، حينما يقول عنه فى موضع آخر : « ولم يشتهر عنه فى منصبه إلا الصيانة » .

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٥٣ و ٤٥٤ . وفى التعريف ص ٢٥٤ و ٢٥٥ .

(٢) المنهل الصافى ج ٢ ص ٣٠١ .

(٣) ابن حجر فى رفع الاصر عن قضاة مصر (مخطوط دار الكتب) فى ترجمة ابن خلدون ص ١٥٩ ؛ والسخاوى فى الضوء اللامع المجلد الثانى من القسم الثانى ص ٣٦٧ . وطبع مصر ج ٤ ص ١٤٦ .

انقضت العاصفة على ابن خلدون إذاً لأشهر قلائل من ولايته ، وكثر السعى فى حقه والإغراء به حتى « أظلم الجو بينه وبين أهل الدولة » على حد تعبيره ، وفقد حظوته وما كان يتمتع به من عطف ومؤازرة . وأصابته فى ذلك الحين نكبة أخرى هى هلاك زوجه وولده وماله . وكان منذ مقدمه ينتظر لحاق أسرته به ؛ ولكن سلطان تونس حجزها عن السفر ليرغمه بذلك على العودة الى تونس ، فتوسل الى السلطان الظاهر أن يشفع لديه فى تخلية سبيل أسرته ففعل ، وأطلق سراح الأسرة وركبت البحر الى مصر . ويروى لنا ابن خلدون نبأ الفاجعة فى قوله : « ووافق ذلك مصابى بالأهل والولد . وصلوا من المغرب فى السفين ؛ فأصابها قاصف من الريح ، فغرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود ؛ فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزهد ، واعتزمت على الخروج عن المنصب » . ولم يمض سوى قليل حتى أقيل المؤرخ من منصب القضاء ، أو بعبارة أخرى حتى عزل . بيد أنه يريد أن نفهم أن هذا العزل جاء محققاً لرغبته إذ يقول : « وشملتنى نعمة السلطان أيده الله فى النظر بعين الرحمة ، وتخلية سبيلى من هذه العهدة التى لم أطق حملها ، ولا عرفت فيما زعموا مصطلحها ، فردها الى صاحبها الأول ، وأنشطنى من عقالها ؛ فانطلقت حميد الأثر مشيعاً من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء ، تلحظنى العيون بالرحمة ، وتتناجى الآمال فى بالعودة » .
والخلاصة ان ابن خلدون يؤكد لنا ان عزله كان نتيجة التحامل والحقد والسعاية فقط ، وانه أثار استياء وأسفا فى المجتمع القاهرى ، وانه غادر منصبه موفور الكرامة والهيبة . بيد أننا سنرى ، حسبما

يشير في قوله المتقدم ، انه كان يرمى بجهل الأحكام والإجراءات . وبأنه لم يكن بذلك أهلا لتولى القضاء ، وبأنه كان مشغوفاً بالمنصب أشد ما يكون حرصاً عليه .

وكان عزل ابن خلدون عن منصب القضاء لأول مرة فى السابع من جمادى الأولى سنة ٧٨٧ هـ (يوليه ١٣٨٥ م) ، أعنى لنحو عام فقط من ولايته، فانقطع الى الدرس والتأليف كرة أخرى .

على أن هذا العزل لم يكن إيذاناً بسخط السلطان ونقمته ؛ فقد لبث ابن خلدون في منصب التدريس بالقمحية ؛ ولم يمض سوى قليل حتى عينه السلطان أيضاً لتدريس الفقه المالكى بمدرسته الجديدة التى أنشأها فى حى بين القصرين (المدرســـة الظاهرية البرقوقية) . واحتفل ابن خلدون كعادته بالدرس الأول ، وألقى خطاباً بليغاً يدعو فيه للسلطان ، ويعتذر عن قصوره فى تواضع ظريف[1]. واشتغل بالدرس فى المعهدين حتى كان موسم الحج عام تسعة وثمانين ، فاعتزم عندئذ أداء الفريضة . وأذن له السلطان وغمره بعطائه . وغادر القاهرة فى منتصف شعبان ؛ وقصد الى الحجاز بطريق البحر ؛ ثم عاد بعد أداء الفريضة ، بطريق البحر أيضاً حتى القصير ؛ ثم اخترق الصعيد بطريق النيل ، فوصل القاهرة فى جمادى الأولى سنة تسعين (٧٩٠ هـ) ؛ وقصد السلطان تواً وأخبره بأنه دعا له فى الأماكن المقدسة، فتلقاه بالعطف والرعاية. ثم خلا كرسى الحديث بمدرسة صرغتمش[2] ، فولاه السلطان إياه

(١) راجع التعريف بابن خلدون ص ٢٨٦ .

(٢) كان موقع هـذه المدرسة شمال الجامع الطولونى على مقربة من القلعة .

بدلا من تدريس الفقه بالمدرسة السلطانية ؛ وجلس للتدريس فيها فى المحرم سنة إحدى وتسعين ، وألقى خطاب الإفتتاح كعادته فى حفل فخم ، وأعلن أنه قد قرر للقراءة فى هذا الدرس كتاب الموطأ للإمام مالك ؛ ويعرفنا ابن خلدون بموضوع درسه الأول فى ذلك اليوم ، فقد تكلم فيه عن مالك ونشأته وحياته وكيفية ذيوع مذهبه ، ثم يقول لنا فى كبريائه المعهود : « وانفض ذلك المجلس ، وقد لاحظتنى بالتجلة والوقار العيون ، واستشعرت أهليتى للمناصب القلوب ، وأخلص النجا فى ذلك الخاصة والجمهور »[1]

— ٣ —

ثم عين المؤرخ فى وظيفة أخرى هى مشيخة (نظارة) خانقاه ببيبرس ، وهى يومئذ أعظم الخوانق أو ملاجىء الصوفية[2] ، فزادت جرايته ، واتسعت موارده . ولكن أمد سكينته لم يطل ، فقد نشبت فتنة خطيرة أودت بعرش الظاهر برقوق ، بطلها ومدبرها الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب ؛ وكانت نظم البلاط القاهرى وظروفه وما يضطرم به من الدسائس والخيانات مما يسمح بتكرار هذه الفتن ؛ وكان يلبغا الناصرى نائب السلطنة من قبل ، وزعيم عصبة قوية من الأمراء والفرسان ؛ وكان الظاهر برقوق من حملة أمرائه وتابعيه ؛ ولكنه استطاع فى فتنة سابقة (رمضان سنة ٧٨٤)

---

(١) التعريف بابن خلدون ص ٢٩٤—٣١٠ حيث يورد نص محاضرته كلها .

(٢) كانت هذه الخانقاه الشهيرة تقع فى طريق باب النصر على مقربة منه .

أن يظفر بالعرش دونه ، وأن يجرده من سلطته ونفوذه ، وأن يقصيه الى الشام . ثم سنحت فرصة الخروج ليلبغا ، فسار الى القاهرة في أتباعه وتحول أنصار برقوق عنه ، ففر من القلعة ، ودخل يلبغا الناصري القاهرة ، وأعاد الصالح حاجي السلطان المخلوع الى العرش ، وقبض على برقوق وأرسله سجيناً الى الكرك (جمادى الأولى سنة ٧٩١). ولكن ثورة أخرى نشبت بقيادة أمير آخر يدعى منطاش ، فقبض على الناصري ، وسار الى دمشق لمحاربة برقوق الذى استطاع أن يفر من سجنه ؛ فهزمه برقوق وعاد الى القاهرة ظافراً منصوراً ، واسترد عرشه فى صفر سنة ٩٢ ، لبضعة أشهر فقط من عزله .

ويخصص ابن خلدون فى « تعريفه » فصلا طويلا لهذه الحوادث[١] ويمهد له بشرح فلسفى اجتماعى يتحدث فيه عن نهوض الدول بقوة العصبية واتساع ملكها ، ثم طغيان الحضارة والرفاهية عليها ، وخروج الأقوياء منها ، وبثهم فيها روحاً جديداً من القوة ، وتكرر هذه الظاهرة ، ثم يطبق نظريته على دول المماليك المصرية منذ صلاح الدين ، ويقص تاريخها باختصار . وهنا يبدو ابن خلدون كما يبدو فى مقدمته ، ذلك الفيلسوف الاجتماعى الذى يعنى بتعليل الظواهر والكائنات ، واستقرائها فى حوادث التاريخ .

والظاهر أن ابن خلدون قد عانى من جرّاء هذه الفتنة ، ففقد مناصبه وأرزاقه كلها أو بعضها بسقوط الحزب الذى يتمتع بعطفه ورعايته . فلما عاد الظاهر برقوق الى العرش ردت اليه . يدل على

---

(١) راجع هذا الفصل فى التعريف بابن خلدون ص ٣١٤—٣٣٥ وراجع خطط المقريزى (بولاق) ج ٢ ص ٢٤٢ .

ذلك قوله فى التعليق على عود الظاهر : « ثم أعاده الى كرسيه للنظر فى مصالح عباده ، وطوقه القلادة التى ألبسه كما كانت ، فأعاد لى ما كان أجراه من نعمته »[1] .

ولبث ابن خلدون على ذلك أعواماً ينقطع للبحث والدرس . وهو يقف بالتعريف بنفسه عند هذه المرحلة ، حتى مستهل سنة سبع وتسعين (٧٩٧) ، فى الترجمة المتداولة الملحقة بتاريخه ؛ ولكنه يمضى فى هذا التعريف مراحل أخرى ، فى النسخ المخطوطة التى أتينا على ذكرها والتى نشرت محققة حسبما تقدم باسم « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » ؛ وفيها يفصل حوادث حياته حتى مختتم سنة ٨٠٧ ، أعنى قبل وفاته ببضعة أشهر . ونسخة التعريف هذه أكثر تفصيلا وإسهاباً حتى فيما تتفق فيه مع فصول كتاب العبر من مراحل الترجمة ؛ ولهذا آثرنا الرجوع اليها الى جانب كتاب العبر فى كل ما هو أوفى وأتم مما تقدم ذكره من المراحل . غير أن نسخة « التعريف » الجديدة ستكون منذ الآن وحدها مرجعنا فيما سيأتى من تفاصيل حياة المؤرخ حتى وفاته .

ليس فى حياة ابن خلدون فى هذه الفترة ما يستحق الذكر سوى سعيه الى عقد الصلات بين البلاط القاهرى وسلاطين المغرب . ويجمل ابن خلدون ذكر هذه الصلات الملوكية ، ويصف المراسلة والمهاداة بين صلاح الدين وبنى عبد المؤمن ملوك المغرب ؛ وبين الناصر قلاوون وملوك بنى مرين ؛ ويصف الهدايا المصرية والمغربية ؛ ثم يعطف على مساعيه فى عقد الصلة بين الملك الظاهر

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٦٢ .

وسلطان تونس ؛ وملخصها أنه كتب الى سلطان تونس يحثه على إهداء ملك مصر ، فأرسل اليه هدية من الجياد النادرة ، ولكنها غرقت مع السفينة التى كانت تحمل أسرة المؤرخ كما قدمنا . ورد الملك الظاهر باهداء سلطان تونس ؛ ثم بعث سنة تسع وتسعين الى المغرب ليشترى عددا من الجياد ، فزود ابن خلدون الرسل بالإرشاد والتوصية . ولكنهم عادوا بهدية فخمة كان سلطان تونس قد أعدها وتأخر ارسالها ؛ وعدة هدايا أخرى قدمها أمراء المغرب ، ومنها خيل مسومة ، وعدد وسروج ذهبية . ويصف لنا ابن خلدون يوم تقديم الهدايا وعرضها ، ثم يقول لنا إنه شعر يومئذ بالفخر وحسن الذكر بما « تناول بين هؤلاء الملوك من السعى فى الوصلة الثابتة على الأبد »[1] .

---

(١) راجع الفصل الخاص بذلك فى « التعريف » ص ٣٣٥—٣٤٦ .

الفصل السابع

فى دمشق وفى معسكر تيمورلنك

عود ابن خلدون الى منصب القضاء . وفاة السلطان برقوق وولاية الناصرفرج . رحلة ابن خلدون الى فلسطين . عزله عن القضاء . غزو التتار للشام . مسير الناصر فرج الى لقاء الغزاة . استصحابه لابن خلدون الى دمشق . عوده فجأة الى مصر. نزول ابن خلدون من أسوار دمشق وسيره الى معسكر تيمورلنك . وصفه للقائه مع الفاتح . حديثه مع تيمورلنك . رسالته عن جغرافية المغرب . حديث الخلافة مع الفاتح . هدية ابن خلدون لتيمورلنك ، ومفاوضاته فى الصلح . رواية المقريزى وابن إياس وابن عربشاه عن هذه المفاوضات . استئذان ابن خلدون للفاتح فى السفر . عوده الى مصر. سعى ابن خلدون الى استعادة منصب القضاء . ولايته للمرة الثالثة . اضطرام الدسائس من حوله . ذروة المعركة بينه و بين خصومه . تعاقب الولاية على القضاء والعزل منه . وفاة ابن خلدون .

— ١ —

لبث ابن خلدون بعيداً عن منصب القضاء زهاء أربعة عشر عاما ، يحول بينه و بين توليه ، على قوله ، ذلك الجناح من البلاط الذى شغب فى حقه ، وأغرى السلطان بعزله ؛ فلما ضعف ذلك الحزب وانقرض رجاله ، انتهز السلطان أول فرصة لرده الى منصبه . وكان ذلك فى منتصف رمضان سنة إحدى وثمانمائة (مايو سنة ١٣٩٨ م) على أثر وفاة ناصر الدين التنسى قاضى المالكية . وكان ابن خلدون عندئذ بالفيوم يعنى بضم قمح ضيعته التى يستحقها من

أوقاف المدرسة «القمحية» ؛ فاستدعاه السلطان وولاه القضاء للمرة الثانية . ثم توفى السلطان بعدئذ بقليل ، فى منتصف شوال ؛ فخلفه ولده الناصر فرج ؛ وسرى الاضطراب الى شئون الدولة ، واضطرمت الفتن والثورات المحلية حينا . فلما استقرت الأمور نوعا ، استأذن المؤرخ فى السفر الى بيت المقدس ، فأذن له ؛ وجال ابن خلدون فى المدينة المقدسة ، يتفقد آثارها الخالدة ؛ وشهد المسجد الأقصى ، وقبر الخليل ، وآثار بيت لحم ، ولكنه أبى الدخول الى كنيسة القمامة (قبر المسيح) . يقول لنا : « وبناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم ، فنكرته نفسى ، ونكرت الدخول اليه ». ثم عاد من رحلته ووافى ركاب السلطان أثر عوده من الشام فى ظاهر مصر ، ودخل معه القاهرة فى أواخر رمضان سنة ٨٠٢ .

وفى المحرم سنة ثلاث عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية . وسنرى أن هذا العزل كان نتيجة لسعى منظم من خصوم المؤرخ ، وأن تكراره كان مظهرا بارزا لذلك النضال الذى كان يضطرم بينه وبين خصومه داخل البلاط وخارجه . ولم يمض قليل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام واستولى على مدينة حلب فى مناظر هائلة من السفك والتخريب (ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ — ١٤٠٠ م)[١] ثم اخترق الشام جنوباً الى دمشق . فروعت مصر لهذه الأنباء ، واضطرب

---

(١) راجع تفاصيل الاستيلاء على حلب فى المقريزى : السلوك فى دول الملوك — (مخطوط دار الكتب المصرية) ج ٣ ورقة ٢٣ .

البلاط أيما اضطراب ، وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى ورده ، واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء والصوفية ومنهم ابن خلدون . ولا ريب أن المؤرخ لم ترقه هـــذه المفاجأة التى ذكرته بما عانى بالمغرب من تلك المهام السلطانية الخطرة ؛ بل هو يقول لنا صراحة إنه حاول الاعتراض والتملص ، لولا أن غمره يشـــبك حاجب السلطان « بلين القول ، وجزيل الانعام »(١) . ويفرد المؤرخ فصلا لحوادث هذه الحملة ، ويمهد له بتعريف عن نشأة التتار والسلاچقة(٢) . وكان سفر الحملة فى ربيع الثانى سنة ٨٠٣ ، فوصلت الى دمشق فى جمادى الأولى ، ونزل ابن خلدون مع جمهرة الفقهاء والعلماء فى المدرسة العادلية ، واشتبك جند مصر توا مع جند الفاتح فى ظاهر دمشق فى معارك محلية ثبت فيها المصريون ؛ وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين. ولكن خلافاً حدث فى معسكر السلطان ، وغادره بعض الأمراء خفية الى مصر ؛ وعلم السلطان أنهم دبروا مؤامرة لخلعه ، وتولية أمير آخر يدعى لاچين ؛ فترك دمشق لمصيرها ، وارتد مسرعاً الى القاهرة فوصلها فى جمادى الآخرة(٣) . وعلى أثر ذلك وقع خلاف بين القادة والرؤساء حول تسليم المدينة . وهنا تغلب المؤرخ نزعة

---

(١) التعريف ، ص ٣٦٦ . ويقول المقريزى إن أوامر السلطان ليشبك كانت صريحة فى إرغام ابن خلدون على السفر (السلوك — ج ٣ ورقة ٢٤) .

(٢) يراجع هذا الفصل فى التعريف ص ٣٥١—٣٦٥ .

(٣) السلوك ، ج ٣ ورقة ٢٦ .

المغامرة كما تغلبه الأثرة . فقد خشى أن تقع المدينة فى يد الفاتح فيكون نصيبه الموت أو النكال ؛ ورأى أن يعتصم بالجرأة ، وأن يغادر جماعة المترددين الى معسكر الفاتح ، فيستأمنه على نفســـه ومصيره . ويحدثنا المؤرخ عن ذلك بصراحة ، فيقول معلقاً على ما شجر بين القادة من خلاف : « وبلغنى الخبر ، فخشيت البادرة على نفسى ، وبكرت سحرا الى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج ، أو التدلى من السور لما حدث عندى من توهمات ذلك الخبر »[١] . وانتهى المؤرخ باقناع زملائه فأدلوه من السور ، وألفى عند الباب جماعة من بطانة تيمورلنك وابنه شاه ملك الذى عينه لولاية دمشق عند تسليمها فانضم اليهم ، والتمس منهم مقابلة تيمور ؛ فساروا به الى المعسكر وأدخل فى الحال الى خيمة الفاتح . ويصف لنا ابن خلدون ذلك اللقاء الشهير فى قوله : « ودخلت عليه بخيمة جلوسه ، متكئاً على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين يديه تشربها الى عصب المغل ، جلوسا أمام خيمته حلقا حلقا . فلما دخلت عليه ، فاتحيت بالسلام وأوميت إيماءة الخضوع ، فرفع رأسه ، ومد يده الى فقبلتها ؛ وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت ، ثم استدعانى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعده يترجم بيننا »[٢] .

وتحدث الفاتح طويلا الى المؤرخ وسأله عن أحواله وأخباره وسبب مقدمه الى مصر وما وقع له بها ، ثم سأله عن المغرب ومدنه

---

(١) التعريف ص ٣٦٨ .

(٢) التعريف ص ٣٦٨ و ٣٦٩ .

وأحواله وسلاطينه ، وطلب اليه أن يكتب له رسالة فى وصف المغرب . وحدثه المؤرخ بأنه كان يسمع به ويتمنى لقاءه منذ أربعين سنة أعنى مذ تألق نجمه وبزغ مجده ، وشرح له طرفاً من آرائه ونظرياته الاجتماعية فى العصبية والملك . ولا ريب أن مفاوضة فى شأن المدينة وقعت أيضاً بين المؤرخ والفاتح واستطاع المؤرخ أن يقنع الرؤساء والفقهاء بالتسليم ؛ فقد فتحت دمشق أبوابها للفاتح على أثر ذلك ، وجاء القضاة والرؤساء وعلى رأسهم المؤرخ الى معسكر تيمورلنك يقدمون له الخضوع والطاعة . ويقول لنا ابن خلدون ان تيمورلنك صرفهم واستبقاه حيناً ؛ ثم انصرف واشتغل أياماً بكتابة رسالة فى وصف بلاد المغرب حتى أتمها وبلغت على قوله اثنتى عشرة كراسة صغيرة ، ثم قدمها الى تيمورلنك فأمر بترجمتها الى اللغة المغولية(١) .

وكان المفهوم أن دمشق قد نجت بالتسليم من بطش الفاتح ، ولكن التتار احتجوا باستمرار القلعة فى المقاومة ، فشددوا عليها الحصار حتى سلمت ، ثم اقتحموا المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيها السفك والعيث والنهب وأضرموا النار فى معظم أحيائها ؛ وتكررت المناظر المروعة التى وقعت فى حلب . على أن ابن خلدون لم يقطع

(١) لم تصل الينا هذه الرسالة التى كتبها ابن خلدون فى وصف بلاد المغرب، ولكن المرجح أنها لم تكن سوى صورة مفصلة مما كتبه عن ذلك فى تاريخه الكبير فى القسم الذى يخصصه لتاريخ البربر ويمهد له بوصف عام فى جغرافية هذه البلاد (راجع كتاب العبر — ج ٦ ص ٩٨ وما بعدها) .

صلته بالفاتح بل لبث متصلا به يتردد لزيارته خلال المحنة ؛ وحدثه تيمورلنك ضمن ما حدث بأمر شخص تقدم اليه مدعياً الخلافة وأنه سليل بنى العباس ، وجرت مناقشات فقهية طويلة فى شأنه اشترك فيها المؤرخ وأدلى فيها بآرائه ونظرياته فى الخلافة . وقدم ابن خلدون أيضاً الى الفاتح هدية هى « مصحف رائق وسجادة أنيقة ونسخة من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة » ولما قدمها اليه وضع تيمورلنك المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم ، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين فى مجلسه . والتمس المؤرخ منه فى هذا المجلس أماناً للقضاة والرؤساء والعمال فأجابه الى طلبه وأصدر الأمان .

هذه هى رواية ابن خلدون عن صلته بالفاتح التترى ، وما وقع له معه من المحادثات والمقابلات ، وقد كان فيها يؤدى دور السياسى القديم . ولكن مؤرخاً مصرياً كبيراً معاصراً هو المقريزى يفصل هذه الحوادث تفصيلا آخر ، فيقول لنا إن الذى فاوض تيمورلنك فى تسليم دمشق هو القاضى تقى الدين بن مفلح الحنبلى ؛ أرسله الزعماء الى الفاتح إجابة لطلبه فى عقد الصلح بعد أن فشل فى اقتحام المدينة بالعنف ، وان ابن مفلح بذل نفوذه لإقناع الزعماء بالتسليم ، وأنه هو الذى تدلى بعد ذلك من السور مع جماعة الأعيان والفقهاء ، واقتادهم الى معسكر الفاتح وعقد معه الصلح واستصدر منه الأمان ، ثم تولى بعد ذلك تنفيذ جميع رغائبه فى جمع المال والأسلاب . ولكن تيمورا نكث بعد ذلك عهده ، وقبض على ابن مفلح وزملائه ، واقتحم جنده المدينة ونهبوها وأضرموا النار

فيها[١]. ويؤيد هذه الرواية مؤرخ مصرى آخر هو ابن إياس ، ويقول لنا إن الزعماء اختاروا ابن مفلح للمفاوضة لأنه كان يعرف التركية[٢] . على أن المقريزى يؤيد رواية ابن خلدون فى مكان آخر فيقول لنا إنه « لما علم بتوجه السلطان تدلى من سور المدينة وسار الى تيمورلنك ، فأكرمه وأجلسه وأنزله عنده ؛ ثم أذن له بالمسير الى مصر فسار اليها » ، ثم يقول بعد ذلك إن تيمورلنك أصدر له مرسوم السفر وأطلق معه جماعة بشفاعته[٣] . وابن خلدون صريح فى روايته فى أنه هو المفاوض والوسيط فى عقد المهادنة بين الفاتح وأهل دمشق كما قدمنا وانه كان ممثل الرؤساء والقضاة لدى تيمورلنك ولا شك عندنا فى روايته . وهى من جهة أخرى رواية ابن عربشاه الدمشقى مؤرخ تيمورلنك الذى كتب تاريخه قريباً من هـــذه الحوادث ، فهو يصف لقاء ابن خلدون للفاتح تحت أسوار دمشق على رأس العلماء والقضاة ، ويصور لنا فى عبارة شعرية ساحرة منظر هذا اللقاء وما تخلله من أحاديث ومناقشات[٤] . على أن صحة هذه الرواية لا تمنع من جهة أخرى أن يكون ابن مفلح قد اشترك فى المفاوضة وتولى تنفيذ شروط التسليم .

ولعل ابن خلدون كان يعلق على صلته بالفاتح آمالا أخرى

---

(١) السلوك ، ج ٣ ورقة ٢٧ .

(٢) ابن إياس فى «تاريخ مصر» (بولاق) ج ١ ص ٣٣١و٣٣٢

(٣) السلوك ، ج ٣ ورقة ٢٨ .

(٤) ابن عربشاه فى كتاب «عجائب المقدور» (مصر) ص ١٢٣ وما بعدها . وراجع كتابى «مصر الاسلامية» ص ١٢١ .

غير ما وفق اليه فى شأن دمشق وشأن زملائه العلماء والقضاة ؛ ولعله كان يرجو الانتظام فى بطانة الفاتح والحظوة لديه والتقلب فى ظل رعايته ونعمائه . على أنه لم يوفق بلا ريب الى تحقيق مثل هذه الأمنية ؛ فلم تمض أسابيع قلائل حتى سئم البقاء فى دمشق، وذهب الى تيمور يستأذنه فى العود الى مصر ، فأذن له وطلب اليه فى تلك المقابلة أن يقدم اليه بغلة إذا استطاع فأهداه المؤرخ إياها ، وبعث اليه تيمور ثمنها فيما بعد عقب وصوله الى مصر . وغادر المؤرخ دمشق فى شهر رجب (سنة ٨٠٣) لنحو شهرين فقط من مقدمه اليها ؛ ودهمه اللصوص أثناء الطريق فسلبوه ماله ومتاعه ؛ ولكنه وصل سالماً الى القاهرة فى أوائل شعبان سنة ثلاث وثمانمائة .

وهنا يهتف المؤرخ مغتبطاً بنجاته : « وحمدت الله على الخلاص » ويقول لنا انه كتب الى سلطان المغرب مولاه السابق ، يصف هذه الحوادث وما وقع خلالها بينه وبين تيمورلنك ، ويصف له الفاتح وعظيم بأسه وشاسع ملكه وروعة سلطانه .

— ٢ —

وما كاد ابن خلدون يستقر فى القاهرة حتى أخذ يسعى للعود الى منصب القضاء . وقد رأينا أنه كان يحتفظ دائماً بكرسى التدريس فى مدرسة أو اثنتين . ولكن القضاء من مناصب السلطة والنفوذ ؛ وكان ابن خلدون يشعر وهو فى ذلك الجو المشوب بكدر الخصومة والمنافسة ، أنه بحاجة الى ذلك النفوذ الذى اعتاد أن يتمتع به فى جميع علائقه السلطانية ؛ وكانت المعركة التى تضطرم حول ذلك الكرسى ، والتى شهدنا مظاهرها فى تكرار تعيينه وعزله ، تذكى

بلا ريب فى نفسه شهوة الظفر بذلك الكرسى ، فيكون ذلك آية نصره على خصومه ومنافسيه . وكان المؤرخ قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع أبدا الى مسند النفوذ والجاه . ويصور لنا هذه النفسية مؤرخ مصرى نزيه ثقة فى إشارة موجزة إذ يقول لنا فى خاتمة ترجمته للمؤرخ « رحمه الله ، ما كان أحبه فى المنصب »(١) . وكان ثمة شيء آخر الى جانب هذا الشغف بالمنصب ؛ فقد كان بين ابن خلدون وبين خصومه نضال ، وكان منصب القضاء كما سنرى محور هذه المعركة . يرتفع ابن خلدون اليه كلما استطاع أن يسترد مكانته فى القصر وأن يتغلب على كيد خصومه ، ويفتقده كلما نجحت سعاية خصومه فى حقه .

عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية فى المحرم سنة ثلاث كما قدمنا ، وذهب معزولا فى ركب السلطان الى الشام ؛ فاتخذ خصومه بعده عن القاهرة فرصة للدس فى حقه ، وزعم بعضهم أنه هلك فى حوادث دمشق(٢) . ويريد المؤرخ هنا أن نفهم أن المنصب كان محفوظاً له أو أنه وعد على الأقل برده اليه من أولى الأمر ، فيقول لنا إنه على أثر هذا الإرجاف فى حقه عين مكانه فى قضاء المالكية ، جمال الدين الإقفهسى (جمادى الثانية سنة ثلاث) فلما عاد الى مصر عدل عن ذلك ، وعزل الاقفهسى ؛ وولى ابن خلدون للمرة الثالثة فى أواخر شعبان أو أوائل

---

(١) ابن تغرى بردى ، فى المنهل الصافى ج ٢ ورقة ٣٠١ .

(٢) التعريف ص ٣٨٣ .

رمضان[1] فلبث فى منصبه زهاء عام يعمل فى جو يفيض بالأحقاد والخصومة، ولكنه يقول لنا إنه لم يحفل كعادته بمصانعة الأكابر وإنه استمر كما كان « من القيام بالحق والإعراض عن الأغراض » . فاضطرمت من حوله الدسائس القديمة ، واشتدت فى حقه المطاعن والمثالب ، وأسفرت المعركة عن النتيجة المعتادة ، وعزل المؤرخ كرة أخرى فى ١٤ رجب سنة أربع (٨٠٤) ، وولى مكانه جمال الدين البساطى فى أواخر رجب ، وهو ممن شغلوا المنصب من قبل . والظاهر أن المعركة كانت هذه المرة أكثر وضوحاً وصراحة ، وأن ابن خلدون عانى من حملات خصومه ما لم يعان من قبل ، حتى انه طلب بعد العزل أمام الحاجب الكبير ، ووُجه اليه كثير من التهم . ويقول لنا ابن حجر والسخاوى فى هذا الموطن : « وادعوا عليه (أى على ابن خلدون) أموراً كثيرة أكثرها لا حقيقة له ، وحصل له من الإهانة ما لا مزيد عليه » [2] . وهنا اشتدت المعركة بين المؤرخ وخصومه ، واستحالت الى نضال عنيف سريع الأثر ، وبقى مظهرها التداول على المنصب ، ولكنه انحصر حيناً بين ابن خلدون

(١) يذكر ابن خلدون فى التعريف أن تعيينه هذه المرة كان فى « أواخر شعبان » (ص ٣٨٣) . ولكن ابن تغرى يردى يؤرخ هذا التعين بيوم السبت ٣ رمضان سنة ٨٠٣ (المنهل الصافى ج ٢ ورقة ٣٠١) و يقول ابن إياس إنه كان فى ١٣ رمضان (تاريخ مصر ج ١ ص ٣٣٧) .

(٢) ابن حجر فى كتاب «رفع الاصر عن قضاة مصر» (مخطوط دار الكتب السالف الذكر) ورقة ١٥٩ ، و ينقله السخاوى فى الضوء اللامع (طبع مصر) ج ٤ ص ١٤٦ .

والبساطى ، مما يدل على أن البساطى كان ممثل الحزب الذى يناوىء المؤرخ فى هذا الدور من المعركة . والظاهر أيضاً أن ابن خلدون كان يعتمد فى مقاومة خصومه على عوامل وقوى ليست أقل أثراً مما يعتمدن عليه ؛ فانه لم يمض على ولاية البساطى نحو ثلاثة أشهر حتى عزل فى أوائل ذى الحجة ، وعين ابن خلدون للمرة الرابعة فى ١٦ ذى الحجة ، واستمر فى المنصب عاماً وشهرين ؛ ثم رجحت كفة خصومه فعزل فى السابع من ربيع الأول سنة ست (٨٠٦) ، وأعيد البساطى فى الشهر نفسه ، ثم عزل فى شهر رجب سنة سبع ؛ وأعيد ابن خلدون للمرة الخامسة فى شعبان سنة سبع ، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر فى ٢٦ ذى القعدة من نفس العام ؛ وأعيد خصمه القديم جمال الدين الإقفهسى فلبث ثلاثة أشهر ؛ ثم عزل وخلفه جمال الدين التنسى لمدة يومين فقط ؛ ثم أعيد البساطى فى ربيع الأول سنة ثمان (٨٠٨) وعزل فى شعبان من العام ذاته ؛ ثم أعيد ابن خلدون للمرة السادسة ، فلبث فى منصبه بضعة أسابيع فقط[1] .

وفى السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة (١٦ مارس سنة ١٤٠٦ م) توفى المؤرخ والمفكر الكبير ، قاضياً للمالكية ، وقد بلغ الثامنة والسبعين من حياة باهرة حافلة بجليل الحوادث ،

---

(١) راجع فى أدوار هذه المعركة وحوادث التعيين والعزل — ابن خلدون نفسه فى التعريف (ص ٣٨٣ و ٣٨٤) ، وحسن المحاضرة للسيوطى (مصر) ج ٢ ، ص ١٢٣ ، والمنهل الصافى (ج ٢ ورقة ٣٠١) ، وتوجد مفارقات يسيرة فى التواريخ فى مختلف الروايات .

ورائع التفكير والابتكار ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر[١] وهى يومئذ من مقابر العظماء والعلماء . ويصل ابن خلدون فى تدوين أخبار هذا النضال العجيب فى « التعريف » حتى عزله للمرة الخامسة فى ذى القعدة سنة سبع أعنى الى ما قبل وفاته بعدة أشهر فقط .

---

(١) السخاوى فى الضوء اللامع ، المجلد الثانى من القسم الثانى ، ص ٣٧٠ . وفى النسخة المطبوعة ج ٤ ص ١٤٦ .

الفصل الثامن

ابن خلدون والتفكير المصرى

ابتعاد ابن خلدون فى مصرعن أحداث السياسة . إنتاجه الأدبى فى هذه الفترة . حكم ابن خلدون على المصريين . بذور الخصومة بينه و بين المجتمع القاهرى . حملات الكتاب المصريين عليه . موقف الحافظ ابن حجر منه ومن مؤلفه . مطاعن الركراكى والبشبيشى والعينى فى حقه . حملة السخاوى عليه . الجناح الذى يؤازره من الكتاب المصريين . تقدير المقريزى له ولتفكيره . تأثر المقريزى بتفكيره ونظرياته . ظهور هذا التأثير فى كتابات المقريزى . نظريات المقريزى فى أسباب محن مصر . شهادة أبى المحاسن لابن خلدون . إقتباس القلقشندى من آثاره . حياة ابن خلدون فى مصر . عزلته وآلامه المعنوية . أين كان يقيم فى القاهرة . أين يثوى الثواء الأخير .

— ١ —

قضى ابن خلدون فى مصر ثلاثة وعشرين عاماً (٧٨٤ — ٨٠٨ هـ) ولكنها كانت بين مراحل حياته أقلها حوادث وأقلها إنتاجاً.

فأما عن الحوادث فإن الحياة السياسية العاصفة التى قضاها ابن خلدون بالمغرب ، والتى جاز خلالها معتركاً شاسعاً من المغامرات والدسائس الخطرة ، وعانى كثيراً من الخطوب والمحن ، كما نعم مراراً بمراتب النفوذ والسلطان ، والتى هى فى الواقع صفحة قوية شائقة من تاريخ المغرب فى أواسط القرن الثامن ؛ هذه الحياة المضطرمة العاصفة ، استبدلها المؤرخ فى مصر بحياة أكثر هدوءاً ودعة .

وفى مصر يعيش ابن خلدون شخصية عادية لا علاقة لها بشئون الدولة العليا ، بعد أن لبثت بالمغرب ربع قرن روح هذه الشئون ؛ ويتجرد من ثوب السياسى المغامر ليتشح بثوب العالم المقتدر ، وليستوحى نفوذه المحدود من هذه الناحية . على أن المؤرخ لقى فى هذه الفترة حادثين من أهم حوادث حياته ، هما فقد أسرته ، ولقاؤه للفاتح التترى تيمور لنك .

وأما عن الإنتاج الأدبى ، فقد رأينا أن المؤرخ حقق أعظم أعمال حياته ، أعنى كتابة تاريخه الضخم ومقدمته الرائعة قبل مقدمه الى مصر . ولا نعرف أن ابن خلدون وضع أثناء مقامه بمصر مؤلفاً جديداً ؛ غير أن الذى لا ريب فيه هو أن وجوده بمصر على مقربة من المكاتب والمراجع الشاسعة ، قد أتاح له فرصة التنقيح والتهذيب والإضافة فى التاريخ والمقدمة ؛ وسنرى فى فصل قادم أنه استمر فى مراجعة مؤلفه والزيادة فيه فى مواطن كثيرة ، ولا سيما فى أنباء الدول الإسلامية بالمشرق ، وأنباء الدول المغربية والأندلس فى عصره ، وأنه وصل فى رواية حوادث عصره حتى خاتمة القرن الثامن بعد أن كان يقف بها عند سنة ٧٨٣ هـ ، عام الفراغ من وضع مؤلفه. كذا استمر المؤرخ فى كتابة ترجمة حياته أثناء إقامته بمصر ، واستمر فيها الى قبيل وفاته ، وضمنها فصولا جديدة عن خواص دول المماليك المصرية ، ونشأة التتار . وكتب أثناء مقامه بالشام وصفاً لبلاد المغرب ورفعه الى تيمورلنك كما قدمنا . كذلك لا ريب فى أن ابن خلدون كان يعنى فى دروسه ومجالسه ببث مبادئه وآرائه الاجتماعية وشرحها .

غير أن ابن خلدون لم يستطع على ما يظهر أن ينشىء له بمصر مدرسة حقيقية ، يطبعها بآرائه ومناهجه ، وقد كان حرياً أن ينشىء مثل هذه المدرسة فى بلد انقطع فيه للبحث والدرس أعواماً طويلة . نعم إن التفكير المصرى المعاصر ليس خلواً من تأثير ابن خلدون كما سنرى ، ولكن هذا التأثير الذى كان حرياً أن يزدهر بمصر وأن ينبث فى مدرستها التاريخية التى كانت يومئذ فى أوج قوتها ، كان ضئيلا محدود المدى . ونستطيع أن نرجع ذلك الى الروح الذى استقبل به المؤرخ من المجتمع المصرى المفكر ، وهو روح نفور وخصومة ؛ فقد جاء ابن خلدون الى مصر يسبقه حكمه على المصريين فى مقدمته بأنهم قوم « يغلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب »[١] . ويورد ابن خلدون هذه الملاحظة فى معرض كلامه عن أثر الهواء فى أخلاق البشر ويعتبرها نتيجة لوقوع مصر فى المنطقة الحارة . على أنه مهما اتخذت هذه الملاحظة سمة البحث العلمى ، فانها لا يمكن أن تقابل ممن قيلت فى حقهم بغير الإستياء والحفيظة . وكان طبيعياً أن يحدث هذا الغرس السيىء أثره فى شعور المجتمع المصرى المفكر نحو المؤرخ . وكان هذا المجتمع نفسه يجيش عندئذ بكثير من عوامل الخصومة والمنافسة ، وزعامته يطبعها لون من الجفاء والقطيعة . وكان اضطرام المنافسة بين أعلام التفكير والأدب يومئذ سواء فى ميدان التفوق والنبوغ ، أو فى تحصيل ما تسبغه الزعامة الأدبية من الجاه والرزق ، ظاهرة هذه الخصومة . وكان المجتمع القاهرى الأدبى ينقسم عندئذ الى شيع وطوائف تنحاز

---

(١) المقدمة ص ٧٣ .

كل شيعة أو طائفة الى زعيم أو جناح معين من الزعماء ، فتؤيد جهوده الأدبية وتناجز خصومه فى ميدان الجدل . فلم يكن من السهل على أجنبى مثل ابن خلدون جاء ينتظم فى سلك هذا المجتمع منافساً فى طلب الجاه والرزق ، أن ينعم بصفاء الأفق ، أو يلقى خالص المودة والصداقة . هذا الى ما كان يغلب على خلاله من حدّة وصرامة وكبرياء تزيد من حوله الجفاء والقطيعة .

كان طبيعياً أن تلقى آراء ابن خلدون ودروسه فى هذا الأفق الكدر من الإعراض والانتقاص أكثر مما تلقى من الإقبال والتقدير ، وأن تكون محدودة الذيوع والأثر . ومع ذلك فقد درس على ابن خلدون جمهرة من أعلام التفكير والأدب المصريين وانتفعوا بعلمه ، وظهر أثره جلياً فى بعض ثمرات التفكير المصرى المعاصر . وممن درس عليه وانتفع بعلمه الحافظ ابن حجر العسقلانى المحدث والمؤرخ الكبير ؛ فهو يقول لنا فى كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » إنه « اجتمع بابن خلدون مراراً وسمع من فوائده ومن تصانيفه خصوصاً فى التاريخ » وإنه « كان لسناً فصيحاً حسن الترسل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمور خصوصاً متعلقات المملكة » ، وإنه كان جيد النقد للشعر وإن لم يكن بارعاً فيه[١] . بيد أن ابن حجر يحمل على ابن خلدون بشدة وينقل فى ترجمته كثيراً مما قيل فى ذمه وتجريحه . فهو يقول لنا فى تاريخه إن ابن خلدون مؤرخ بارع « ولكنه لم يكن مطلعاً على الأخبار على جليتها

(١) رفع الاصر (المخطوط المشار إليه) ورقة ١٦٠ ، ونقله السخاوى فى الضوء اللامع (مصر) ج ٤ ص ١٤٧ .

ولاسيما أخبار المشرق[١]، ويعارض المقريزى فى مدح المقدمة ويرى أنها لا تمتاز بغير « البلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية » وان محاسنها قليلة ، « غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسناً ما ليس بحسن »[٢]. وأما ابن خلدون كقاض فان ابن حجر يقول لنا إنه باشر القضاء بعسف وبطريقة لم تألفها مصر ، وانه لما ولى المنصب تنكر للناس وفتك فى كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وانه عزل لأول مرة بسبب ارتكابه التدليس فى ورقة[٣] ؛ ثم ينقل فى هذا الموطن كثيراً مما قيل فى ذم المؤرخ وتجريحه . من ذلك « ان أهل المغرب لما بلغهم ولايته للقضاء تعجبوا ونسبوا المصريين الى قلة المعرفة بحيث قال ابن عرفه[٤] « كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما وليها هذا عددناها بالضد من ذلك » . ومن ذلك قول الركراكى أحد الكتاب الذين عملوا مع ابن خلدون « انه عرى عن العلوم الشرعية » . بل ينقل ابن حجر أيضاً بعض المطاعن الشخصية والأخلاقية التى قيلت فى حق المؤرخ ؛ من ذلك ما نقله عن العينتابى وهو أنه كان يتهم بأمور قبيحة[٥] ؛ وما نقله عن كتاب القضاة للبشبيشى ، وهو « أن ابن خلدون كان فى أعوامه الأخيرة يشغف بسماع المطربات ومعاشرة الأحداث وانه تزوج امرأة لها أخ

(١) أنباء الغمر فى أنباء العمر (مخطوط دار الكتب) ، ج ١ ص ٧١١ .

(٢) رفع الاصر، ورقة ١٦٠ .

(٣) رفع الاصر، ورقة ١٥٩ .

(٤) ابن عرفه مفتى تونس ، وكان خصما لابن خلدون كما قدمنا .

(٥) أنباء الغمر، ج ١ ص ٧١١ .

امرد ينسب للتخليط » وانه كان « يكثر من الازدراء بالناس ، وانه حسن العشرة إذا كان معزولا فقط ، فاذا ولى المنصب غلب عليه الجفاء والنزق فلا يعامل بل ينبغى أن لا يرى » . وهذه أقوال تنم عن خصومه مضطرمة ، ومبالغة فى الانتقاص تنحدر الى معترك السباب والقذف . وقد كان البشبيشى [١] بلا ريب من ألد خصوم المؤرخ وأشدهم وطأة عليه . وقد دون حملاته على المؤرخ فى كتاب ألفه فى تاريخ القضاة ولم يصل الينا ولكن ابن حجر ينقل الينا منه تلك الفقرات الشخصية اللاذعة . وأخيراً يقول ابن حجر إن ابن خلدون كان يتمسك بزيه المغربى ويأبى أن يرتدى زى القضاة لا لشىء سوى حبه المخالفة فى كل شىء [٢] .

على أن ذلك كله لم يمنع الحافظ ابن حجر من أن يستمع الى دروس ابن خلدون وأن ينتفع بها حسبما تقدم . بل لم تمنعه هذه الخصومة الأدبية المضطرمة من أن يطلب الى ابن خلدون أن يمنحه الإجازة العلمية التقليدية التى كان الظفر بها من أكابر العلماء والأساتذة شرفاً يُحرص عليه . وقد وصلت الينا هــذه الإجازة بشطريهــا — ويرى القــارىء صورتها الفتوغرافيــة منشورة

(١) وهو الجمال عبد الله البشبيشى . ولد سنة ٧٦٢ هـ بقرية بشبيش من أعمال الغربية ، وتوفى سنة ٨٢٠ هـ . وكان من أكابر فقهاء الشافعية ومن أقطاب الأدب واللغة . وقد ولى الحسبة بالقاهرة حيناً «ترجمته فى الضوء اللامع — القسم الثالث المجلد الثانى ص ٥١١ » .

(٢) رفع الإصرفى مواضع مختلفة من ترجمة ابن خلدون — الورقة ١٥٨ الى الورقة ١٦٠ .

فيما يلى —[١] وفى جانبها الأيمن نص الطلب (الاستدعاء) الذى كتبه ابن حجر بخطه وتوقيعه مؤرخاً فى أوائل شعبان سنة ٧٩٧ هـ ، وفيه يطلب الى ابن خلدون أن يصدر له ولعدة من زملائه واخوانه هذه الإجازة . وفى جانبها الأيسر نرى نص الإجازة التى أصدرها ابن خلدون بخطه وتوقيعه فى منتصف شعبان سنة ٧٩٧ هـ لابن حجر وزملائه الذين تقدم بأسمائهم معه .

وموقف الحافظ ابن حجر من ابن خلدون وأثره يدعو الى التأمل ؛ فهو على رغم اتزانه واعتداله وتحفظه ينساق هنا الى نوع من التجريح والانتقاص ليس مألوفاً فى كتاباته . ولا ريب أن فى لهجته وأقواله مبالغة وتحاملا . ولكن لا ريب أيضاً أن لها قيمتها فى تقدير الرأى المصرى المعاصر لابن خلدون ، بل نستطيع أن نعتبرها ممثلة لرأى الفريق المفكر الذى كان يخاصم المؤرخ ويشتد فى تجريحه والحملة عليه ؛ وقد كان الفريق الأقوى بلا ريب لأنه كان يضم كثيراً من المفكرين والفقهاء البارزين مثل ابن حجر ، والجمال البشبيشى ، والركراكى ، وبدر الدين العينى (العينتابى) . وقد امتدت آثار هذه الخصومة الأدبية طوال القرن التاسع الهجرى حتى جاء السخاوى فى أواخر هذا القرن يردد كل ما ذكره ونقله شيخه ابن حجر فى ذم ابن خلدون وتجريحه والانتقاص من أثره ، ولكن

---

(١) حصلت على هذه الصورة من صديقى الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى . وقد حصل عليها هو بدوره هدية من الأستاذ المستشرق الألمانى هـ. ريتر الأستاذ بجامعة فرنكفورت منقولة عن مصنف ابن حجر «التذكرة الجديدة» (الجزء السادس) وهو الذى توجد منه نسخة مخطوطة فى مكتبة اياصوفيا باستانبول (رقم ٣١٣٩ اياصوفيا) .

فى لهجة مرة لاذعة تنم عن التحامل وقصد التشهير والهدم ، أكثر مما تنم عن قصد النقد الصحيح . وهذه الروح المرة اللاذعة تبدو فى معجمه (الضوء اللامع) فى معظم تراجم الشخصيات البارزة ؛ بيد أنه يعترف فى كتاب آخر له « بنفاسة » مقدمة ابن خلدون ، ويبدو أكثر اعتدالا وتقديراً [١] .

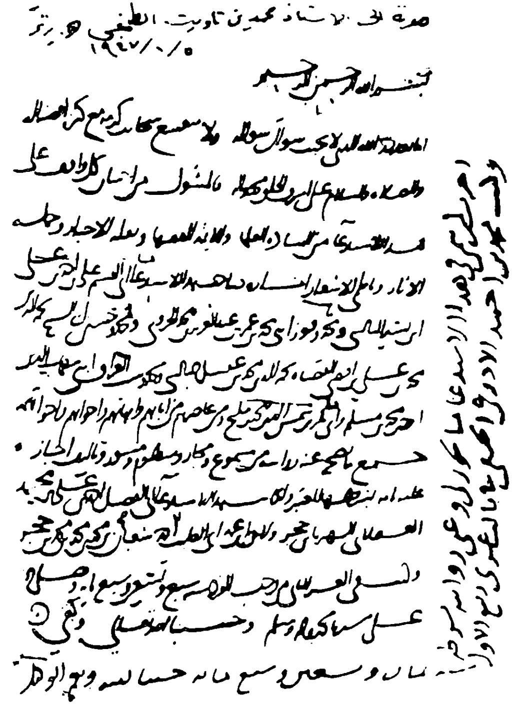
— ٢ —

على أن ابن خلدون كان من جهة أخرى يحظى بتقدير فريق قوى من الرأى المصرى المفكر . وكان على رأس هذا الفريق المؤرخ العلامة تقى الدين المقريزى . فقد درس المقريزى فى فتوته على ابن خلدون وأعجب بغزير علمه ، وروائع محاضراته ، وطريف آرائه ونظرياته . ويتحدث المقريزى عن شيخه ابن خلدون بمنتهى الخشوع والإجلال وينعته « بشيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضى القضاة » [٢] ويتتبع أخباره فى مصر والشام فى كتابه « السلوك » ويترجمه فى كتابه « درر العقود الفريدة » باسهاب واعجاب ، ويرتفع فى تقدير مقدمته الى الذروة فيقول : « لم يعمل مثلها ، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هى زبدة المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهوم ؛ توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود وتنبىء عن أصل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدر النظيم ، وألطف من الماء

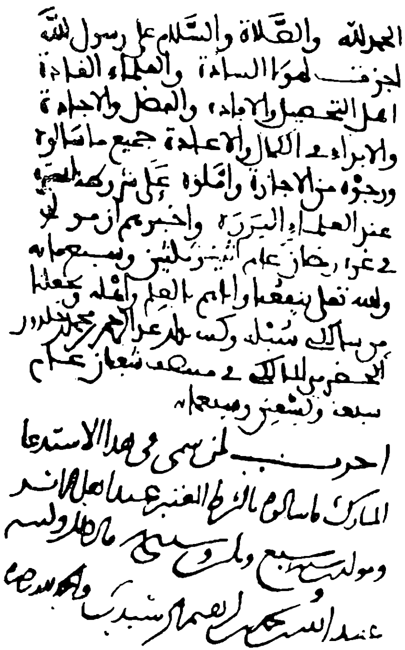
---

(١) كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، (مصر) ص ١٥١ .

(٢) راجع خطط المقريزى ، ج ٢ ص ٧٦ و ١٩٠ .



صورة الاستدعاء الذى قدمه ابن حجر بخطه
لابن خلدون



صورة الشهادة التى أصدرها ابن خلدون
بخطه لابن حجر و زملائه

نص الاستدعاء الذى قدمه ابن حجر

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمدالله الذى لايخيب سؤال سؤاله . ولاتنقشع سحايب كرمه مع كثرة أفضاله . والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد وآله . فالمسئول من احسان كل واقف على هذا الاستدعاء من السادة العلماء والأئمة الفقهاء ونقلة الأخبار وحملة الآثار وناظمى الأشعار ، أجازة صاحب هذا الاستدعاء أبى القاسم على بن احمد بن على بن بشير البالسى ، ومحمد وفوز ابنى محمد بن عمر بن عبد العزيز بن محمد الخروبى . ومحمد وحسين ابنى الشيخ نجم الدين محمد بن على بن أقضى القضاة نجم الدين محمد بن عقيل البالسى . ومحمد وست العراق ابنى شهاب الدين احمد بن محمد بن مسلم . وأبى بكر بن شمس الدين محمد بن مليح ومن عاصرهم من آبائهم وأمهاتهم وأخوتهم وأخواتهم جميع ما يصح عنه روايته من مسموع ومجاز ومنظوم ومنثور وتأليف اجازة عامة بشرطها المعتبر . ولكاتب هذا الاستدعاء أبى الفضل احمد بن على بن محمد العسقلانى الشهير بابن حجر ولابنى عمه أبى الطيب احمد شعبان بن محمد بن محمد بن حجر . وكتب فى العشر الثانى من رجب الفرد سنة سبع وتسعين وسبعمائة . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم وحسبنا الله تعالى وكفى

نص الأجازة التى أصدرها بن خلدون

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أجزت لهؤلاء السادة والعلماء القادة أهل التحصيل والافادة ، والفضل والاجادة والابداء فى الكمال والاعادة ، جميع ماسألوه ورجوه من الاجازة وأملوه ، على شروطه المعتبرة عند العلماء البررة . وأخبرهم أن مولدى فى غرة رمضان عام اثنين وثلاثين وسبع مائة والله تعالى ينفعنا وايا هم بالعلم وأهله . ويجعلنا من سالكى سبله . وكتب بذلك عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمى المالكى فى منتصف شعبان عام سبعة وتسعين وسبعمائة .

سرى به النسيم »[١] . وهو تقدير يعارضه فيه ابن حجر كما قدمنا. ويأخذ ابن حجر وتلميذه السخاوى على المقريزى موقفه من ابن خلدون ، ويرميانه بالمبالغة والإفراط فى تعظيمه وإجلاله ؛ ويقدم إلينا ابن حجر تعليلا لهذا الموقف ، هو أن المقريزى كان ينتمى الى الفاطميين وابن خلدون يجزم باثبات نسبهم ، ثم يقول لنا ، إن المقريزى غفل فى ذلك عن مراد ابن خلدون ، فانه كان لانحرافه عن آل على ، يثبت نسب الفاطميين إليهم ، لما اشتهر من سوء معتقد الفاطميين وكون بعضهم نسب الى الزندقة وادعى الألوهية[٢].

وقد تأثر المقريزى فوق تعظيمه وتقديره لابن خلدون بنظرياته تأثراً كبيراً . وظهر هذا الأثر واضحاً فى كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » الذى انتهت إلينا نسخة وحيدة منه تحتفظ بها دار الكتب المصرية [٣] .

ففى هذا الكتاب الذى يقول لنا المقريزى إنه كتبه فى ليلة واحدة من ليالى المحرم سنة ٨٠٨ ، والذى يتحدث فيه عن محن مصر منذ أقدم العصور الى عصره ، ينحو المقريزى فى الشرح والتعليل

(١) لم يصلنا من « درر العقود الفريدة » سوى قطعة صغيرة . واعتمادنا هنا على ما نقله السخاوى وابن حجر عن المقريزى ، فى الضوء اللامع للسخاوى ؛ وفى رفع الاصر وأنباء الغمر لابن حجر .

(٢) رفع الاصر، الورقة ١٦٠ ، ونقله السخاوى فى الضوء اللامع .

(٣) توجد هذه النسخة ضمن مجموعة خطية محفوظة برقم (٧٧ مجاميع م) وتشغل فيها من الورقة ١٤ إلى ٤٣ . وقد قام بتحقيق هذا المؤلف الأستاذان محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ونشر بعناية لجنة التأليف والترجمة والنشر (سنة ١٩٤٠) .

منحى شيخه وأستاذه ابن خلدون فى مقدمته . فيقدم لرسالته بمقارنة موجزة بين الماضى والحاضر ، وملخص لما جازته مصر من محن الغلاء والشَّـرَق منذ الطوفان الى عصره ، ثم يفرد لنا فصلا يتحدث فيه عن الأسباب التى نشأت عنها هذه المحن وأدت الى استمرارها طوال هذه الأزمان . وفى هذا الفصل نرى منهج ابن خلدون فى البحث والتعليل واضحاً ، بل نرى المقريزى يستعمل ألفاظ شيخه وعباراته مثل « أحوال الوجود وطبيعة العمران » وما إليها . وفى رأى المقريزى أن أسباب الخراب والمحن ، ترجع أولا : الى تولية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة ، واستيلاء الظلمة والجهلاء عليها ، وثانياً : الى غلاء ايجار الأطيان ، وزيادة نفقات الحرث والبذر والحصاد (نفقات الإنتاج) على الغلة ، وثالثاً : الى ذيوع النقد المنحط ؛ ويتبع ذلك بنبذة فى تاريخ العملة فى الدول الإسلاميــة ومصر . ثم يتحدث عن طبقات المجتمع وأوصاف الناس ، ويقسم المجتمع المصرى الى سبعة أقسام :

(١) أهل الدولة .

(٢) أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .

(٣) الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، وأصحاب المعاش وهم السوقة .

(٤) أهل الفلح وهم أرباب الزراعة والحرث وسكان الريف

(٥) الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم .

(٦) أرباب المصالح والأجر وأصحاب المهن .

(٧) ذوى الخصاصة والمسكنة الذين يتكففون الناس .

ويذكر المقريزى أحوال كل فريق بالتفصيل . ثم يتحدث عن أسعار عصره وبخاصة أسعار المواد الغذائية ، ويختم بشرح رأيه فى معالجة هذه المحن ، وهو أن يغير نظام العملة ، فلا يستعمل منها إلا المكين الثابت من ذهب وفضة ، وهى فكرة تثبيت النقد بعينها .

هكذا ينحو المقريزى فى الشرح والتعليل . وهكذا نلمس أثر المؤرخ واضحاً فى منهج تلميذه ؛ ونستطيع أن نجد كثيراً من أوجه الشبه بين ما يعرضه المقريزى فى رسالته ، وبين ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته عن طبيعة الملك وعوامل فساده ، وعن السكة ، وعن أثر المكوس فى الدولة ، وأثر الظلم فى خراب العمران ، وكيف يسرى الخلل الى الدولة وتغلبها وفرة العمران والغلاء والقحط ، وغير ذلك مما يتعلق بانحلال الدول وسقوطها[١] ؛ بل نستطيع أن نلمح مثل هذا الأثر فى بعض ما كتبه السخاوى نفسه فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ » عن قيمة التاريخ وأثره فى دراسة أحوال الأمم ، فهنا يبدو السخاوى أيضاً رغم خصومته لابن خلدون متأثراً بفكرته الفلسفية فى شرح التاريخ وفهمه .

وهنالك مؤرخ مصرى آخر هو أبو المحاسن بن تغرى بردى يشاطر شيخه المقريزى تقديره لابن خلدون ، ويشيد بمقدرته ونزاهته فى ولاية القضاء ، ويقول لنا انه باشر القضاء بحرمة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته[٢] .

---

(١) راجع هذه الفصول فى مقدمة ابن خلدون ، ص ١٤٠ — ١٤١ و ١٥٧ — ١٥٨ و ٢١٧ — ٢٢٠ و ٢٤٦ و ٢٥٢ .

(٢) المنهل الصافى ، ج ٢ ورقة ٣٠٠ .

ويظهر أثر ابن خلدون أيضاً فى اعتماد بعض أكابر الكتاب المصريين المعاصرين عليه والاقتباس من مقدمته وتاريخه . ومن هؤلاء أبو العباس القلقشندى صاحب كتاب « صبح الأعشى » فانه يقتبس من ابن خلدون فى مواضع شتى من موسوعته[١] .

— ٣ —

هذه صورة دقيقة شاملة لحياة ابن خلدون فى مصر ، وصلاته بحياتها العامة ، وأثره فى حركتها الفكرية المعاصرة .

وهذه الحقبة من حياة المؤرخ ، وهى حقبة طويلة امتدت ثلاثة وعشرين عاماً ، تخالف فى نوعها وظروفها حياته بالمغرب ؛ ففى المغرب عاش ابن خلدون بالأخص سياسياً يتقلب فى خدمة الدول والقصور المغربية ، ويخوض غمر دسائس ومخاطرات لا نهاية لها . ولكنه عاش فى مصر عالماً وقاضياً ؛ وإذا استثنينا مفاوضاته مع تيمورلنك فى حوادث دمشق ، وسعيه الى عقد الصلة بين بلاط القاهرة وسلاطين المغرب ، فانه لم يتح له أن يؤدى فى سير السياسة المصرية دوراً يذكر . وإذا كان ابن خلدون قد خاض فى مصر معترك الدسائس أيضاً ، فقد كان هذا المعترك محلياً محدود المدى ، شخصياً فى نوعه وغاياته .

وكانت حياة ابن خلدون فى مصر أكثر استقراراً ودعة ، وأوفر ترفاً ونعماء من حياته بالمغرب . ولكن الظاهر أن سحباً من الكآبة والألم المعنوى كانت تغشى هذه الحياة الناعمة . فقد كان ابن خلدون

---

(١) راجع «صبح الأعشى» ج ٤ و ٥ و ٦ ففيها أمثلة كثيرة من هذا الاقتباس .

فى مصر غريباً بعيداً عن وطنه وأهله ، وكان يعيش فى جو يشوبه كدر الخصومة وجهد النضال . ونستطيع أن نلمس ألم البعاد فى نفس المؤرخ فى بعض المواطن ، فهو يذكر غربته حين يتحدث عن اتصاله بالسلطان أثر مقدمه ويقول إن السلطان « أبر مقامه وآنس غربته » ، وهو يكشف لنا عن هذا الألم فى مواطن كثيرة .

ولا ريب أن هلاك أسرة المؤرخ كانت عاملا فى إذكاء هذا الألم المعنوى ، وهو يحدثنا عن هذه الفاجعة بلهجة الحزن واليأس حين يقول : « فعظم المصاب والجزع ورجح الزهد » .

وكان المؤرخ يؤثر حياة العزلة فى فترات كثيرة ؛ وهو يشير الى ذلك فى بعض المواطن ، حيث يقول لنا انه : « لزم كسر البيت ممتعاً بالعافية لابساً برد العزلة » . وتشير التراجم المصرية الى هذه العزلة فيقول لنا السخاوى : « ولازمه (أى المؤرخ) كثيرون فى بعض عزلاته ، فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم » . وكان المؤرخ يشتغل فى هذه الفترات بمراسلة أصدقائه بالمغرب والأندلس من السلاطين والأمراء والفقهاء ، وهو يشير الى ذلك فى عدة مواضع

وقد يكون من الشائق أن نعرف أين كان يقيم المؤرخ بالقاهرة. ولدينا عن ذلك نصان نقلهما ابن حجر عن الجمال البشبيشى ؛ ويقول الجمال فى أولها : « انه كان يوماً بالقرب من الصالحية فرأى ابن خلدون وهو يريد التوجه الى منزله وبعض نوابه أمامه ... ... » فيلوح من هذه الإشارة أن المؤرخ كان يقيم مدى حين على مقربة من الصالحية فى الحى الذى تقع فيه هذه المدرسة أعنى حى بين القصرين أو فى أحد الأحياء القريبة منه ، وذلك لأن مركز وظيفته

كقاض للقضاة كان بهذه المدرسة ، ولأن إيوان الفقهاء المالكية كان يقع بجوارها[١] . وأما فى النص الثانى فيقول لنا الجمال ما يأتى مشيراً الى ولاية ابن خلدون للقضاء عقب عوده من دمشق سنة ثلاث وثمانمائة : « إلا أنه (أى ابن خلدون) تبسط بالسكن على البحر وأكثر من سماع المطربات ... الخ »[٢] . ويستفاد من ذلك ان المؤرخ كان يقيم فى هذا الحين فى أحد الأحياء الواقعة على النيل ، ولعله جزيرة الروضة أو لعله بالضفة المقابلة من الفسطاط ، حيث كانت لا تزال بقية من الأحياء الرفيعة التى قامت هنالك مذ خطت الروضة وعمرت وصارت منزل البلاط فى أواسط القرن السابع ، وسكن الكبراء والسراة فى الضفة المقابلة لها من الفسطاط . ويرجح هذا الفرض ان المدرسة القمحية التى كان يدرس فيها ابن خلدون بلا انقطاع كانت تقع على مقربة من هذا الحى .

هذا وأما عن مثوى المؤرخ الأخير ، فقد ذكر لنا السخاوى أنه دفن « بمقابر الصوفية خارج باب النصر » . ويحدثنا المقريزى عن موقع هذه المقابر[٣] وقد كانت تقع بين طائفة من الترب والمدافن التى شيدها الأمراء والكبراء فى القرن الثامن خارج باب النصر فى اتجاه الريدانية (العباسية) . ومقبرة الصوفية هذه أنشأها صوفية

---

(١) راجع خطط المقريزى ، ج ٢ ص ٣٧١ و ٣٧٢ .

(٢) سبق أن أشرنا الى هذا النص . و يراجع النصان فى كتاب رفع الاصر لابن حجر فى ترجمة ابن خلدون .

(٣) الخطط ، ج ٢ ص ٤٦٣ .

الخانقاه الصلاحية فى أواخر القرن الثامن فى هذا المكان ، وخصصت لدفن الصوفية ، وقد كان المؤرخ كما نذكر ، مدى حين شيخا لخانقاه بيبرس .

فهل يكشف لنا الزمن يوماً عن مثوى رفات المفكر العظيم ، فيغدو قبره أثراً جليلا ، يحج إليه المعجبون برائع تفكيره وخالد آثاره ؟

الكتاب الثاني

تراث ابن خلدون
الفكرى والاجتماعى

الفصل الأول

علم العمران كما يعرضه ابن خلدون

فهم ابن خلدون للتاريخ . علم العمران أو الاجتماع البشرى . كيف يعتبره أساساً لفهم التاريخ . تحليله لظواهر المجتمع . تقسيمه لعلم العمران . محتويات المقدمة . نقد ابن خلدون لكتاب التاريخ . استعراضه لموضوع علمه . نظريته فى العصبية . ابن خلدون والعرب . حملته عليهم . حديثه عن الدولة والملك . نظريته فى عمر الدولة . الملك وأصنافه . نشأة المدن والأمصار . المعاش ووجوه الرزق . أنواع العلوم .

يمتاز ابن خلدون عن جمهرة المؤرخين المسلمين بل عن جميع المؤرخين قبله ، بأنه نظر الى التاريخ كعلم يستحق الدرس لا رواية تدون فقط . وقد أراد أن يكتب التاريخ على ضوء منهج جديد من الشرح والتعليل ، فانتهى به التأمل والدرس الى وضع نوع من الفلسفة الاجتماعية ؛ وكتب مقدمة مؤلفه التاريخى لتكون شرحاً وتمهيداً يُقرأ على ضوئها التاريخ وتفهم وقائعه ، فجاءت وحدة مستقلة من الابتكار الفائق ، تسجل مذهباً جديداً فى فهم الظواهر الاجتماعية وتعليلها ، وفى فهم التاريخ ونقده وتحليله .

ويصف لنا ابن خلدون هذا البحث الجديد الذى وفق إليه بأنه علم مستقل بنفسه ، وأنه ذو موضوع خاص « وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى » وذو مسائل « هى بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى » . ويقول لنا إن هذا

العلم « مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة » انتهى إليه بالبحث الخاص ، ولم يقف لأحد قبله على كلام فيه ، اللهم إلا إذا كان القدماء الذين عفت آثارهم ولم تصلنا ، فهو أول من وضعه ونظم أصوله وشروحه .

ولهذا العلم الجديد الذى ابتكره ابن خلدون ، فى فهم التاريخ ودرسه أهمية كبيرة ، فهو فى رأيه قانون لتمحيص الحق من الباطل فى الرواية وإظهار الممكن والمستحيل ؛ وذلك « بأن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران ، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته ، وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يعتد به ، وما لا يمكن أن يعرض له ؛ وإذا فعلنا ذلك ، كان ذلك قانوناً فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار ، والصدق من الكذب ، بوجه برهانى لا مدخل للشك فيه » ؛ ومحاولة فهم التاريخ على هذا النحو هى التى حملت ابن خلدون على درس هذا الموضوع الجديد، وهو ما يسميه العمران أو الاجتماع البشرى(١).

بيد أن ابن خلدون ينظر الى موضوعه من أفق شاسع جداً ، ويجعل من المجتمع الإنسانى كله ، وما يعرض له من الظواهر الطبيعية مادة لتأمله ، ويحاول أن يتتبع هذا المجتمع بالدرس والتحليل فى جميع أطواره منذ نشأته وبداوته الى استقراره وانتظامه فى المصر والدولة ؛ وتردده بين الضعف والقوة ، والفتوة والكهولة ، والنهوض والسقوط ؛ ويستقصى خلال ذلك ، أحوال هذا المجتمع وخواصه ، وعناصر تكوينه وتنظيمه من الفرد والجماعة الى السلطان والدولة ،

---

(١) المقدمة ، ص ٣١ .

وما يعرض لهذه العناصر فى حياتها الخاصة والعامة من الظروف والأحوال ؛ وما تقتضيه سلامة هذا المجتمع ، وما يؤذن بفساده وانحلاله ، فهو فى الواقع يعالج مادة شاسعة تفوق تعريفه الأول .

وفى مكان آخر يلخص ابن خلدون ، مادة علمه من الناحية الموضوعية فى أنها « ما يعرض للبشر فى اجتماعهم من أحوال العمران فى الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية ، يتضح بها التحقيق فى معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام والشكوك »(١)

ثم يقسم بعد ذلك موضوعه الى ستة فصول كبيرة هى :

الأول — فى العمران البشرى على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض .

الثانى — فى العمران البدوى وذكر القبائل والأمم الوحشية .

الثالث — فى الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية .

الرابع — فى العمران الحضرى والبلدان والأمصار .

الخامس — فى الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه .

السادس — فى العلوم واكتسابها وتعلمها(٢) .

وهذا التقسيم الإجمالى يقدم إلينا فكرة عما يرى ابن خلدون أنه مادة لهذا العلم الذى يسميه بالعمران أو الاجتماع البشرى. وهو تقسيم تبدو دقته وبراعته متى استعرضنا بعد ذلك مواد مقدمته كلها ، ورأينا كيف ينبسط الموضوع ويتشعب الى أبعد الحدود ، وكيف ينظم ابن خلدون حلقات بحثه فى سلسلة وثيقة الإتصال والتماسك ،

---

(١) المقدمة ، ص ٣٣ .

(٢) المقدمة ، ص ٣٤ .

تشهد بتفوق هذا الذهن العبقرى ، وطرافته ، وقوة تدليله وجدله .

— ٢ —

لسنا نحاول فى هذه الرسالة أن نتناول فلسفة ابن خلدون ونظرياته الاجتماعية بالتحليل والنقد[١] ، فتلك مهمة لا يتسع لها هذا المقام الضيق . ولكنا نحاول فقط أن نستعرض محتويات مقدمته بإيجاز ، وأن نقف قليلا ببعض نظرياته الاجتماعية .

يبدأ ابن خلدون مقدمته بالحديث عن قيمة التاريخ ومذاهبه وعما يرتكبه المؤرخون من الأخطاء فى إيراد الأخبار والوقائع ، سواء بعامل الغرض والتحيز ، أو بعامل السهو والجهل بقوانين العمران وأحوال المجتمع ، وعدم الدقة والتمحيص فى تقدير الممكن والمستحيل . ثم يمثل لذلك بعدة أمثلة يناقشها ويحاول أن يبين وجه الخطأ فيها . بيد أن هذه المناقشة لاتخلو أحياناً من الضعف أو الهوى ؛ فأما الضعف فيبدو مثلا فى أسباب دحضه لقصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكى ، وفى دفاعه عن خلال الرشيد ، ثم دفاعه عن خلال المأمون[٢] . وأما الهوى فيبدو مثلا فى حديثه عن نسب الخلفاء العُبيديين (الفاطميين) ، ونسب الأدارسة بالمغرب الأقصى ، ومحاولته نقض المطاعن التى توجه الى نسبهما[٣] .

---

(١) يستطيع من يريد شرحاً وافياً لمقدمة ابن خلدون ونظرياته الفلسفية والاجتماعية أن يرجع الى رسالة صديقى الدكتور طه حسين (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) التى نقلتها الى العربية .

(٢) المقدمة ، ص ١٢ و ١٤ و ١٦ و ١٧ .

(٣) المقدمة ، ص ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ .

وقد رأينا أن حياة ابن خلدون كسياسى يتقلب فى مختلف الدول والقصور تجعله يخضع أحياناً لمؤثرات الدعوة والهوى . على أن معظم حديثه فى هذا الفصل طريف ممتع ، وكثير من مآخذه على أسلافه من الرواة والمؤرخين قوى صارم . وهو يتدرج من ذلك الى ضرورة تمحيص الوقائع والأخبار طبقاً لهذا القانون الذى يتكون فى رأيه بدرس العمران أو الإجتماع البشرى على نحو ما قدمنا .

بعد هذا التمهيد النقدى المستفيض ، يحدثنا ابن خلدون عن العلم الذى ابتكر موضوعه ، فيبدأ طبقاً لتقسيمه الذى أتينا عليه ، بالحديث عن العمران أو الاجتماع البشرى بصفة عامة ، ويشرح لنا طبيعة الاجتماع وضرورته وكيفية تنوعه بالنسبة للإقليم ، وتأثره بظروف الجو من الحر والبرد والاعتدال ، وأثر الهواء فى أخلاق البشر وألوانهم وأحوالهم ؛ ويستعرض خلال ذلك جغرافية العالم كما كانت تعرف فى عصره ، وهى جغرافية الأقاليم السبعة . ولسنا نلمس فى هذا الفصل كثيراً من الطرافة أو الجدة . وفى الفصل الثانى يتناول ابن خلدون أنواع العمران البدوى ، فيحدثنا بإفاضة عن المجتمع البدوى وخواصه ويقارنه بمجتمع الحضر . وهنا إحدى النظريات الإجتماعية المبتكرة التى يطالعنا بها المؤرخ ، فهو يحدثنا هنا عما يسميه « العصبية » وهى عبارة عما تتمتع به القبيلة أو الأسرة من القوة والجاه ، وقوامها فى نظره الإتصال برابطة النسب والقرابة وما إليهما من الروابط المماثلة . وهذه العصبية هى منشأ الرياسة والسلطان أو الدولة فى المجتمع البدوى ؛ وتكون هذه الرياسة لأهل العصبية ؛ ومدى الحسب الذى تترتب عليه العصبية فالرياسة ،

فى نظره أربعة أجيال ، وقد يمتد الى خمسة أو ستة ولكن فى حالة انحطاط وضعف . وتنهار العصبية ومن ثم الرياسة بانحلال الحسب . وتنتقل الى عشيرة أو أسرة أخرى تجتمع لها أسباب الكثرة والقوة وهكذا . وغاية العصبية هى المُلك(١) . وهنا يتحدث ابن خلدون عن خواص الملك واختلاف صوره ومداه باختلاف الأمم التى يقوم فيها ، وأثر الغلبة فى الأمم المغلوبة ، وكونها مولعة دائما بتقليد الغالب .

ثم يحدثنا ابن خلدون عن العرب . وحديث ابن خلدون عن العرب طريف شائق رغم ما يطبعه من شدة وتحامل . فالعرب فى نظره أمة وحشية ، تقوم فتوحهم على النهب والعيث ، ولا يتغلبون إلا على البسائط السهلة ، ولا يقدمون على اقتحام الجبال أو الهضاب لصعوبتها ؛ وإذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب لأن طبائعهم من الرحلة وعدم الانقياد والخروج على النظام منافية للعمران ، ولأنهم أهل تخريب ونهب ، يخربون المبانى وينهبون الأرزاق ، ويفسدون الأعمال والصنائع ؛ وهم أبعد الأمم عن سياسة الملك ، لأنهم لبداوتهم وخشونتهم أكثر شعوراً بالاستقلال والحرية ، لا يدينون لرياسة أو نظام . وسياسة الملك تقتضى النظام والخضوع والانقياد(٢) . ويستمر ابن خلدون بعد ذلك فى حملته على العرب

(١) راجع شرح ابن خلدون لنظريته فى العصبية ، وخواصها وتطورها فى المقدمة ص ١٠٨—١١٧ . وقد تناول صديقى الدكتور طاهر خميرى نظرية العصبية عن ابن خلدون فى رسالة بالألمانية عنوانها :
Der Asabjja Begriff in der Muquaddima des Ibn Haldun .
وقد نشرت فى مجلة Der Islam الألمانية (Band XXIII, 1936) .

(٢) المقدمة ص ١٢٥ — ٢٢٨

فى مواضع أخرى من مقدمته ، فيقول لنا إن الأبنية التى يختطها العرب يسرع إليها الخراب ، وإن العرب أبعد الناس عن الصنائع ، وإنهم ليسوا أهلا للعلم ، وإن حملة العلم فى الدول الإسلامية أكثرهم من الأعاجم[1] . وإذا كان ابن خلدون يعتمد فى هذه الحملة على كثير من الأدلة والملاحظات الصادقة فانه مع ذلك يبالغ فى حكمه على العرب ، وتعوزه الحجة فى كثير من آرائه . ولا يتسع المقام هنا لمناقشته وتفنيد آرائه بافاضة . ولكنا نقول فقط فى شأن الفتوحات العربية ، إن العرب هم الذين افتتحوا وهاد الشام ومفاوز الأناضول وأرمينية وتوغلوا فيما وراء فارس ، واقتحموا شمال إفريقية حتى المغرب الأقصى ثم اسبانيا ، وعبروا جبال البرنيه الى فرنسا . وهذه كلها أقطار وعرة وليست من البسائط التى يسهل غزوها . وقد افتتحها العرب جميعاً فى أقل من قرن ، وفى وابل من الظفر الباهر . ثم إن العرب لم يخربوا هذه الأقطار ولكنهم بالعكس أقاموا فيها دولا ومجتمعات عامرة زاهرة ؛ ويكفى لكى ندحض نظرية ابن خلدون فى خواص الفتوح العربية أن نستشهد بقيام الدولة الأموية فى المشرق ، ثم قيام الدولة الإسلامية فى اسبانيا .
وقد نفهم سر هذا التحامل الذى يطلق رأى ابن خلدون فى العرب بمثل هذه الشدة إذا ذكرنا أنه رغم انتسابه الى أصل عربى ، ينتمى فى الواقع الى ذلك الشعب البربرى الذى افتتح العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة وفرضوا عليه دينهم ولغتهم ، واضطروه بعد طول النضال والمقاومة والانتقاض أن يندمج أخيراً فى الكتلة الإسلامية ،

(١) المقدمة ص ٣٠٠ و ٣٣٧ و ٤٧٧ .

وأن يخضع راغماً لرياسة العرب فى إفريقية واسبانيا حتى تحين الفرصة لتحرره ونهوضه . والخصومة بين العرب والبربر فى إفريقية واسبانيا شهيرة فى التاريخ الإسلامى ؛ وقد ورث البربر بغض العرب منذ بعيد ، ونشأ ابن خلدون وترعرع فى هذا المجتمع البربرى يضطرم بمشاعره وتقاليده وذكرياته ، ونشأت فيه أسرته قبل ذلك بمائة عام ، ونعمت برعاية الموحدين البربر وتقلبت فى نعمهم ، فليس غريباً بعد ذلك أن نسمع منه أشد الأحكام وأقساها على العرب .

بيد أنه يجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن ابن خلدون يجيش هنا بنزعة علمية وأخرى قومية ، فابن خلدون يحمل على العرب الذين ينتسب إليهم بمثل هذه الشدة ، ولكنه يحاول هنا أن يدعم حملته بالأدلة والشواهد التاريخية ، ويطبع حديثه هنا نزعة علمية تحررت من أغلال التقاليد الموروثة . ثم هو يجيش هنا أيضاً بعاطفة وطنية قوية ، فهو ينطق هنا بلسان ذلك الوطن البربرى الذى غزاه العرب واثخنوا فيه مدى أحقاب وبسطوا عليهم سلطانهم الدينى والسياسى ، ولبث عصوراً يقاتل فى سبيل حرياته واستقلاله .

وفى الفصل الثالث يحدثنا ابن خلدون عن الدولة والملك . فالدولة تحدث بالقبيل والعصبية على نحو ما تقدم ، وللدولة خواص معينة ، وصور معينة تختلف باختلاف القائمين بأمرها ؛ وللدعوة الدينية أثر فى تقوية الدولة ، ولكن الدعوة الدينية لاتتم إلابالعصبية أيضاً . والخلاف يوهن الدولة ويدنى أجلها . وللملك كما للدولة طبائع وخواص ، منها الانفراد بالمجد ، والترف والدعة والسكون وهى خواص إذا استحكمت ، فانها تحمل الدولة الى الهرم ثم الفناء . ثم

إن للدولة أعماراً طبيعية كالأشخاص ؛ ويقدر ابن خلدون عمر الدولة منذ نشأتها حتى الفتوة ثم الكهولة فالهرم والسقوط ، بثلاثة أجيال فى الغالب ، ويقدر الجيل بأربعين عاماً ، فعمر الدولة لا يعدو فى الغالب مائة وعشرين سنة إلا فى أحوال نادرة[١] . وهذه النظرية تتفق مع نظرية الحسب التى تقدمت عند ذكر العصبية . وهنا يبلغ ابن خلدون ذروة الابتكار والطرافة ، وتبدو نظرياته الاجتماعية وتحليله للمجتمع ، فى منتهى القوة والروعة . وفى رأينا أن هذا الفصل هو أبدع أقسام المقدمة وأمتنها فى العرض والتدليل ، وأسطعها فى الدلالة على براعة هذا الذهن القوى الممتاز .

ويستمر ابن خلدون فى موضوع الدولة والملك طويلا ، فيتناول بعد ذلك تحول الدولة من البداوة الى الحضارة ، وأطوارها المختلفة ، وأثر الموالى والمصطنعين فى هذا التطور . ثم يتناول الملك وأصنافه ، والإمامة والخلافة واختلاف الآراء فى شأنهما ، ومذاهب الشيعة ؛ ثم يتحدث عن تحول الخلافة الى الملك ، ورسوم الخلافة من بيعة وولاية عهد وغيرهما ، وألقابها وخططها الدينية وهى القضاء والعدالة والسكة ؛ ثم عن الملك وخططه كالوزارة ودواوين الأعمال والجباية والرسائل والشرطة وقيادة الأساطيل ؛ ورسوم الملك وشاراته المختلفة ، والحروب ومذاهبها ، والجباية والمكوس ونظم التجارة ؛ ويختتم ابن خلدون هذا الفصل بالكلام عن الظلم ، وكونه يؤدى الى انحلال الدولة وخراب العمران وحديثه هنا أيضاً قوى مبتكر .

ويلحق بموضوع الدولة حديث البلدان والأمصار ، ونشأة

---

(١) المقدمة ، ص ١٤٢ و ١٤٣ .

المدن وخواصها واختلاف ظروفها وأحوالها ، من خصب ورفاهة وجدب وفقر ، وهو اختلاف يتعدى أثره الى الأقطار التى تضم هذه المدن ، ثم موقف أهل البادية من المصر ، وتوقف مدى الحضارة فى المصر على حالة الدولة ، وكون الحضارة هى غاية العمران ونهاية عمره ، وأنها موذنة بفساده ؛ وتفاوت الأمصار فى الغلة والصنائع واللغة ، وهذا هو موضوع الفصل الرابع من المقدمة .

وفى الفصل الخامس يتحدث ابن خلدون عن المعاش ووجوه الرزق ووسائل اكتساب الثروة ، ثم عن التجارة وما يتعلق بها من العرض والطلب والاحتكار والأسعار وغيرها ، ثم عن الصناعات وأنواعها وأحوالها بصفة عامة ، ثم يفرد لكل واحدة من أمهاتها كالزراعة والبناء والحياكة والتوليد والطب فصلا خاصاً .

ويخصص ابن خلدون الفصل السادس للكلام عن العلوم والتعليم . والعلم من طبائع العمران ، ويكثر ويزدهر حيث يعظم العمران ؛ ثم يتحدث عن أنواع العلوم الدينية والمدنية (الوضعية والعقلية) ؛ ويتخلل ذلك فصول طويلة شائقة عن الرؤيا والسحر وأسرار الحروف والكمياء والانفعال الروحانى والأسرار الخفية والاستدلال على الضمائر ، وهى جميعاً عنده من أنواع العلوم أو مما يلحق بها . ثم يحمل على الفلسفة والمشتغلين بها باعتبارها علماً باطلا ، وينوه بخطرها على الدين والعقيدة ، ويناقش بعض الأصول الفلسفية ويفندها . ويحدثنا بعد ذلك عن التربية ومذاهبها وخواص العلماء ، وكون معظمهم فى الإسلام من الأعاجم ؛ ويختم بفصول عن علوم اللغة والبلاغة والنثر والنظم ومذاهب الشعر لعصره .

الفصل الثانى

علم السياسة والملك قبل ابن خلدون

ابن خلدون مبتكر علم العمران . علم السياسة والملك قبل ابن خلدون . كتاب السلطان لابن قتيبة . نظريات الفارابى الاجتماعية . حديث إخوان الصفا عن السياسة وأقسامها . ماذا أفاد ابن خلدون من ذلك . تطور علم السياسة . الأحكام السلطانية وسياسة الملك لأبى الحسن الماوردى . سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى . حديث ابن خلدون عن كتاب الطرطوشى . رسالة الغزالى فى السياسة الملكية . المنهج المسلوك . الآداب السلطانية لابن الطقطقى . موضوعه وروحه النقدى . ابتكار ابن خلدون وطرافته

هذه هى محتويات تلك المقدمة الشهيرة التى يعالج فيها ابن خلدون علمه الجديد « العمران » ويمهد بها لقراءة التاريخ وفهمه . وهذه المقدمة هى الكتاب الأول من تاريخه العام . ولكنها جاءت كما رأينا وحدة ضخمة مستقلة ، تمتاز بروعة ابتكارها وشاسع أفقها ، وطرافة موضوعاتها ، وعمق مباحثها . وإذا كان هذا البحث الجديد الذى يعالجه ابن خلدون بمنتهى الإفاضة والبراعة والدقة يثير منا الإعجاب والدهشة ، فانه يحملنا على التساؤل فى الوقت نفسه ، ماذا كان نصيب ابن خلدون الحقيقى من ذلك الابتكار الرائع ؟ وهل كان له الفضل فى ابتداع هذا العلم ، أم كان له فقط فضل التوسع والإفاضة ، فى دراسة سبق أن عولجت من

قبل ؟ يقول لنا ابن خلدون إن علمه بكر جديد وانه ألهم إليه إلهاماً[١] بل هو لا يكاد يعرف ما هو ذلك العلم بالضبط ؛ فما نصيب هذه الدعوى من الصحة ؟ لقد حاولنا أن نستقصى مصادر ابن خلدون فيما خلفه المفكرون المسلمون قبله مما يمس موضوعه أو يقترب منه ، وأن نحقق بدرس هذه الآثار ما نقله الفيلسوف المؤرخ من أسلافه ، فانتهينا بعد طول البحث الى أن ابن خلدون رجل موضوعه ، ومخترع علمه ، وصاحب الفضل الأول فى ابتكار هذا العـلم الجديد الذى يسميه « بالعمران أو الاجتماع البشرى » . نعم ان هنالك موضوعات مما يعالج ابن خلدون عولجت من قبل ، وهنالك مباحث تمس بعض موضوعات علمه ؛ ولكن هذه كما سنرى دراسات محدودة لبعض نواح ضيقة من ذلك العلم الشاسع الذى يعالجه ابن خلدون بمثل هذه الإفاضة فى سلك متماسك منتظم الروابط والشواهد ، وكل ما خلفه أسلافه فى ذلك لا يعدو لمحات ضئيلة مبعثرة هنا وهنالك لا تجمعها وحدة عامة ، ولا يمكن أن تصلح وحدها أساساً لمثل هذه الدراسة الاجتماعية الممتازة . وقد رأينا أن نستعرض هذه المباحث الأولى التى يشير ابن خلدون الى بعض منها ، حتى نرى بالمقارنة المادية الى أى حد يرتفع ذلك الذهن الفائق فى أفق الطرافة والابتكار .

لسنا نجد قبل ابن خلدون مفكراً مسلماً يجعل المجتمع وتكوينه وخواصه موضوعاً لدرسه وتأمله ، ولكنا نجد بعض المفكرين المسلمين يعالجون منذ القرن الثالث الهجرى موضوع السياسة والملك كأنه علم

---

(١) المقدمة ، ص ٣٣ .

خاص أو أدب خاص ؛ وقد فهمت السياسة فى هذا العصر بمعنى ضيق جداً ، هو شرح الخلال التى يجب أن يتمتع بها السلطان ، والعيوب التى يجب أن يبرأ منها لكى يحكم بأهلية وكفاية . وأما المُلك فانه يعالج من ناحية الشروط التى يجب توفرها شرعاً فى الإمام أو السلطان ، وما يخرجه عن أهلية الحكم ، ثم الخطط السلطانية كالوزارة والإمارة ومختلف الدواوين . وأقدم ما انتهى إلينا فى هذا الموضوع ماكتبه ابن قتيبة الدينورى[١] فى كتاب « عيون الأخبار » حيث يفرد قسما خاصاً عنوانه « كتاب السلطان » يتحدث فيه عن الخلال التى يجب أن يتحلى بها السلطان ، وفى رسوم صحبته ومعاملته ومشاورته ، وما يجب عليه نحو العمال والحكام[٢]. وعمدة ابن قتيبة فى حديثه ، مجموعة من الأقوال والحكم المأثورة ، ومنها كثير مما ينسب لحكماء الفرس والهنود ، فحديثه أقرب الى النصح والموعظة منه الى العرض والشرح . وفى أوائل القرن الرابع نجد فيلسوفاً مسلماً هو أبو نصر الفارابى[٣] يمس فى مباحثه موضوع المجتمع والاجتماع بطريقة فلسفية ، فيتحدث فى كتابه « مبادىء آراء أهل المدينة الفاضلة » عن حاجة الإنسان الى الاجتماع والتعاون ، وعن نشأة القرى والمدن ، وعن خصال رئيس المدينة الفاضلة (السلطان) ، وما لا يناسب المدينة الفاضلة ، والفرق بين أهل

---

(١) توفى ابن قتيبة سنة ٢٧٦ هـ — ٨٨٩ م .

(٢) راجع هذا الفصل فى كتاب عيون الأخبار (طبع دار الكتب ج ١ ص ١ — ١٠٧ .

(٣) توفى الفارابى سنة ٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م .

المدن الفاضلة والمدن الضالة ؛ ثم عن الصناعات وأقسامها[١] كل ذلك بطريقة فلسفية موجزة جداً . وظهرت فى أواسط القرن الرابع « رسائل إخوان الصفا » الفلسفية ، وفيها هنا وهنالك لمحات وشذور عن بعض الموضوعات السياسية والاجتماعية ؛ ويعتبر إخوان الصفا « السياسة » علماً مستقلا بذاته ويقسمونها الى خمسة أقسام : السياسة النبوية ، والملوكية ، والعامية ، والخاصية ، والذاتية . والأولى تتعلق بوضع النواميس والسنن الزكية ، وتطهير النفوس من شوائب العقائد والآراء الخبيثة . وأما السياسية الملوكية فهى « معرفة حفظ الشريعة على الأمة ، وإحياء السنة فى الملة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، باقامة الحدود وإنفاذ الأحكام التى رسمها صاحب الشريعة ، ورد المظالم وقمع الأعداء ، وكف الأشرار ونصرة الأخيار » . وأما السياسة العامية وهى الرياسة على الجماعات كرياسة الأمراء على البلدان والمدن ورياسة قادة الجيوش على العساكر « فهى معرفة طبقات المرؤوسين وحالاتهم وأنسابهم وصنائعهم ومذاهبهم وأخلاقهم ؛ وترتيب مراتبهم ومراعاة أمورهم ... الخ » . وأما السياسة الخاصية فهى معرفة كل إنسان كيفية تدبير منزله وأمر معيشته . وأما السياسة الذاتية فهى معرفة كل إنسان نفسه وأخلاقه[٢] . ويتحدث أخوان الصفا فى أمكنة أخرى عن الغرض من المُلك وعن أنواع الرياسة ؛ وعن الإمامة

---

(١) راجع كتاب المدينة الفاضلة (طبعة ليدن) ص ٥٣ و ٥٩ و ٦٧ .

(٢) رسائل اخوان الصفا (مصر) ج ٢ ص ٢٠٨ و ٢٠٩ .

وشروطها وأحكامها[١] ؛ ويتحدثون عن تقسيم العلوم ويقسمونها الى ثلاثة أقسام كبيرة : الرياضية ، والشرعية الوضعية ، والفلسفية الحقيقية ؛ ولكل قسم منها أنواع وفروع كثيرة ، وتدخل الآداب بأنواعها فى القسم الأول ؛ وعلوم الدين والقرآن والسنة فى القسم الثانى ؛ والمنطقيات والطبيعيات والالهيات فى الثالث . وتوضع السياسة فى باب « الالهيات »[٢] . كذلك يتحدث إخوان الصفا عن تقسيم الصنائع وما تحتاج إليه من العناصر[٣] ويتحدثون عن « تأثير طبيعة البلدان فى الأخلاق » فى فصل خاص[٤] . كل ذلك فى أسلوب علمى فلسفى رائع البيان والتدليل .

وهنا نقف قليلا . فانا نجد فيما تناوله الفارابى وإخوان الصفا شيئاً مما تناول ابن خلدون فى مقدمته . مثال ذلك حديث الفارابى عن حاجة الإنسان الى الاجتماع ، وعن نشأة القرى والمدن ، وحديث إخوان الصفا عن تقسيم العلوم ، والصنائع ، ثم عن تأثير طبيعة البلدان فى الأخلاق . وقد تناول ابن خلدون هذه المسائل كما بينا[٥] وجعلها من موضوعات علمه . ولكنا نجد بالمقارنة أن

---

(١) رسائل اخوان الصفا (مصر) ، ج ١ ص ٢٣ وج ٤ ص ٣٠ وما بعدها وص ١٨١ .

(٢) رسائل اخوان الصفا ، ج ١ ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٣) رسائل اخوان الصفا ، ج ١ ص ٢١١ .

(٤) رسائل اخوان الصفا ، ج ١ ص ٢٣٢ — ٢٣٥ .

(٥) راجع المقدمة ، فى ضرورة الاجتماع الانسانى (ص ٣٤) ، وفى قيام المدن والأمصار (ص ٢٨٦ وما بعدها) وفى تقسيم العلوم (ص ٣٥٨ وما بعدها) ، وتقسيم الصنائع (ص ٣١٨ وما بعدها) ، وفى تأثير الهواء فى أخلاق البشر (ص ٧٢ — ٧٣) .

ابن خلدون لا يكاد يشترك فى هذه الموضوعات مع الفارابى وإخوان الصفا بأكثر من رؤوسها ؛ وبينما يتناولها الفارابى وإخوان الصفا بطريقة فلسفية علمية محضة إذا بابن خلدون يتناولها من الناحية الإجتماعية ، ويفيض فى عرضها بطريقة عملية محضة ، ويذهب فى الشرح والتدليل مذهباً آخر ؛ فهو لا يخلو هنا أيضاً من الاستقلال الطرافة والابتكار .

ثم نجد ذلك البحث الذى اصطلح على تسميته « بالسياسة » يتخذ مكانه وينتظم الى أدب خاص ، ويعالج تارة من الناحية الفقهية المحضة ، وتارة من الناحية الأخلاقية والفلسفية . ومن أشهر الكتب التى تعنى بجانبه الفقهى ، كتاب الأحكام السلطانية لأبى الحسن الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) ؛ وهو من أشهر وأقيم الكتب فى هذا الموضوع . وفيه يتحدث المؤلف بإفاضة عن الإمامة وشروطها ، والإمام وما يجب أن يتوفر فيه من الصفات ، وما يخرج به عن الإمامة ، وما يجب على الأمة نحوه ؛ ثم عن الوزارة وأنواعها والإمارة وأنواعها والقضاء وشروطه ، والفىء والغنيمة والجزية والخراج وأحكامها ، والإقطاع ، والدواوين ، والحدود . كل ذلك من الناحية الفقهية وعلى المذهب الشافعى . وللماوردى أيضاً رسالة أخرى عن « الوزارة وسياسة الملك » يتحدث فيها بافاضة عن الوزارة وما يجب أن يتوفر فى متوليها ، ثم عن الوزير واختصاصه وواجباته وحقوقه نحو السلطان ، وحقوق السلطان نحوه وأنواع الوزارات ، وعلائق الوزير والسلطان . وبحث الماوردى هنا أخلاقى فلسفى تتخلله الحكم والأقوال المأثورة .

وفى كتاب « سراج الملوك » لأبى بكر الطرطوشى الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٠ ﻫ (١١٢٦ م) يتقدم البحث قليلا . ويعالج الطرطوشى موضوعه من الناحية الأخلاقية والفلسفية ، ويتناول بعض موضوعات لم يتناولها أسلافه . فيحدثنا عن الخصال الواجبة فى السلطان ، والصفات التى تؤدى الى ضياع الملك ، ثم عن خلال السلطان منفردة ، وعيوبه منفردة ؛ ويتكلم بعد ذلك عما يجب أن يتصف به السلطان نحو الجند والرعية ، وما يجب عليه نحو الأموال العامة وإنفاقها ؛ ثم عن الجزية وشروط العمال ، وعن الدواوين ، وعن الظلم وسوء عواقبه ، ثم عن الحروب وتدبيرها وأحكامها . وكتاب الطرطوشى هو أكبر مؤلف من نوعه ؛ ولكن الصبغة الدينية تغلب على أسلوبه ، ويتخذ على الأغلب صورة الوعظ ، وتتخلله الأحاديث والحكم والأقوال المأثورة بكثرة . ويقول لنا الطرطوشى فى ديباجته « إن كتابه لم يسبق الى مثله أقلام العلماء » . على أننا نرى مما تقدم أن غير واحد من كتاب المشرق قد سبق الطرطوشى الى موضوعه ، وإن كان الطرطوشى يمتاز بالإفاضة وبأنه طرق بعض أبواب لم تطرق من قبل .

ويخص ابن خلدون كتاب الطرطوشى بالذكر بين الكتب التى تمس موضوعه لأنه يحدثنا عن تلك الكتب ، فيقول لنا إن فى كتاب السياسة المنسوب لأرسطو جزءاً صالحاً من موضوع علمه إلا أنه غير مستوف ولا معطى حقه من البراهين . وكذا فى كلام ابن المقفع ، وما يستطرد فى رسائله من ذكر السياسات ، الكثير من مسائل علمه غير مبرهنة كما برهنا ، وإنما يسلك فى ذكرها

منحى الخطابة والترســل . ولكنه يصارحنا بأن الطرطوشى « قد حوّم فى كتاب سراج الملوك وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابه ومسائله ... لكنه لم يصادف فيــه الرمية ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ، إنما يبوب الباب للمسألة ثم يستكثر من الأحاديث والآثار ... وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده »(١) . والواقع أن ابن خلدون يعالج بعض الموضوعات التى يعالجها الطرطوشى ، مثل الدواوين ، ومذاهب الحروب ، وعواقب الظلم ؛ ولكنه ينحو فى العرض والتدليل منحى آخر ؛ ولا نلمس فى كتاب الطرطوشى أثر ذلك المذهب الاجتماعى المبتكر الذى يسيطر على بحث ابن خلدون من مبدئه الى منتهاه .

ولدينا رسالتان أخريان فى هذا الموضوع ، أعنى موضوع السياسة الملكية هما « التبر المسبوك فى نصائح الملوك » المنسوب للإمام أبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ (١١١٢ م) وضعه بالفارسية للسلطان محمد بن ملك شاه ، وهو مجموعة نصائح فى الخلال التى يجب أن يتحلى بها السلطان ، ومعظمه مواعظ وقصص قديمة(٢) ؛ « والمنهج المسلوك فى سياسة الملوك » ، كتبه عبد الرحمن ابن عبد الله للسلطان صلاح الدين الأيوبى (أواخر القرن السادس) فى نفس الموضوع ، أعنى الخلال السلطانية ، وفيه أيضاً حديث فقهى عن القتال والفىء والغنيمة ؛ ومواعظ وقصص قديمة مكررة.

---

(١) المقدمة ، ص ٣٣ .

(٢) طبعت هذه الرسالة على هامش كتاب «سراج الملوك» (مصر) .

بقى لدينا من هذا الثبت مؤلف يمتاز بشيء من التوسع فى فهم الموضوع وشيء من الطرافة فى عرضه ؛ ذلك هو كتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » لمؤلفه محمد بن على بن طباطبا المعروف بالطقطقى ، الذى عاش ، كما يستنتج من إشارات فى كتابه ، فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجرى بعد ذهاب الدولة العباسية ، وكتب مؤلفه فى أواخر سنة ٧٠١ هـ (١٣٠٢ م) بمدينة الموصل لأميرها عيسى بن ابراهيم[١] ويخصص ابن الطقطقى فى كتابه فصلا كبيراً « للأمور السلطانية والسياسات الملكية »[٢] غير أنه يعرض موضوعه فى صورة أخرى ، ويقول لنا فى مقدمته إنه لا يقصد البحث فى أصل الملك وحقيقته وانقسامه الى رياسات دينية ودنياوية من خلافة وسلطنة وإمارة وولاية ، وما كان من ذلك على وجه الشرع وما لم يكن ، ومذاهب أصحاب الآراء فى الإمامة ، وإنما يقصد البحث فى موضوع « السياسات والآداب التى ينتفع بها فى الحوادث الواقعة ، والوقائع الحادثة ، وفى سياسة الرعية وتحسين المملكة وفى إصلاح الأخلاق والسيرة»[٣] ويتحدث ابن الطقطقى فى هذا الفصل عما يجب أن يكون عليه الملك الفاضل من الخصال وما لا يجب ، ثم عن حقوق الملك على الرعية ، وأخصها الطاعة . ويحدثنا طويلا عن مزايا الطاعة

---

(١) راجع مقدمة المؤلف فى طبعة «جر يفزولد» التى نشرها المستشرق آلڤارت سنة ١٨٥٨ ؛ وراجع أيضاً مقدمة الناشر الألمانية (ص ١٤ و ١٥) .

(٢) الفخرى ، ص ١٩ — ٨٨ .

(٣) انفخرى ، ص ١٩ .

وخواصها فى الدولتين الأموية والعباسية ، وكيف كان فقدها عاملا من أهم العوامل فى وهن الدولة العباسية وسقوطها ، ويشرح نظريته بالوقائع والحقائق التاريخية(١) . ثم يتحدث عن الحقوق الواجبة للرعية على الملك وأنواع السياسات التى يجب أن يتبعها نحو مختلف الطبقات ، والنظر فى العقوبات وتقديرها وظروفها ، وخطر الانغماس فى الشهوات على الملك والدولة ؛ ويورد خلال ذلك شيئاً من وصايا الحكماء اليونان والفرس . ولكن ابن الطقطقى لا يعنى بعرض المبادىء والقواعد النظرية عنايته بتطبيقها على حوادث التاريخ ولا سيما تاريخ الدول الإسلامية . وهو يمتاز فى عرضها وتطبيقها بنزعة نقدية قوية قلما نلمسها فى آثار أسلافه ، كما أنه يمتاز بحسن التدليل وتطبيق النظريات على الوقائع . بل نستطيع أن نقول إن هذا الفصل الذى يمهد به لتاريخ الدول الإسلامية كان فتحاً جديداً فى النقد التاريخى ، وفى درس الدولة من الناحية الاجتماعية . وهو بلا ريب مما يدخل فى مواد تلك الدراسة الاجتماعية الشاسعة التى استخرج منها ابن خلدون علمه ومذهبه الاجتماعى . بيد أن ابن خلدون لم يطلع فيما يظهر على هذا الأثر الذى يعالج بعض نواح من موضـــوعه ، فقد كان الكتاب حديثاً بالنسبة لعصره ، ولم يكن قد وصل تداوله وذيوعه من المشرق الى المغرب ؛ هذا الى أن الموضوع الذى يعالجه ابن الطقطقى ضيق جداً بالنسبة لدراسة ابن خلدون ؛ وإذا كان كلاهما يشترك فى فهم التاريخ بطريقة تحليلية، فان ابن خلدون يتفوق على سلفه تفوقاً عظيما بسعة

(١) الفخرى ، ص ٣٥ و ٣٦ .

آفاقه ، وينهج فى دراسته سبيلا أخرى تحتفظ بكل جدتها وطرافتها .

* *

والآن وقد عرضنا كل ما كتبه المفكرون المسلمون فى موضوع الدولة والسياسة الملوكية والمدنية والاجتماعية قبل عصر ابن خلدون ، وبينا بالمقارنة المادية أن هذا التراث كله لم يكن يمد ابن خلدون أو يلهمه بموضوع علمه ، وإن كان يعرض الى نواح ضئيلة مما يتناوله ابن خلدون فى دراسته ، فانا نستطيع أن نقرر مع ابن خلدون أن ذلك العلم الذى يسميه بالعمران أو الاجتماع البشرى هو علم لم يوجد قبله فى التفكير الإسلامى ، بل لم يوجد فى التفكير القديم كله ، إذا استثنينا بعض ما خلفه الفلاسفة اليونان ولا سيما أرسطو عن نظم الدولة والمجتمع . فاذا كان ابن خلدون قد انتفع بشىء من تراث الماضى ، فانما يكون من هذا التراث الغابر ، ولا سيما تراث أرسطو ؛ وقد كان ابن خلدون فيما يظهر مطلعاً على بعض جوانب من فلسفة أرسطو ، كما يبدو من إشارته الى « سياسة » أرسطو ، وعلى شروح ابن رشد لأرسطو(١) . على أنه لا ريب فى أن هذا الانتفاع لم يكن ذا شأن يذكر سـواء فى صوغ فلسفته التاريخية أو فلسفته الاجتماعية .

فابن خلدون إذاً ، كما قدمنا أستاذ موضوعه ، ومخترع علمه. وهو يقول لنا بحق إن علمه جديد مبتكر ، وانه ليس من علم السياسة المدنية الذى تناوله أسلافه من قبل ، بل هو علم مستنبط

---

(١) راجع المقدمة ، ص ٣٣ . وقد وضع ابن خلدون كما سنرى ملخصات لبعض كتب ابن رشد ، ولكنها لم تصل إلينا .

النشأة مستقل بذاته ، لم يعالجه مفكر قبله ، أو لم يعالجه بمثل ابتكاره وسعته واستيعابه .

وسنرى أن هذا العلم الذى استحدثه ابن خلدون واستنبطه ، يتخذ من حيث مادته وموضوعاته مكانه بين علومنا الحديثة ، فى علوم الاجتماع ، وفلسفة التاريخ ، والنظام ، والاقتصاد السياسى .

وسنبين فى موضع آخر ، كيف يرتفع النقد الحديث بتراث ابن خلدون الاجتماعى الى أسمى مكانة ، ويعتبره مبتكر علم الاجتماع الحديث وواضع أسسه .

الفصل الثالث

كتاب العبر والتعريف

وآثار ابن خلدون الأخرى

مؤلف ابن خلدون التاريخي . فكرته الأصلية فى الاقتصار على تاريخ المغرب . تنقيحه لتاريخه وزيادته فى محتوياته . مدحه لخلال البربر . طريقته وأسلوبه . كتاب التعريف أو ترجمة ابن خلدون لنفسه . محتويات التعريف . صراحة ابن خلدون فى الكشف عن كثير من نزعاته . خلاله القوية . الجانب القصصى فى تعريفه . آثاره الأخرى . كتاب لباب المحصل . كتاب شفاء السائل .

— ١ —

ان هذا الكتاب الأول ، الذى يعرض فيه ابن خلدون نظرياته فى التاريخ والاجتماع ، والذى يشغل وحده مجلداً كبيراً ، ليس إلا مقدمة لمؤلفه التاريخى الضخم أو تاريخه العام .

ويسمى ابن خلدون مؤلفه التاريخى : « كتاب العبر ، وديوان المبتدا والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ويقسمه إلى ثلاثة كتب كبيرة على النحو الآتى :

الأول — فى العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك

من العلل والأسباب . وهذا الكتاب هو الذى عرضنا إليه فيما تقدم ، وهو المعروف بالمقدمة .

الثانى — فى أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد أعنى الى عصر المؤلف وفيه الإلماع ببعض من عاصرهم من الأمم والمشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى اسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والإفرنجة .

الثالث — فى أخبار البربر ومن اليهم من زناته وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول .

ويقع مؤلف ابن خلدون فى سبعة مجلدات ضخمة ، الأول يشمل الكتاب الأول ، وهو علم العمران ، أو المقدمة . وتبدأ الموسوعة التاريخية منذ المجلد الثانى . ويستغرق الكتاب الثانى وهو أخبار العرب وأجيالهم ، وأخبار باقى الأمم القديمة والتركية والفرنجية حتى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أربعة مجلدات ، من الثانى الى الخامس ؛ ويشمل الكتاب الثالث ، وهو أخبار البربر حتى عصر المؤلف المجلدين السادس والسابع ؛ ويختتم ابن خلدون مؤلفه بالتعريف عن نفسه فى عدة فصول كبيرة كما نفصل بعد .

ويبدأ ابن خلدون كمعظم المؤرخين المسلمين بالحديث عن أصل الخليقة وأنساب الأمم المختلفة . وحديثه فى ذلك معاد جله من الروايات والأساطير الدينية القديمة التى ترددها التواريخ الإسلامية نقلا عن التوراة وعن المؤرخ القوطى اللاتينى أورسيوس

(هرشيوش)[١] بيد أنه يبدى ريبه فى صحة الكثير منها . ويشرح لنا ابن خلدون بعد ذلك برنامج تاريخه كاملا[٢] ؛ ويبدأ بالكلام عن العرب الجاهلية ، ثم اليهود واليونان والرومان والفرس . وينقل معظم روايته عن اليونان والرومان عن ابن العميد .

ويشغل حديثه عن ظهور الإسلام وحياة النبى وعصر الخلفاء الراشدين جزءاً خاصاً ألحقه بالمجلد الثانى . ثم يبدأ تاريخ الدول الإسلامية منذ المجلد الثالث ، فيتحدث عن الدولة الأموية ؛ ثم الدولة العباسية بإفاضة . ويشغل تاريخ الدولتين المجلد الثالث . ويشمل المجلد الرابع تاريخ الفاطميين والقرامطة وتاريخ الأندلس منذ الفتح حتى مبدأ دولة بنى الأحمر ، وتاريخ بنى بويه وبنى سبكتكين . ويشمل المجلد الخامس تاريخ الترك السلاچقة بإفاضة ثم تاريخ الحروب الصليبية ، وتاريخ دول المماليك فى مصر حتى أواخر القرن الثامن . ويعتمد ابن خلدون فى هذا القسم أعنى تاريخ العرب والدول الإسلامية على تراث أسلافه مثل ابن هشام والواقدى والبلاذرى وابن عبد الحكم والطبرى والمسعودى وابن الأثير وغيرهم . ويبدأ ابن خلدون كتابه الثالث وهو أخبار البربر فى المجلد السادس .

---

(١) باولوس أورسيوس Paulus Orsius حبر ومؤرخ إسبانى (توطى) عاش فى القرن الخامس الميلادى ووضع باللاتينية تاريخاً للخليقة حتى عصره . وقد اشتهر تاريخه بالرغم من ركاكته وكثرة خرافاته وانتفع به كثير من المؤرخين اللاحقين . وعرفه المؤرخون المسلمون ونقلوا عنه . وأشار إليه ابن خلدون فى مواضع عديدة من تاريخه ، وتعرفه الرواية الاسلامية بهروسيس أو هرشيوش .

(٢) كتاب العبر ، ج ٢ ص ١٦ و ١٧ .

ويذكر لنا ابن خلدون ان كتابة تاريخ البربر هى غرضه الأول من وضع مؤلفه التاريخى ، إذ يقول فى مقدمته : « وأنا ذاكر فى كتابى هذا ما أمكننى منه فى هذا القطر المغربى اما صريحاً ومندرجاً فى أخباره وتلويحاً ، لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه دون ما سواه من الأقطار لعدم اطلاعى على أحوال المشرق وأممه ، وأن الأخبار المتناقلة لا توفى كنه ما أريده منه »[١] . ولهذا التصريح من جانب ابن خلدون قيمة خاصة ، فقد حمل بعض النقدة على تاريخه ، ورموه بالقصور وعدم الاطلاع والتحقيق فيما كتب عن المشرق . وقد أشرنا فيما تقدم الى أقوال الحافظ ابن حجر وغيره فى ذلك[٢] . والواقع أن القسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب العبر ، هو — بعد المقدمة — أنفس أقسامه ، وأوفرها طرافة ، وأقواها عرضاً وتحقيقاً ، وفيه من الروايات والحقائق الغريبة عن أحوال تلك الأمم والقبائل البربرية ، ما لم يوفق اليه أى مؤرخ قبل ابن خلدون أو بعده. ولا غرو فابن خلدون بطبيعة نشأته وحياته ، وتقلبه فى خدمة الدول والقصور البربرية ، ودرسه لأحوالها دراسة المطلع ، رجل هذا الموضوع وأقدر من يتناوله .

وفى هذا الكتاب الثالث يبدأ ابن خلدون حديثه عن « العرب المستعربة من بقية الدول الإسلامية من العرب » بالمغرب ، ثم تاريخ البربر والقبائل والبطون البربرية الشهيرة مثل زناته ومغراوة ولواته

---

(١) المقدمة ، ص ٢٧ .

(٢) راجع ص ٩٩ من هذا الكتاب .

ومصمودة والبرانس وكتامة وصنهاجة ، منذ أقدم العصور حتى عصره ؛ ويقدم الينا عن أصول البربر ، وأحوالهم ، وعقائدهم قبل الفتح الإسلامى ، روايات وحقائق لم تكن معروفة من قبل . ويسرد تاريخ المرابطين والموحدين بإيجاز ؛ ثم يفيض فى تاريخ الدول البربرية القريبة من عصره والتى عاصرها إفاضة ظاهرة ؛ ولما كان ابن خلدون قد اتصل بمعظم هذه الدول المعاصرة ، وأدى فى تقلباتهـــا ، أدواراً ، فانه يشير فى كثير من المواطن الى مواقفه وأعماله فيها (١) . ويشغل تاريخ البربر المجلد السادس ومعظم المجلد السابع من كتاب العبر كما انتهى الينا . بيد أنه يتضح من مراجعة أخبار الدول المعاصرة ، أن ابن خلدون ، قد راجع ما كتبه فى شأنها وزاد عليه فيما بعد فى كثير من المواطن . ونحن نعرف أن ابن خلدون قد أتم كتابة النسخة الأولى من تاريخه فى تونس سنة ٧٨٣ هـ قبل نزوحه الى مصر . وهو يقول لنا خلال حديثه عن أخبار بنى حفص ما يأتى : «كنت قد أنهيت بتأليف الكتاب الى ارتجاع توزر من أيدى ابن يملول وأنا يومئذ مقيم بتونس ، ثم ركبت البحر فى منتصف أربع وثمانين الى بلاد المشرق لقضاء الفرض ، ونزلت بالاسكندرية ثم بمصر ، ثم صارت أخبار المغرب تبلغنا على السنة الواردين...» (٢) وقد وقع ارتجاع توزر ســـنة ٧٨٣ هـ (٣) . وفى مصر تناول

---

(١) مثال ذلك ما ورد فى ص ٣٧٧ و ٣٧٩ من المجلد السادس وفى ص ١٣٣ و١٤٣ و٣٠٥ و ٣٢٩ و٣٣٤ و٣٧٧ من المجلد السابع .

(٢) كتاب العبر ، ج ٦ ص ٣٩٦ .

(٣) كتاب العبر ، ج ٦ ص ٣٩٥ .

ابن خلدون تاريخه بالتهذيب والإفاضة ، ووصل فى روايته فى أخبار الدول البربرية الى سنى ٧٩٠ و ٧٩١ و٧٩٢ وأحياناً الى سنة ٧٩٦هـ(١). ووصل فى أخبار الدول المصرية والتركية حتى سنى ٧٩٣ و ٧٩٥ و٧٩٦ و٧٩٧ هـ(٢). ووصل فى أخبار الأندلس حتى سنة ٧٩٤ هـ(٣). وهذه كلها إضافات وفصول جديدة أضيفت الى المؤلف الأصلى أثناء إقامة المؤرخ بمصر ؛ والنسخة التى انتهت إلينا ، والتى نتداولها الآن ، هى بلا ريب من أتم النسخ وأوفاها .

ونلاحظ فى هذا القسم أيضاً — تاريخ البربر — أن ابن خلدون يفرد فصلا خاصاً للتكلم عن خلال البربر « وعما كان لهم قديماً وحديثاً من الفضائل الإنسانية والخصائص الشريفة » وهو يقول لنا بحماسة « وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم فى الخلال الحميدة ، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم ، مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم ، ومراعاة المدح والثناء من الخلق ، من عز الجوار وحماية النزيل ، ورعى الأذمة والوفاء بالقول والعهد ، والصبر على المكاره والثبات فى الشدائد ... وإباية الضيم ومشاقة الدول ، ومقارعة الخطوب وغلاب الملك ، وبيع النفوس من الله فى نصر دينه ، فلهم فى ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم »(٤). ولم يعقد ابن خلدون

(١) راجع ج ٦ ص ٣٩٩ و ٤٠٣ و ٤٢٤ ، وج ٧ ص ١٤٥ و١٤٦ و١٤٧ و ٢١٨ و ٢١٩ .

(٢) راجع ج ٥ ص ٥٤٠ — ٥٥٠ وص ٥٦١ و ٥٦٣ .

(٣) راجع ج ٤ ص ١٧٩ .

(٤) راجع ج ٦ ص ١٠٣ وما بعدها .

مثل هذا الفصل للتحدث عن خلال أية أمة من الأمم الأخرى ، فهو هنا ينم عن هوى خاص ونعرة بربرية واضحة ؛ وفى ذلك أيضاً مايفسر لنا صرامته فى الحملة على العرب غزاة إفريقية والمتغلبين عليها .

على أنه توجد أقسام أخرى من مؤلف ابن خلدون غير تاريخ البربر تمتاز بقيمة خاصة . مثال ذلك روايته عن دولة الإسلام فى صقلية ، وعن تاريخ الطوائف بالأندلس ، والممالك النصرانية فى اسبانيا ، وتاريخ دولة بنى الأحمر فى غرناطة . وينوه العلامة دوزى بقيمة رواية ابن خلدون عن تاريخ النصارى فى اسبانيا ؛ ويقول إنه لا يوجد فى الآداب النصرانية فى العصور الوسطى ما يستحق أن يقارن بها ، وان مؤرخاً نصرانياً لم يوفق لكتابة رواية فى مثل وضوحها ودقتها عن أية دولة مسلمة »[1]. ويتفوق ابن خلدون فى هذه الأقسام من تاريخه على المؤرخين المسلمين تفوقاً عظيما من حيث الدقة والتحقيق وتمحيص الرواية ؛ ويرجع ذلك فى الغالب الى أنه اطلع على مصادر فى عصره لم تصل الينا . وقد اهتم البحث الحديث برواية ابن خلدون عن تاريخ البربر اهتماماً عظيما كما اهتم بمعظم هذه الأقسام الأخرى من تاريخه ، فترجمت جميعاً الى اللغات الأوربية كما سنبين بعد .

ويختتم ابن خلدون كتابه بعدة فصول كتبها فى التعريف بنفسه وسرد تاريخ حياته منذ نشأته حتى نزوحه الى مصر ، وما توالى عليه بها من الحوادث حتى مستهل سنة ٧٩٧ هـ . وتعرف هذه

---

(١) Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature d'Espagne au moyen-âge, p. 96.

الفصـــول « بالتعريف » أو « التعريف بابن خلدون » ؛ وهـــو ما سنعود اليه .

* * *

وقد نهج ابن خلدون فى تنظيم مؤلفه منهجاً جديداً ، فقسمه الى كتب ، ثم الى فصول متصلة متداخلة ، وتتبع تاريخ كل دولة على حدة من البداية الى النهاية مع مراعاة نقط الوصل والتدخل بين مختلف الدول . وهو من هذه الناحية يتفوق على أسلافه تفوقاً كبيراً . وقد وضعت معظم الموسوعات التاريخية الإسلامية قبل عصره فى صورة جداول تاريخية مرتبة وفق السنين ، وجمعت حوادث كل سنة رغم تباعدها وتباينها معاً . ولكن ابن خلدون عدل عن هذه الطريقة الى طريقة الفصول والدول المتصلة ، وهى أقرب الى الدقة وحسن الرواية والتنسيق . وهو ليس أول من ابتدعها من المؤرخين المسلمين ، فقد سبقه اليها منذ القرنين الثالث والرابع مؤرخون كالواقدى ، والبلاذرى ، وابن عبـــد الحكم المصرى ، والمسعودى ، دونوا التاريخ فصولا متصلة[1] . ولكنه يمتاز عن أسلافه ببراعة التنظيم والربط والسبك ، ثم يمتاز عنهم أيضاً بالوضوح والدقة فى تبويب الموضوعات ووضع الفهارس .

ولابن خلدون أسلوب خاص فى العرض والتعبير . وكما أن مقدمته تمتاز بطرافة موضوعاتها ، فهى أيضاً تمتاز بروعة أسلوبها

---

(١) الواقدى فى كتاب «فتوح مصر والشام» المنسوب إليه ، والبلاذرى فى «فتوح البلدان» وابن عبد الحكم فى «فتوح مصر وأخبارها» والمسعودى فى «مروج الذهب» .

الأدبى الذى يجمع بين البساطة وقوة التعبير ، ودقة التدليل ، وحسن الأداء والتناسق . وإذا كانت المقدمة مثلا أعلى للتفكير الناضج والابتكار الفائق ، فهى فى نظرنا أيضاً مثل أعلى لحسن البيان والفصاحة المرسلة والعرض الشائق ، وذلك رغم ما يطرأ أحياناً على أسلوبها من ضعف فى العبارة ، وغرابة فى التعبير ، وشذوذ فى اللفظ ، ترجع الى نشأة ابن خلدون البربرية ، وتثقفه بآداب المغرب والأندلس ، ولم تكن يومئذ فى أوج قوتها .

ويكتب ابن خلدون تاريخه بنفس الأسلوب القوى المرسل ؛ وفى أحيان كثيرة يرتفع الى ذروة القوة فى التعبير ، ولكنه فى أحيان كثيرة يبالغ فى الإيجاز والإتباع ، فتبدو عبارته قاصرة عن بيان مقاصده ويعتورها الغموض واللبس ، أو يعتورها نوع من الركاكة والضعف ، وتتخللها الألفاظ الغريبة . غير أنه على العموم أستاذ موضوعه ، يمتاز فى معظم الأحيان بالبيان القوى الشائق .

— ٢ —

ترك ابن خلدون سيرة حياته مكتوبة بقلمه . وليس ابن خلدون أول من ترجم نفسه من الكتاب والمفكرين المسلمين . فكثير منهم ترجم نفسه ولا سيما المحدثين . ومن الأدباء والمؤرخين الذين ترجموا أنفسهم ياقوت الحموى فى كتابه « معجم الأدباء » ولسان الدين ابن الخطيب معاصر ابن خلدون وصديقه فى كتابه « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ومعاصره الحافظ ابن حجر فى كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » والسيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة » . ولكن هؤلاء جميعاً يضعون عن أنفسهم تراجم موجزة . أما ابن خلدون

فهو أول مفكر مسلم يخصص لنفسه ترجمة مستفيضة تشغل كتاباً بأسره ، ويحدثنا بصراحة عن كثير من أعماله وأحواله التى لا يحسن الحديث عنها . وابن خلدون يعتبر بحق نفسه شخصية من شخصيات التاريخ تستحق سيرتها التدوين والترجمة ؛ فقد لبث نحو ثلث قرن شخصية بارزة فى الدول المغربية المعاصرة ، يؤثر بأعماله ونفوذه فى تطوراتها ومصايرها ، فتاريخه فى الواقع قطعة من تاريخ هذه الدول لا يمكن إغفالها .

كتب ابن خلدون إذاً ترجمة نفسه فى عدة فصول مستفيضة وجعلها ذيلا لمؤلفه التاريخى . وتعرف هذه الفصول بالتعريف ، وهو العنوان الذى اختاره ابن خلدون لأول فصل منها وهو : « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » وتشغل من المجلد السابع من تاريخه (فى طبعة بولاق) نحو مائة صفحة من القطع الكبير[1] . ويحدثنا ابن خلدون فى هذا « التعريف » عن نسبه وتاريخ أسرته مذ قدمت الى الأندلس واستقرت فى إشبيلية حتى نزوحها الى المغرب ، وما ساهم به زعماؤها فى حوادث الأندلس ، وما انتهوا إليه من رفيع المناصب والنفوذ حتى أيام الطوائف . ثم يحدثنا عن نشأته وتربيته الأولى وما قرأ ودرس من الكتب والعلوم ، وعن شيوخه الذين تلقى عنهم ، ويترجم لنا كثيراً منهم . ثم يتناول سيرة حياته العامة ، مذ ولى توقيع العلامة لأبى اسحاق سلطان تونس سنة ٧٥٢ هـ ، ويحدثنا بإفاضة عن اتصاله بأمراء المغرب ودوله ، وتقلبه فى قصور تونس وبجاية وتلمسان وفاس ، وعما انتهى إليه

---

(١) كتاب العبر ، ج ٧ ص ٣٧٩ — ٤٦٢ .

من النفوذ فى هذه القصور والدول وهو فتى فى عنفوانه لم يجاوز الثلاثين ، وعما أصابه مراراً من محن الاعتقال والتشريد ، ثم عن رحلته الى الأندلس واتصاله بملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب ، وسفارته الى ملك قشتاله وزيارته لإشبيلية موطن أسرته الأول ، وكيف نشب الجفاء بينه وبين ابن الخطيب وملك غرناطة ، فارتد الى المغرب يتقلب فى خدمة أمرائه ودوله حتى انتهى كرة أخرى الى بلاط تونس فاستقر فيه ، ثم لزم العزلة حيناً وعكف على كتابة مؤلفه حتى أتمه ، ورأى أخيراً أن يختتم حياة المغامرة السياسية فى تلك القصور المضطربة فغادر تونس الى مصر سنة ٧٨٤ هـ .

ويحدثنا ابن خلدون بعد ذلك عن حياته فى مصر واتصاله بالسلطان وولايته التدريس وقضاء المالكية ، وما كان من سعاية خصومه فى حقه حتى عزل عن منصب القضاء ، ثم سفره لقضاء الحج وعوده الى مصر لينقطع للتدريس والقراءة ، وليرتد حيناً الى حياة الدعة والعزلة حتى مستهل سنة ٧٩٧ هـ .

وهنا يختتم ابن خلدون فصول « التعريف » بنفسه الملحقة بكتاب العبر فى النسخة التى أخرجتها مطبعة بولاق كما قدمنا . ولكن دار الكتب المصرية تحتفظ بنسخة مستقلة من « التعريف » أتم وأوفى عنوانها « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » وفى نهايتها أنها نقلت عن نسخة المؤلف الأصلية(١) . وفى هذه

---

(١) تحفظ هذه النسخة بدار الكتب تحت رقم (١٠٩ م تاريخ ، والظاهر أنها قد نقلت عن إحدى النسختين المحفوظتين باستانبول اللتين سبقت الاشارة إليهما واللتين اتخذتا أساساً لاخراج النسخة المحققة من «التعريف» التى طبعت بعناية لجنة التأليف والترجمة والنشر (سنة ١٩٥١) . وبالرغم مما يعتور هذه النسخة من التصحيف والنقص فى بعض العبارات فانها تكاد تطابق النسخة المحققة فى النص وفى الترتيب .

النسخة عدة فصول أخرى عن حياة ابن خلدون فى مصر ، يحدثنا فيها بافاضة عن ولايته لوظائف التدريس والقضاء ، وعن سعيه لعقد العلائق بين سلطان مصر وسلاطين المغرب ، وعن حوادث مصر الداخلية يومئذ ، ثم سفره الى الشام فى ركب الملك الناصر فرج ، ولقائه عاهل التتار تيمورلنك تحت أسوار دمشق ، وما دار بينهما من الأحاديث ، وما وقع فى تلك الفترة من حوادث الفتح التترى ، وتمهيده لذلك بنبذة عن أصل التتار وتاريخهم ، ثم عوده بعد ذلك الى مصر ؛ يتخلل ذلك كله شروح وتعليلات فلسفية واجتماعية لبعض الظواهر والحوادث السياسية على طريقته فى المقدمة . ثم يحدثنا عما وقع بعد عوده الى مصر من عوده الى ولاية القضاء مراراً وتكراراً ، وما لقى فى ذلك من كيد خصومه وسعايتهم . ويصل ابن خلدون فى رواية هذه الحوادث حتى ختام سنة ٨٠٧ هـ اعنى قبيل وفاته ببضعة أشهر فقط ، وتشغل هذه الفصول فى النسخة الخطية المشار اليها نحو أربعين صفحة كبيرة(١) . وتقع النسخة كلها فى مائة وتسع وأربعين صفحـــة . وفى القسم الأول منها الذى يقابل نسخة التعريف المتداولة زيادات وإضافات كثيرة

---

(١) تشتغل هذه الفصول فى النسخة الخطية من ص ١٠٧ الى ص ١٤٩ . وهذا بيانها كما أورده ابن خلدون : ولاية الدروس والخوانق . ولاية خانقاه بيبرس والعزل منها . فتنة الناصرى . السعاية فى المهاداة والاحاق بين ملوك المغرب والملك الظاهر . سفر السلطان الى الشام لمدافعة الططر (التتار) عن بلاده . لقاء الأمير تمر (تيمور) سلطان المغل والططر .

مما يدل على أن ابن خلدون عاد أثناء مقامه فى مصر فتناول ترجمة حياته بشىء من التنقيح والتهذيب .

وهذا « التعريف » الشامل الذى يتركه لنا ابن خلدون عن نفسه وحوادث حياته ، قطعة فريدة فى الأدب العربى ؛ فهو صورة قوية ممتعة لتلك الشخصية الممتازة الجريئة ، رسمت فى كثير من الحرية والصراحة ، حتى انها لتفصح فى كثير من المواطن عن خواص صاحبها النفسية ، وليست هذه الخواص دائماً مما يحمد أو مما تقر الأخلاق الفاضلة . فهنالك الكبرياء ، والزهو ، والأثرة ؛ وهنالك الطمع وحب التقلب ، وشغف الدس ، وانتهاز الفرص بأى الوسائل ثم هنالك الجحود ونكران الصنيعة ؛ هذه كلها نلمحها من آن الى آخر ماثلة فى أعمال المؤرخ ومواقفه حسبما يقصها علينا بنفسه . ولكن هذه الخلال السيئة لا تبعد كثيراً عن خواص الشخصية الممتازة بل هى فى الغالب خلال السياسة القوية الظافرة أو هى بعبارة أخرى مقومات السياسة « المكيافيللية » التى تتبوأ مكانتها بين مذاهب السياسة الحديثة . ثم هى تقرن فى الوقت نفسه بكثير من خواص العبقرية ومميزاتها ؛ فهنالك الى جانبها ، نرى الجرأة والإقدام ، وقوة النفس والثبات والجلد ، ونرى وفرة الذكاء والدهاء وبعد النظر ، ونرى قوة التأثير والإقناع ، ونرى الفصاحة والبيان الساحر ؛ هذه الخلال البديعة كلها أيضاً مما نستشف ونشهد فى أعمال ابن خلدون ومواقفه . وفى هذا وذاك يحدثنا المؤرخ بصراحة وحرية وبساطة تحمل على الإعجاب .

ثم هنالك الجانب القصصى الشائق . وتلك الغمار الخطرة التى

تتخلل حياة المؤرخ ، ليست مما يقع فى حياة الرجل العادى . فهو يجوز من قصر الى قصر ، ويجوز مخاطر النقمة والاعتقال والمطاردة ، ويقضى حياته السياسية فى توجس مستمر ؛ ويسير فى ركب الجند ويمثل الى جانب أميره فى المعارك الحربية ، ويقوم بقضاء المهام الخطرة فى أعماق الهضاب والصحارى . ونراه فى دمشق فى السبعين من عمره يخوض مخاطر جديدة ، وينزل من أبراج المدينة المغلقة مدلى بحبل ويقصد الى معسكر الفاتح فى جرأة ؛ ونراه فى مصر يقارع خصومه ويغالبهم رغم انفراده وكثرتهم ، ويفوز عليهم فى ميدان النضال أكثر من مرة . أليست لهذه الحياة العنيفة الشائقة روعتها وسحرها ؟ إنا لنذكر حين نقرأ « تعريف ابن خلدون » تلك الترجمة الشهيرة التى تركها لنا بنفونوتو تشللينى (١) عن حياته الغريبة. فهنالك شبه عظيم بين السيرتين رغم اختلافهما فى النوع ، وكلتاهما تفيض بمواطن الجرأة والمخاطر ، ومواطن الإفضاء والصراحة . وإذا كانت ترجمة الفنان الإيطالى تعتبر فى الأدب الغربى ، نموذجاً بديعاً للترجمة الشخصية ، وقطعة رائعة من العرض الساحر والقصص الشائق ، فان « تعريف » ابن خلدون يتبوأ مثل هذه المكانة فى أدبنا العربى .

— ٣ —

ان المعروف المتداول من تراث ابن خلدون هو مؤلفه التاريخى

---

(١) بنفونوتو تشللينى Cellini (١٥٠٠ — ١٥٧١) رسام وحفار وصانع إيطالى شهير خاض غمار حياة غريبة فياضة بالجرأة والمخاطرة ، وترك لنا ترجمة نفسه فى مجلد ضخم . وتعتبر ترجمته من أبدع آثار عصر الإحياء .

الكبير كتاب « العبر » بأجزائه السبعة الكبيرة ، وملحقه «التعريف » وهو الذى غدا بعد نشره كتاباً مستقلا عنوانه « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » ، وما ورد فيهما من رسائل كتبها المؤرخ وقصائد نظمها فى مختلف المناسبات ؛ ولكن ابن الخطيب يذكر لنا فى ترجمته لابن خلدون فى كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ثبتاً آخر لآثار ابن خلدون ؛ فيقول لنا إنه « شرح البردة شرحاً بديعاً ، ولخص كثيراً من كتب ابن رشد ، وعلق للسلطان أيام نظره فى العقليات تقييداً مفيداً فى المنطق ، ولخص محصل الإمام فخر الدين الرازى ، وألف كتاباً فى الحساب ، وشرع فى شرح الرجز الصادر عنى فى أصول الفقه بشىء لا غاية فوقه فى الكمال »(١). وقد كتب ابن الخطيب هذه الترجمة قبل أن يضع ابن خلدون مؤلفه التاريخى بأعوام كثيرة، ولذا لم يذكر فى هذا الثبت. ولم يصلنا من تلك الآثار أو الرسائل التى ذكرها ابن الخطيب سوى أثر واحد ، والظاهر أنها لم تكن ذائعة معروفة فلم تذكر التراجم المصرية المعاصرة عنها شيئاً ؛ والظاهر أيضاً أنها لم تكن من الأهمية بمكان حتى أن ابن خلدون نفسه لا يشير اليها فى التعريف بشىء .

أما هذا الأثر الآخر الذى وصلنا من تراث ابن خلدون مما أشار اليه ابن الخطيب ، فهو مؤلف صغير فى الأصول وقفنا عليه أثناء بحوثنا فى مكتبة دير الإسكوريال باسبانيا ، حيث تثوى المجموعة الأندلسية . وقد كتب على صفحة عنوانه ما يأتى :

---

(١) نفح الطيب (بولاق) ص ٤١٩ — وينقل المقرى ترجمة ابن الخطيب لابن خلدون كلها (ج ٤ ١٤ — ٤٢٦) .

« لباب المحصل فى أصول الدين تصنيف العبد الفقير الى الله تعالى الغنى به عن سواه ، الراجى عفوه ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى ، غفر الله له ولوالديه ، ولجميع المسلمين » .

ويقول ابن خلدون فى مقدمته شرحاً لموضوع كتابه ، إنه درس على شيخه وأستاذه العلامة أبى عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلى كتاب المحصل الذى صنفه الإمام الكبير فخر الدين بن الخطيب وأنه نظراً لإسهابه وإطنابه ، رأى أن تحذف منه ما يستغنى عنه ، وأن يترك فيه ما لابد منه ، وأن يضيف كل جواب الى سؤاله ، « فاختصرته وهذبته ، وحذو ترتيبه رتبته ، وأضفت اليه ما أمكن من كلام الإمام الكبير نصر الدين الطوسى ، وقليلا من بنيات فكرى ، وسميته لباب المحصل ، فجاء بحمد الله رائق اللفظ والمعنى ، مشيد القواعد والمبنى ... » (الورقة ٤—١)

ويقع المخطوط المشار اليه فى خمسة وستين لوحة (ورقة) من القطع الصغير ، وقد كتبت بخط مغربى هو خط ابن خلدون نفسه ، وقد جاء فى نهايته :

« وافق الفراغ من اختصاره عشية يوم الأربعاء التاسع والعشرين لصفر عام اثنين وخمسين وسبعمائة . وكتبه مصنفه الفقير الى الله تعالى ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى »(١) .

---

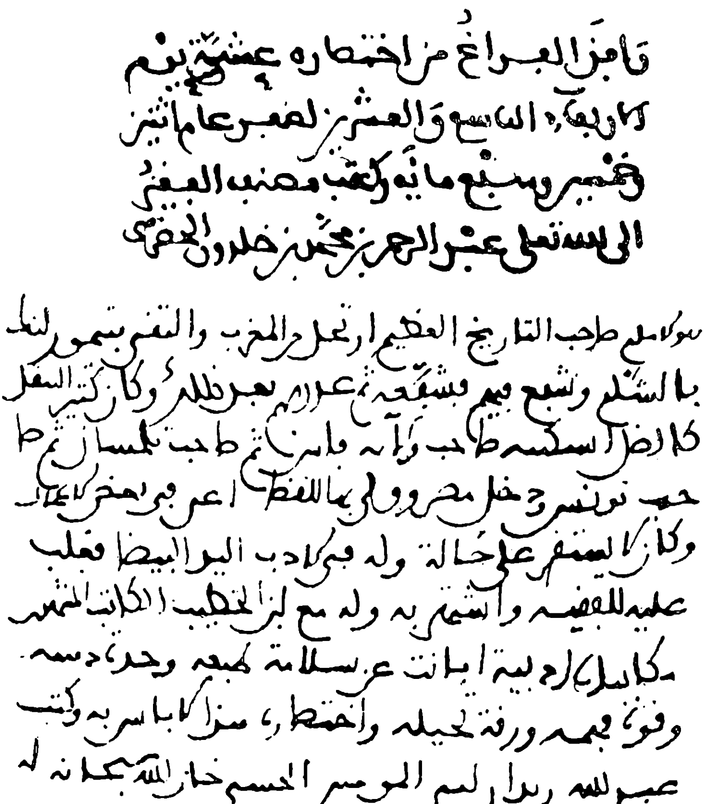
(١) تحفظ هذه النسخة الفريدة من أثر ابن خلدون بمكتبة دير الاسكوريال برقم ١٦١٤ (ورقمها فى فهرس الغزيرى ١٦٠٩) . راجع Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis ج ١ ص ٥٤ . وقد قام أخيراً بتحقيقها ونشرها الأب الأوغسطينى لوسيانو روبيو Luciano Rubio أستاذ الفلسفة فى دير الاسكوريال الملكى . وصدرت عن معهد مولاى أبى الحسن بتطوان (سنة ١٩٥٢) فى ١٤٩ صفحة . وقد جعل الأستاذ الناشر هذا النص العربى للكتاب هو الجزء الأول . ثم نشر ترجمته الاسبانية مقرونة بمقدمة فى تاريخ علم الكلام وجعله الجزء الثانى .

ومعنى ذلك ان ابن خلدون كتب «لباب المحصل» ولمّا يبلغ التاسعة عشرة من عمره . والمرجح جداً أنه أول ما كتب . وكتابته له فى هذه السن المبكرة دليل على أن المؤرخ كان فى مستهل حياته يعنى بعلم الأصول عناية خاصة .

ويقسم ابن خلدون كتابه الى أربعة أقسام أو أركان رئيسية ، الأول منها فى البديهيات ، والثانى فى المعلومات ، ويتبعه الكلام على الموجودات عند الفلاسفة وعند المتكلمين ، والثالث فى الإلهيات ، والرابع فى السمعيات ، ويشتمل كل ركن على عدة أقسام . ويختم بالكلام على معنى الإيمان ، والكفر ، ثم عن الإمامة ، والشيعة وأنواعها . وتلخيصه وعرضه لكل ذلك واضح حسن الترتيب والتنسيق .

ومما يجدر ذكره أن نسخة لباب المحصل هذه — وهى النسخة الفريدة فى العالم — المحفوظة بمكتبة الإسكوريال ، كانت من مقتنيات مولاى زيدان سلطان مراكش المتوفى سنة ١٦٢٧ م ، وقد ذيل عليها بخطه فى صفحتها النهائية (وقد قدمنا صورتها بعد) بعبارة تحليلية قوية عن ابن خلدون نثبتها فيما يلى :

« هو الإمام صاحب التاريخ العظيم ارتحل من المغرب والتقى بتيمورلنك بالشام ، وشفع فيهم فشفعه ، ثم غدر بهم بعد ذلك . وكان كثير التنقل كالظل . استكتبه صاحب ولاية فاس ، ثم صاحب تلمسان ، ثم صاحب تونس . ودخل مصر وولى بها القضاء اعنى فى بعض الأعمال . وكان لا يستقر على حالة . وله فى الأدب اليد البيضاء ، فغلب عليه الفقيه ، وله مع ابن الخطيب الكاتب المشهور مكاتبات أدبية أبانت عن سلامة طبعه ، وحدة ذهنه ، وقوة فهمه ، ورقة تخيله . واختصاره هذا لا بأس به . وكتب عبد الله زيدان أمير المؤمنين الحسنى خار الله سبحانه له » .


قد فرغ من اختصاره عشية يوم الأربعاء التاسع والعشرين لصفر عام اثنين وخمسين وسبعمائة وكتب مصنفه الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي

مولانا صاحب التاريخ العظيم ارتحل من المغرب والنفس تسمو لتلك البلاد الشاسعة [illegible] وكان كثير السفر [illegible] صاحب [illegible] ثم صاحب تلمسان ثم صاحب تونس ثم دخل مصر وولي بها القضاء [illegible] وكان [illegible] على [illegible] وله في الأدب اليد الباسطة فغلب عليه الفقه واشتهر به وله مع ابن الخطيب الكاتب المشهور مكاتبات أدبية أبانت عن سلامة طبعه وجودة [illegible] وقوة فهمه ورقة [illegible] واختصار [illegible] وكتب عبد الله ربه زيدان [illegible] المؤمنين الحسني [illegible] له

الصفحة الأخيرة من كتاب لباب المحصل ، وفيها تاريخ كتابته ويليه كلمة عن ابن خلدون مكتوبة بخط مولاى زيدان سلطان مراكش ؛ وقد كان الكتاب ملكاً له .

هذا ، وقد حصلت دار الكتب حديثاً على نسخة مصورة من مخطوط مغربى فى التصوف عنوانه « شفاء السائل لتهذيب المسائل » ، يقع فى سبعة وثمانين ورقة (١٧٤ صفحة) ومنسوب فى صحيفة عنوانه « للشيخ أبى زيد عبد الرحمن بن الشيخ الفقيه المحقق المشارك المبرور المقدس المرحوم أبى بكر محمد بن خلدون الحضرمى »[١]. وينعت موئلفه فى ديباجته « بالشيخ الرئيس الفقيه الجليل المدرس ، المحقق المشارك المتفنن ، العالم العلم ، الصدر الأوحد ، قطب العلوم الدينية ، ورافع راياتها ، وفاتح مغلقات المسائل العقلية ، والسابق الى غاياتها ، أبو زيد عبد الرحمن ... ... الخ » .

والمخطوط قديم ذكر فى نهايته أنه كمل فى جمادى الأولى عام تسعين وثمانمائة ، أعنى بعد وفاة ابن خلدون باثنين وثمانين عاماً .

وأما موضوع الكتاب ، فقد أوضحه المؤلف فى فاتحته حيث يقول : « أما بعد فقد وقفنى بعض الإخوان أبقاهم الله على تقييد وصل من عُـدوة الأندلس ، وطن الرباط والجهاد ، ومأوى الصالحين والزهاد ، والفقهاء والعباد ، يخاطب بعض الأعلام من أهل مدينة فاس حيث الملك يزأر ، وبحار العلم والدين تزخر ، وثواب الله يعد لأنصار دينه ويذخر ، طالباً كشف الغطاء فى طريق الصوفية أهل التحقق والتوحيد الذوقى وفى المعرفة الوجدانية ، هل يصح سلوكه والوصول به الى المعرفة الصوفية ، ورفع الحجاب عن العالم الروحانى ، تعلماً من الكتب الموضوعة لأهله ، واقتداء بأقوالهم الشارحة لكيفيته ، فتكفى فى ذلك مشافهة الرسوم ، ومطالعة

---

(١) وتحفظ هذه النسخة بدار الكتب برقم ٢٤٢٩٩ ب

العلوم، والاعتماد على كتب الهداية، الوافية بشروط النهاية والبداية، كالاحياء والرعاية أم لابد من شيخ يتبين دلائله، ويحذر غوائله، ويميز المريد عن اشتباه الواردات والأحوال مسائله، فيتنزل منزلة الطبيب للمرضى، والإمام العدل للأمة الفوضى»، ثم يقول «والكلام فى هذه المسألة يستدعى تحقيق طريق الصوفية، وتمييزها من بين سائر الطرق، وكيف استقرت عند الصدر الأول منهم فى نوع من العبادة والمجاهدة واختصت بهذا الاسم. ثم صاروا الى مجاهدات أخرى، وغلب اسم التصوف عليها، وهو المشهور عند الكافة».

ويشتمل الكتاب على الأبواب الآتية:

(١) الكلام فى تحقيق طريق المتصوفة وتمييزه على الجملة من بين طرق الشريعة، ومدلول هذا اللقب عند من سلف منهم فى الأمة.

(٢) الكلام فى المجاهدات باطلاق وأقسامها وشروطها.

(٣) الكلام فيما نقل المتأخرون اسم التصوف اليه والرد عليهم فى ذلك.

(٤) الكلام فى اشتراط الشيخ فى المجاهدة وفى أى المجاهدات يجب.

(٥) القول فيما سمت اليه همم القوم من المجاهدات وما حملهم عليها من البواعث، وكيف غلب استعمال اسم التصوف فى مجاهداتهم الأخرى، واختص بها عند الكافة، وانتقل اليها عن هذه المجاهدة الأولى وتحقيق هذه الطريقة.

هذه هى الموضوعات التى يتناولها الكتاب ، وهى بعض مسائل التصوف ؛ وقد تناول ابن خلدون موضوع التصوف فى المقدمة فى فصل جامع لخص فى مسائل التصوف ، واختلاف مذاهبه تلخيصاً بديعاً[١] .

ويلوح لنا مما وُصف به مؤلف الكتاب من نعوت ، وما يبدو فى روح أسلوبه ، ومايتخلله من عبارات خاصة فى الوصف والتعبير ، أن هذا الكتاب هو فيما يرجح من تأليف ابن خلدون نفسه .

ومما يجدر ذكره أن هذا الكتاب لم يرد فى الثبت الذى أورده ابن الخطيب عن مؤلفات ابن خلدون . فهو إذاً فيما يبدو من إنتاجه بعد ذلك . وربما يكون قد كتبه خلال إقامته فى فاس بين سنتى ٧٦٠ و٧٦٢ هـ .

هذا ، وقد يكشف لنا الزمن عن آثار أخرى للمفكر العظيم ما تزال مطمورة فى بعض المجموعات المغربية الخاصة ، وهى التى كشفت لنا فى العصر الأخير عن كثير من ذخائر الأندلس التى كان يخشى أن تكون قد فقدت الى الأبد .

---

(١) المقدمة ، ص ٣٩٠ — ٣٩٦ .

الفصل الرابع

ابن خلدون والنقد الحديث

أول عهد البحث الغربى بابن خلدون . المباحث الأولى عنه وعن مؤلفه. نشر المقدمة وترجمتها . ظهور نظرياته وآرائه . رسالة فون كريمر عنه ابن خلدون مؤرخ الحضارة الاسلامية . تعليق الاستاذ شميت على هذا الوصف . رأى دى بو ير . ابن خلدون الفيلسوف. ابن خلدون الاجتماعى . تحليل العلامة جمبلوفتش لنظريات ابن خلدون الاجتماعية . فريرو وليفين . تقدير الأستاذ مونييه للمقدمة . فلسفة ابن خلدون الوضعية . تشاؤم ابن خلدون . رأى فون فيسندنك فى تطبيق نظرياته على التاريخ الحديث . ابن خلدون الاقتصادى . تحليل الأستاذ كلوزيو لنظرياته الاقتصادية . رسالة الأستاذ شميت . تقديره لابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف للتاريخ واجتماعى .

يرتفع النقد الغربى بتراث ابن خلدون الى أسمى مكانة . وقد عرف التفكير الغربى قبل ابن خلدون طائفة كبيرة من المفكرين المسلمين لم يرتفع كثير منهم الى مكانته ، وعرف قبله كثيراً من المؤرخين المسلمين ، لا لأنهم أجدر بالبحث والتعريف ، ولكن لأنهم ظهروا فى عصور الإسلام الفتية الزاهرة أو لأنهم تناولوا نواحى عنى بها التفكير الغربى[1]. ولكن ابن خلدون ظهر فى عصر

(١) عرف الغرب مؤرخين مثل المسعودى وأبى الفدا وابن العبرى وابن خلكان وابن عربشاه قبل ابن خلدون بعصور طويلة؛ وترجمت بعض مؤلفاتهم الى اللاتينية . ونشر تاريخ ابن العبرى وتاريخ ابن عربشاه (تاريخ تيمور) فى انجلترا بنصهما العربى منذ منتصف القرن السابع عشر.

سرى فيه الإنحلال الى صولة الإسلام وسيادته ، واضمحل التفكير الإسلامى ، فلم يكن أجدر العصور بالتعريف والبحث . ولبث تراث ابن خلدون مغموراً فى الشرق والغرب مدى قرون ، يكاد الشرق يجهله ، ولا يعرف الغرب شيئاً عنه . وفى سنة ١٦٩٧ م ظهرت عنه فى موسوعة « دربلو » الشرقية أول ترجمة غربية[١] . وهى ترجمة موجزة فياضة بالخطأ . ومضى بعد ذلك أكثر من قرن قبل أن يعنى التفكير الغربى بشأنه ، حتى نشر المستشرق الفرنسى سلفستر دى ساسى سنة ١٨٠٦ ترجمة ابن خلدون مع ترجمة فرنسية لفقرات من المقـــدمة فى قاموســـه Chrestomathie Arabe . ثم نشر بعد ذلك بأعوام ترجمة لمقتطفات أخرى من المقدمة . وعاد فنشر سنة ١٨١٦ ترجمة أوفى لابن خلدون فى قاموس التراجم العام Biographie Universelle مع وصـــف مسهب لمقـــدمة ابن خلدون . وفى نفس الوقت نشر المستشرق النمسوى فون هامار رسالة بالألمانية عن « اضمحلال الإسلام بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة » [٢] ، تعرض فيها لبعض نظريات ابن خلدون فى انحلال الدول ، ووصفه بأنه « مونتسكيو العرب » . و نشر بعد ذلك ترجمة ألمانية لبعض مقتطفات من المقدمة ، ثم نشر وصفاً لبعض أجزاء المقدمة فى « المجلة الأسيوية » [٣] . واستمر دى ساسى

---

(١) D'Herbélot : Bibliothèque Orientale.

(٢) Von Hammer-Purgstall : Ueber den Verfall des Islams nach den ersten drey Jahrhunderten der Hidschrat (1812).

(٣) Journal Asiatique (1822).

وبعض زملائه المستشرقين على نشر مقتطفات مترجمة من مقدمة ابن خلدون أو تاريخه ، والبحث الغربى فيما بين ذلك يزداد اهتماماً بابن خلدون وتراثه ، وإعجاباً بقوة تفكيره وطرافته ، حتى نشر كاترمير مقدمة ابن خلدون كاملة بنصها العربى سنة ١٨٥٨ ، ونشر دى سلان بعد ذلك ببضعة أعوام ترجمة فرنسية كاملة للمقدمة ، وعندئذ ظهر ابن خلدون للتفكير الغربى فى روعة ابتكاره ، وظهرت قيمة ذلك التراث الباهر الذى غمره النسيان مدى عصور .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر يعنى النقد الغربى بابن خلدون ونظرياته الإجتماعية عناية خاصة . كان وقوف الغرب على تراث ابن خلدون اكتشافاً علمياً حقاً ، وكان أعجب ما فى هذا الاكتشاف أن يظفر الغرب فى تراث المفكر المسلم ، بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التى لم يطرقها البحث الغربى إلا بعد ابن خلدون بعصور طويلة . أجل اكتشف النقد الغربى لدهشته وإعجابه فى تراث ابن خلدون كثيراً مما ردده ميكافيللى بعده بقرن ، وما ردده فيكو ومونتسكيو ، وآدم سميث ، وأوجست كونت[١] بعده بقرون . وكان المعتقد أن البحث الغربى أول من اهتدى الى فلسفة التاريخ ، ومبادىء الإجتماع ، وأصول الاقتصاد

(١) مكيافيللى مؤرخ وسياسى إيطالى (١٤٦٩ — ١٥٢٧) . وفيكو مؤرخ وفيلسوف إيطالى (١٦٦٨ — ١٧٤٤) ومونتسكيو مشترع وفيلسوف واجتماعى فرنسى (١٦٦٩ — ١٧٥٥) وآدم سميث اقتصادى انجليزى (١٧٢٣ — ١٧٩٠) وأوجست كونت فيلسوف فرنسى وهو واضع أصول الفلسفة الوضعية (١٧٩٨ — ١٨٥٧) .

السياسى ، فاذا بابن خلدون يسبقه بعصور ويغزو فى مقدمته هذه الميادين ، ويعرض كثيراً من نواحيها ونظرياتها بقوة وبراعة . ومن ثم فانا نرى النقد الغربى ، بعد أن اكتشفه ودرسه ، يرتفع بتراثه الى أسمى مكانة ، وينظمه فى سلك الفلاسفة ومؤرخى الحضارة وعلماء الاجتماع والاقتصاد السياسى ، بل ويعترف له بفضل السبق فى هذه الميادين .

— ١ —

كانت الناحية التاريخية الفلسفية فى تفكير ابن خلدون أول ما عنى النقد الغربى بدرسه ، ولكن الناحية الاجتماعية ما لبثت أن لفتت أنظار طائفة من علماء الاجتماع ، وأخذت تتفوق على ما عداها من نواحى تفكيره . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر نرى نظريات ابن خلدون الاجتماعية تشغل فراغاً كبيراً فى النقد المعاصر ، ويتناولها حتى يومنا طائفة من النقدة الاجتماعيين بالدرس والتحليل المقارن .

وكان فى مقدمة من درس تراث ابن خلدون من الناحيـــة التاريخية الفلسفية المستشرق النمسوى الكبير البارون فون كريمر ، فكتب عنه بالألمانية رسالته الشهيرة « ابن خلدون وتاريخه لحضارة الدول الإسلامية »(١) وقدمها لأكاديمية العلوم بفينا سنة ١٨٧٩ . ويعتبر فون كريمر ابن خلدون مؤرخاً للحضارة Kulturhistoriker يؤرخ حضارة الشعوب الإسلامية ، لأنه من بين المؤرخين المسلمين

(١) Von Kremer: Ibn Chaldûn und seine Kultur- Geschichte der Islamischen Reiche.

أول من خصص فصولا ضافية للتحدث عن النظم السياسية وأنواع الحكم ، والخطط العامة كالقضاء والشرطة والإدارة وتطورها فى الدول الإسـلامية ، وعن النظم الاقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب ، وعن المهن والحرف والصنائع ووجوه الكسب المعاش ؛ ثم عن العلوم والفنون والآداب وأصنافها وأحوالها وتطورها فى العالم الإسلامى ، وهو اعتبار صادق من بعض الوجوه فقط لأن ابن خلدون لا يعالج هذه المسائل مستقلة أو لذاتها ، وإنما يعالجها كصور فقط من هذا العمران الذى هو موضوع بحثه ودرسه . ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران .

ولم يلق هذا الوصف الذى أسبغه فون كريمر على ابن خلدون تأييداً كبيراً من النقدة . ويقول الأستاذ شميت وهو من أحدث من درس ابن خلدون ونقده ، فى التعليق على هذا الرأى ما يأتى :

« إذا وجب مع بعض التحفظ أن نعتبر ابن خلدون مؤرخاً للحضارة ، فيحسن أن نتدبر ما إذا لم يكن قصد ابن خلدون الحقيقى سواء فى هذا القسم من مؤلفه أو فى تاريخه السياسى ، هو أن يقدم لنا أمثلة إيضاحية ومجموعة تبين لنا ما يعتبره موضوع التاريخ وجوهره ، لا أن يقدم لنا تطبيقاً كاملا للقواعد التى قررها . ذلك أنه فى الفصول الأولى من مقدمته يعالج المسائل التى يختلج بهـا ذهنه ، بمنتهى الإفاضة ، كأصول النقد التاريخى والقواعد الأساسية التى يجب أن يستند اليها البحث التاريخى ؛ ويعالج بالأخص فكرته فى فهم التاريخ ومداها وعواملها ونتائجها المنظمة أو قوانينها . ولقد كانت هذه الفكرة العظيمـة المستنيرة فى فهم التاريخ بأنه سجل

لتطور الإنسان الاجتماعى ، مترتباً على العوامل الطبيعية وناشئاً عن تأثير الوسط وتفاعل الفرد والجماعة ، خليقة بأن تجعل كتابه « مفتتح عهد جديد » لو لم تكن الحضارة التى وصفها صائرة الى الانحلال العاجل ، واللغة التى كتب بها مجهولة من الأمم الفتية التى قدر لها أن تمضى بالمهمة ، بحيث غدا استمرار التقدم العلمى مستحيلا ، واضطر بناة الحضارة الجدد أن يشقوا طريقهم ببطء ، دون المعاونة التى كان بوسعه أن يقدمها ، الى بعض المراتب السامية التى تبوأها هو من قبل »(١) .

ويعتبر دى بوير (الهولندى) ابن خلدون فيلسوفاً ، ويضعه فى ثبت الفلاسفة المسلمين الى جانب ابن سينا والغزالى وابن رشد وابن طفيل ، وينوه بقيمة المنطق فى صوغ نظرياته ؛ ويصفه بأنه مفكر متزن ؛ فهو ينكر ثمرة الكيمياء والعرافة بحق ، وكثيراً ما يعارض مبادىء الفلسفة العقلية ، بمبادىء الإسلام البسيطة سواء عن اعتقاد شخصى أو لاعتبار سياسى . بيد أن الدين لم يؤثر فى آرائه العلمية بقدر ما أثرت الأرسطوطالية الأفلاطونية . وقد أثرت فى تكوين ذهنيته جمهورية أفلاطون وفلسفة فيثاغورس الأفلاطونية ؛ وكذلك المؤلفات التاريخية لأسلافه المشارقة ولا سيما المسعودى ، أيما تأثير . وقد حاول ابن خلدون أن يؤسس نظاماً فلسفياً جديداً لم يجل بذهن أرسطو ، وأن يجعل من التاريخ نظاماً فلسفياً ؛ وهو يقول لنا إن هذا النظام إنما هو الحياة الاجتماعية ، ومادة المجتمع

---

(١) N.Schmidt : Ibn Khaldun, Historian, Sociologist and Philosopher (New-York 1930) p.p. 15-16.

كلها وثقافته الفكرية . ومهمة التاريخ هى أن يبين كيف يعمل الناس وكيف يحصلون أقواتهم ، ولماذا يقاتلون بعضهم بعضاً ، وكيف يجتمعون فى جماعات كبيرة فى ظل بعض الزعماء ، وكيف يلهمون أخيراً فى ظل حياة الحضر ، رغبة العناية بالفنون والعلوم الرفيعة ، وكيف تتقدم الحضارة من البداية الخشنة الى الترف الناعم وتزدهر ، ثم تضمحل وتموت . ثم يقول دى بوير إن ابن خلدون هو بلا ريب أول من حاول أن يشرح بإفاضة تطور المجتمع وتقدمه لأسباب وعلل معينة ، وأن يعرض ظروف الجنس والإقليم ووسائل الإنتاج وما اليها ، وأثرها فى تكوين ذهن الإنسان وعاطفته وفى تكوين المجتمع . وهو يرى فى سير الحضارة تناسقاً داخلياً منظماً . ويختتم دى بوير حديثه عن ابن خلدون بما يأتى : « لقد سار أمل ابن خلدون فى أن يخلفه من يتم بحثه فى سبيل التحقيق ، ولكن فى غير الإسلام ؛ فكما أنه كان دون سلف فكذلك بقى دون خلف »[1] .

— ٢ —

بيد أن النقد الغربى كان أكثر اهتماماً بفلسفة ابن خلدون الإجتماعية . وقد لقى ابن خلدون من هذه الناحية ذروة الإعجاب والتقدير ، وعنى كثير من علماء الاجتماع المعاصرين بتحليل نظرياته الإجتماعية ومقارنتها بنظريات أقطاب الاجتماع المحدثين .

ومن هؤلاء النقدة العلامة الاجتماعى لدفيج جمبلوفتش ؛ فهو

---

(١) T.J. de Boer : Geschichte der Philosophie im Islam (1901). pp. 177-184.

يخصص لابن خلدون فى مباحثه الإجتماعية فصلا كبيراً ، ويصفه بأنه اجتماعى أو من علماء الاجتماع ، ويتناول طائفة من آرائه الإجتماعية بالتحليل والمقارنة ، ويبين أنه قد سبق فى كثير من هذه الآراء أقطاب الاجتماع المحدثين . فهو مثلا قد اهتدى الى نظرية الأجيال الثلاثة الخاصة بنهوض الأسر وانحلالها قبل أن يعرضها أوتوكار لورنتس فى أواخر القرن التاسع عشر . ويقول جمبلوفتش إن ابن خلدون يرتفع الى ذروة البحث الاجتماعى حينما يعرض ملاحظاته عن تفاعل الجماعات الاجتماعية ، وكيف أن هذه الجماعات نفسها إنما هى ثمرة الوسط . وآراؤه فى هذا المقام عن الأجناس الغالبة فى منتهى الأهمية . وفى أقواله عن الوسط ومؤثراته ما يدل على أنه عرف « قانون التشبه بالوسط » قبل أن يعرفه داروين[١] بخمسة قرون ؛ وفيما يقوله عن تشبيه الإنسان بالحيوان فى الخضوع للقوانين الاجتماعية العامة ، مايدل على أنه عرف مبدأ « وحدة المادة » قبل أن يعرفه هيكيل[٢] . ومن المدهش أن نرى كم تتفق الاجراءات التى ينصح ابن خلدون باتخاذها للفاتحين الظافرين لكى يؤيدوا سلطانهم ، مع النظم الحربية التى أثبت البحث التاريخى الحديث أن مؤسسى الدول الأوربية فى العصور

---

(١) داروين Darwin علامة طبيعى انجليزى اشتهر بمباحثه عن أصول الانسان والأنواع ، ومؤثرات الوسط (١٨٠٩ — ١٨٨٢) .

(٢) إرنست هيكيل علامة بيولوجى وطبيعى ألمانى اشتهر مثل داروين بمباحثه عن أصول الأنواع وله فيها نظريات جديدة (١٨٣٤ — ١٩١٩) .

الوسطى قد اتخذوها ، بل إن فضل السبق يرجع بحق الى العلامة الاجتماعى العربى (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه النصائح التى أسداها مكياڤيللى بعد ذلك بقرن الى الحكام فى كتابه « الأمير » . وحتى فى هذه الطريقة الجافة لبحث المسائل وفى صبغتها الوقعية الخشنة ، كان من المستطاع أن يكون ابن خلدون نموذجاً للإيطالى البارع الذى لم يعرفه بلاريب . هذا وقد استطاع ابن خلدون أن يقرر منذ خمسة قرون أصل السلطتين الروحية والزمنية ، كما يقررها أساتذة القانون السياسى والقانون الكنسى .

وأخيراً يقول جمبلوڤتش : « لقد أردنا أن ندلل على أنه قبل أوجست كونت ، بل قبل ڤيكو الذى أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعى أوربى ، جاء مسلم تقى فدرس الظواهر الإجتماعية بعقل متزن ، وأتى فى هذا الموضوع بآراء عميقة ، وما كتبه هو ما نسميه اليوم : علم الإجتماع »(١) .

وفى نفس الوقت الذى أدلى فيه جمبلوڤتش بهذه الآراء تناول تفكير ابن خلدون باحث اجتماعى ايطالى هو فرّيرو ، فأيد وصف جمبلوڤتش لابن خلدون بأنه « اجتماعى » ونوه بطرافة ابن خلدون وسبقه فى هذا الميدان(٢) . ويوافقهما فى ذلك الكاتب الاجتماعى الروسى ليفين فيعتبر ابن خلدون فيلسوفاً « اجتماعياً » .

ودرس مسيو مونييه استاذنا السابق بكلية الحقوق ، ابن خلدن

---

(١) L. Gumplovicz : Un Sociologiste arabe au XIV siècle (dans Aperçus Sociologiques) pp. 201-226.

(٢) A. Ferreiro : Un Sociologo arabo del secolo XIV (La Riforma Sociale) 1897.

من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية فى بحثين قويين ، يتناول فى أولهما آراء ابن خلدون الاقتصادية[١] وفى الثانى آراءه الاجتماعية ، ويعتبره فيلسوفاً واقتصادياً واجتماعياً معاً . ويصف مقدمته وتفكيره بما يأتى : « انها مزيج عظيم من القوانين الكونية ، وموسوعة لعلوم العصر ؛ وتحتوى على أجزاء متفرقة لبحث كامل فى علم الاجتماع . وطريقتها بالأخص بديعة ، تدلل على ذهن علمى حق . وإذا كانت آراء ابن خلدون لا تعبر عن مثل وضعى أعلى ، فهى مع ذلك تقوم على الملاحظة التحليلية للحوادث ، و هى مرآة الواقع . وليست فلسفته سوى شرح وتعليل لتاريخه ، وشروحه تشهد بذهنية وضعية كان فيلسوفنا يسبق بها عصره » . ثم يحلل مسيو مونييه نظريات ابن خلدون الإجتماعية ويقسمها الى قسمين هما : القوانين العامة للحياة الإجتماعية ، وقوانين التطور الإجتماعية ؛ ويصفها بقوله : « وإذاً فإن فلسفة ابن خلدون الإجتماعية يغشاها على مايظهر استنتاج بالغ التشاؤم . فالمجتمع ليس إلا لحظة فى مجرى الأشياء الكونى ، وهو يفنى كما يفنى كل شىء . والحياة كالرّوى وكل تغيير يقتضى عكسه ، وكل ارتفاع يعقبه سقوط ... ولكن تشاؤم ابن خلدون تشاؤم مستسلم غير مكترث ؛ فهو لا يحكم وإنما يشاهد . وهو بذلك يدلل على ذهنية علمية حقة ، وبذا يجب أن يفسح له مكان فى تاريخ الإجتماع الوضعى »[٢] .

---

(١) René Maunier : Les idées économiques d'un philosophe arabe (Revue d'histoire économique et sociale, 1912).

(٢) Maunier : Les idées sociologiques d'un philosophe arabe au XIV siècle (l'Egypte contemporaine 1917, p. 31).

وينوه معظم نقدة ابن خلدون بهذا التشاؤم الذى يطبع فلسفته. ويقول لنا فون كريمر إن ابن خلدون يذهب فى تشاؤمه الى حدود بعيدة ، ويقارنه فى ذلك بأبى العلاء المعرى . ويعتقد أن مصدر هذه العاطفة هو انحطاط الدول والحضاة الإسلامية فى العصر الذى كتب فيه ابن خلدون . ولكن فريرو يرجعها الى ظروف الحياة السياسية العاصفة التى تقلب فيها ابن خلدون ،وما بثت الى نفسه من مرارة وخيبة أمل . على أن كثيراً من الناحية الوقعية لفلسفة ابن خلدون يرجع الى هـــذه العاطفة ؛ ولم يكن تشاؤمه نزعة شخصية كامنة فى أخلاقه : ولكنه صفة لتفكيره فقط ، ونتيجة للبحث والدرس . أما ابن خلدون نفسه ، فكان كما تدل حوادث حياته أكثر ميلا الى الثقة والابتهاج والتفاؤل .

ويدرس الكاتب الألمانى فون ڤيسندنك نظريات ابن خلدون فى نشوء الدول وانحلالها ، ويرى فيه ذهناً وافر الابتكار ، ومثلا أعلى فى التفكير العربى ، وآخر نجم سطع فى أفق التفكير الإسلامى الحر . ويعتبره مثل فون كريمر مؤرخاً للحضارة Kulturhistoriker ؛ ويرى فيه بحق إماماً لمدرستى مكياڤيللى وڤيكو ؛ ويحاول أن يطبق نظرياته فى سقوط الدول والأسر على الامبراطورية الألمانية والدول الأوربية فيقول : « وقد يلوح للألمانى فى الوقت الحاضر أن هذه الآراء الفياضة بالتشاؤم ليست من ابتكار مفكر أجنبى ، فإن الامبراطورية الألمانية لم تعمر طويلا ثم ذوى غصنها غضاً الى عالم الفناء بسرعة خارقة ؛ فهل يجب أن نبحث لتلك المأساة عن أسباب غير تلك التى أوردها الكاتب العربى عن سقوط المرابطين والموحدين؟

ان نظريات ابن خلدون تقدم الى المتأمل فرصة صادقة ؛ يقف مؤرخ الحضارة المسلم الكبير وحيداً فى المشرق ، لم يعقبه خلف ولم ينسج على منواله ناسج ؛ ويطبق ما كان يشعر به أو يدعو إليه على أوربا فى القرن التاسع عشر أصح تطبيق وأتمه . وتدوى ميول المفكر والسياسى الإفريقى فى معترك الحوادث مهما كانت وجهتها ، دوياً يتردد صداه فى عالم أفكار عصرنا »(١) .

— ٣ —

درس الأستاذ استفانو كلوزيو ابن خلدون من ناحية أخرى هى النـــاحية الاقتصادية . ويرى كلوزيو بادىء بدء « ان ابن خلدون من حيث الجنس الذى انحدر منه ، والبلد الذى ولد فيه ، والحضارة التى ينتمى اليها ؛ يمكن أن يوضع فى صف عظماء الرجال الذى يتبوأون فى التاريخ أسمى مكانة » . وقد اكتشف ابن خلدون آفاقاً جديدة فى ميدان العـــلوم الإجتماعية . ولكنه لا يجـــارى مكياڤيللى كمؤرخ ، لأنه لم يعرف أو لم يرد أن يطبق المبادىء التى عرضها فى مقدمته ليشرح أسباب الحوادث التى يقصها فى تاريخه . ومع ذلك فقد سبق مكياڤيللى ومونتسكيو وڤيكو ، الى وضع أصول علم جديد هو الدرس النقدى للتاريخ . وتلك حقيقة نوه بها أمارى المستشرق والمؤرخ الإيطالى الكبير قبل كلوزيو ، فوصف ابن خلدون بأنه أول كاتب فى العالم عالج موضوع « فلسفة التاريخ » . ثم يحلل

(١) Von Wesendonk : Ibn Khaldun, Ein arabischer Kulturhistoriker des XIV Jahrhunderts (Deutsche Rundschau, Januar 1923).

كلوزيو نظرية ابن خلدون فى « الجبر الاجتماعى » ويرى أنهـا موجودة فى تلك العبارة التى يستهل بها ابن خلدون حديثه عن أجيال البدو والحضر وهى : « ان اختلاف الأجيال فى أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش »[1] .

على أن كلوزيو ينـوه بالأخص بنظريات ابن خلدون الاقتصادية ، فيقول لنـا « ان المؤرخ البربرى العظيم اسـتطاع فى العصور الوسطى أن يكتشف مبادىء العدالة الإجتماعية والاقتصاد السياسى قبل كونسيديران وماركس وباكونين »[2] ثم يحلل آراء ابن خلدون عن عمل الدولة من الناحية الاقتصادية وآثاره السيئة ، وعن القوى السياسية والطوائف الإجتماعية ، وعن طرق الملك وأنواع الملكية ، وعن مهمة العمل الاجتماعية ، وتقسيم العمل الى حر ومأجور ، وكون العمل الحر مصدراً للرزق (المعاش) ثم عن قانون العرض والطلب . ويرى كلوزيو فى ذلك كله أن ابن خلدون كان اقتصادياً مبتكراً يعرف مبادىء الاقتصاد السياسى ويطبقها بذكاء وبراعة قبل أن يعرفها البحث الغربى بعصور طويلة. ويختتم بحثه بما يأتى : « إذا كانت نظريات ابن خلدون عن حياة المجتمع المعقدة تضعه فى مقدمة فلاسفة التاريخ ، فان فهمه للدور

---

(١) المقدمة ، ص ١٠١ .

(٢) كونسيديران اشتراكى فرنسى له عدة مؤلفات فى الاشتراكية (١٨٠٨ — ١٨٩٣) . وكارل ماركس اقتصادى واشتراكى المانى كبير ومؤسس الاشتراكية المتطرفة ، ومؤلف أعظم كتاب فى الاشتراكية «رأس المال» ، (١٨١٨ — ١٨٨٣) . وباكونين اجتماعى واقتصادى روسى ومؤسس مبدأ اللاحكومية (١٨١٤ — ١٨٧٦) .

الذى يؤديه العمل والملكية والأجور يضعه فى مقدمة علماء الاقتصاد المحدثين »[1] .

— ٤ —

ومن أحدث البحوث النقدية فى دراسة ابن خلدون رسالة للأستاذ ناتانيل شميت الأستاذ بجامعة كورنل بأمريكا ؛ درس فيها ابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف واجتماعى[2] . ويرى الأستاذ شميت أن ابن خلدون كمؤرخ يمكن أن يوضع فى صف مؤرخين عالميين مثل ديودور الصقلى ، ونقولاوس الدمشقى أو تروجوس بومبيوس ممن كتبوا فى القرن الأول الميلادى ، أو مؤلفين من كتاب القرن الثامن عشر مثـــل جاتيرر وشلِـتسر ، هذا مع كونه يتفوق عليهم سواء فى الانتفاع بالمصادر القديمة أو فى الرواية الأصلية ؛ ولو أن ابن خلدون لم يخلف لنا سوى تاريخه السياسى ، لكان أثراً ينبىء عن همة لا تنفد ، وغزارة فى المصادر ، وحكم سديد ، ولكان بالنسبة لبعض العصور مصدراً نفيساً للرجوع ؛ بل لكان فى عدوله عن طريقة الحوليات ما يرفعه بكثير عن مستوى رجال مثل البخارى والمسعودى والطبرى وابن الأثير . على أن حق ابن خلدون فى الشهرة

---

(١) S. Colosio : Contribution à l'étude d'Ibn Khaldoun (Revue du Monde musulman : XXVI - 1914).

وقد وضع الدكتور محمد على نشأت رسالة قيمة فى نظريات ابن خلدون الاقتصادية عنوانها «رائد الاقتصاد ابن خلدون» (القاهرة سنة ١٩٤٤) .

(٢) N. Schmidt : Ibn Khaldun ; Historian, Sociologist and Philosopher.

الخالدة لا يرجع الى تاريخه بل يرجع الى ذلك الأثر المدهش الذى كتبه مقدمة لتاريخه ؛ فهنا تبدو عبقريته فى روعة بهائها ، وهنا ينثر بيدين نديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشرى .

وأما من حيث فلسفة التاريخ فيرى الأستاذ شميت أن ابن خلدون هو الذى اكتشف ميدان التاريخ الحقيق وطبيعته ؛ وهو بلا ريب صادق حين يقول إن أحداً من المفكرين المسلمين قبله لم يطرق موضوعه ، وإذا كانت معرفتنا بعلوم القدماء أعظم وأغزر ، فإنا مع ذلك نستطيع اليوم أن نقول إن ابن خلدون كان بحق أول كاتب استطاع أن يعرف موضوع التاريخ بهذه الصورة ، وأن ينظر الى التاريخ كعلم خاص يبحث فى الحقائق التى تقع فى دائرته. بل لم يقل أحد غير ابن خلدون إن التاريخ علم خاص موضوعه بحث جميع الظواهر الاجتماعية فى حياة الإنسان . فإذا كان يجدر بنا أن نتوسع فى فهم التاريخ الى هذا الحد ، وإذا كان التاريخ علماً ، فان التونسى العظيم الذى ابتكر هذا الرأى ودافع عنه ليس له سلف فيما يظهر ، ومن حقه أن يعتبر أنه المكتشف . وهنا بلا ريب أروع ابتكاراته وأكثرها طرافة ، وإن كان ذهنه النافذ قد شق طرقاً جديدة فى نواح كثيرة . وقد لاحظ ابن خلدون فى دراسة الدول وقيامها وسقوطها أن أسباب هذه التطورات لا ترجع فقط الى البواعث والأطماع ، والى الأغراض والغايات ، والى قوة الإرادة ، وقوة الذهن لدى الأفراد ؛ ولاحظ أن تأثير هذه العوامل لا يخضع فقط لخواص الجماعات التى تنتمى اليها ، ولكنها تخضع أيضاً للظروف الإجتماعية العامة . وقد حمله ذلك على أن يبحث

العوامل التى تؤثر فى هذه الظروف الإجتماعية وتكيفها ، وانتهى الى أنها ترجع الى خواص قومية وجنسية . ولكنه لاحظ أيضاً أن هذه الخواص نفسها ترجع الى مؤثرات الوسط الطبيعية كالإقليم ، والماء ، والأرض ، والموقع ، والغذاء . وإذاً فمن الضرورى لكى نفهم التطور السياسى ، أن ندرس كل مظاهر الحياة الإجتماعية ؛ ولكى نفهم هذه يجب أن نحسب حساباً للعوامل الطبيعية ، ومن ثم كان اتساع نطاق التاريخ ، واتساع مهمة المؤرخ ، إذ يغدو التاريخ علم المجتمع الإنسانى ، وإذا فهو علم الإجتماع . ثم يقول الأستاذ شميت إن ابن خلدون رغم طابعه الإسلامى إنما هو فيلسوف مثل أوجست كونت ، وتوماس بَكِل وهربرت سبنسر . وفلسفته التاريخية ليست كفلسفة هجل[1] تحليلا للقضاء والقدر . وإذا كان يذكر خلال بحثه كثيراً من آيات القرآن ، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه فى بحثه متفق مع نصوص القرآن .

وأما عن الناحية الاجتماعية ، فان الأستاذ شميت يرى مع معظم النقدة أن ابن خلدون هو مؤسس علم الإجتماع ، ويرى بالأخص مع جمبلوفتش أن الإجتماع وجد قبل أوجست كونت

---

(١) توماس بكل كاتب ومؤرخ اجتماعى انجليزى ، وله مؤلف شهير فى تاريخ الحضارة الانجليزية (١٨٢١ — ١٨٦٢) وسبنسر فيلسوف انكليزى ومؤسس فلسفة التطور (١٨٢٠ — ١٩٠٣) . وهجل فيلسوف المانى كبير ، درس فلسفة الدين والروحيات والإلهيات (١٧٧٠ — ١٨٣١) .

بعصور طويلة ، وأن ابن خلدون ذهب فى تفكيره الى حدود لم يذهب اليها كونت ، وأنه فيما عالج من خواص العادة والإقليم ، والأرض ، والغذاء ، قد سبق مونتسكيو وبكل وسبنسر وغيرهم .

وينقل الأستاذ شميت الينا هذه الكلمة عن العلامة الإسبانى ألتاميرا : «كفى أنه فى القرن الرابع عشر ، حينما كانت دراسة التاريخ الأوربية فى منتهى النقص ومنتهى البعد عن آراء كالتى يعرضها ابن خلدون ويدافع عنها ، قد كُتب كتاب كالمقدمة ، درست فيه وعرضت كل المسائل ، التى غدت فيما بعد ، أهم مهام المؤرخين المحدثين »(١) .

ويقول ألتاميرا أيضاً فى كتابه « تاريخ اسبانيا والحضارة الاسبانية » عند ذكر ابن خلدون وتاريخه : « وقد اشتمل تاريخه على مقدمة هى فى الحقيقة مؤلف فى الإجتماع والفلسفة التاريخية لم يفقه حتى أيامنا فى الأهمية أى مؤلف آخر »(٢) .

* * *

ونكتفى بما قدمنا من آراء النقد الغربى فى تراث ابن خلدون وتفكيره ؛ ومما تقدم نرى أن النقد الغربى يرتفع بتراث ابن خلدون الى أسمى مكانة من التقدير والإعجاب ، ويضع تفكيره بين أرفع وأنفس ثمرات التفكير البشرى .

---

(١) راجع رسالة الأستاذ شميت المشار إليها ص١٧ و١٩ و٢٢ و٢٤ و٢٦ و٢٧ و٢٩ .

(٢) R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización Espanola (T.II. p. 358).

الفصل الخامس

ابن خلدون ومكيافيللى

أوجه الشبه بين مكيافيللى وابن خلدون . فلسفة مكيافيللى الاجتماعية كما يعرضها فى كتاب «الأمير» . صلة مباحثه بموضوع السياسة الملكية الذى عالجه العرب . الناحية العملية الجافة فى فلسفته . نماذج من آرائه فى خلال الأمير الأمثل . عنصر القسوة والعنف فى الفلسفة المكيافيللية . التقاء ابن خلدون ومكيافيللى فى مواطن كثيرة . ابن خلدون أستاذ المدرسة المكيافيللية . هل تأثر مكيافيللى بتفكير ابن خلدون أو غيره من المفكرين المسلمين . هل يكون الحسن بن الوزان صلة هذا التأثير . بعد هذا الفرض . الفكران كلاهما مبتدع مبتكر .

— ١ —

بعد وفاة ابن خلدون بأكثر من قرن؛ وضع نيكولو مكياڤيللى المؤرخ والسياسى الإيطالى(١) كتاباً يتبوأ فى التفكير الغربى مكانة كتلك التى تتبوأها مقدمة ابن خلدون فى التفكير الإسلامى . ذلك

---

(١) نيكولو مكياڤيللى (Nicolo Machiavelli) كاتب ومؤرخ وسياسى إيطالى كبير . ولد سنة ١٤٦٩ بمدينة فيرنتزا (فلورنس) وتوفى بها سنة ١٥٢٧ ، واشتغل حيناً سكرتيرا للسياسة الخارجية فى حكومة فيرنتزا وكلف بعدة مهام سياسية فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا . ولما عاد آل مديتشى لحكم فرنتزا سنة ١٥١٢ ، قبض عليه بتهمة التآمر وعذب ثم أفرج عنه بوساطة البابا ليون العاشر . وعندئذ اعتزل الحياة العامة وكتب عدة مؤلفات شهيرة منها كتابه «الأمير» وتاريخ فيرنتزا ومقالات عن ليڤى المؤرخ الرومانى ؛ وعدة رسائل سياسية وقطع مسرحية .

هو كتاب « الأمير » (Il principe) ، وهو كأثر ابن خلدون قطعة بديعة من التفكير السياسى والاجتماعى ، تمتاز بكثير من القوة والطرافة والابتكار الفائق . وإذا لم يك بين الأثرين كثير من أوجه الشبه المادى ، فان بينهما كثيراً من أوجه الشبه المعنوى ، وبين الذهنين بالأخص مشابهة قوية من حيث الظروف والبيئة التى تكون كل فيها ، ومن حيث فهمه للتاريخ والظواهر الاجتماعية ، ومن حيث قوة العرض والاستدلال بشواهد التاريخ .

ونستطيع أن نرجع كثيراً من أسباب هـــذه المشابهة بين المفكرين العظيمين الى تماثل عجيب فى العصر والظروف السياسية والاجتماعية التى عاش كل منهما فيها . فقد كانت الإمارات والجمهوريات الإيطالية التى عاش مكياڤيللى فى ظلها تعرض فى إيطاليا نفس الصور والأوضاع السياسية التى تعرضها الممالك المغربية أيام ابن خلدون ، من حيث اضطرام المنافسات والخصومات فيما بينها ، وطموح كل منها الى افتتاح الأخرى ، وتقلب إماراتها ورياساتها بين عصبة من الزعماء والمتغلبين . وقد اتصل مكياڤيللى بهذه الدول ، وقضى عصراً فى خدمة احداها وهى وطنه فيرنتزا (فلورنس) وانتدب لمهام سياسية مختلفة ؛ واستطاع أن يدرس عن كثب كثيراً من الحوادث والتطورات السياسية التى تعاقبت فى عصره ، وأن يجعل من هذا الدرس مادة لتأملاته عن الدولة والأمير ، كما جعل ابن خلدون من الحوادث التى عاصرها واشترك فيها مادة لدرسه وتأملاته .

على أن المفكر المسلم أغزر مادة وأوسع آفاقاً من المفكر

الإيطالى . ذلك أن ابن خلدون يتخذ من المجتمع كله وما يعرض فيه من الظواهر مادة لدرسه ، ويحاول أن يفهم هذه الظواهر وأن يعللها على ضوء التاريخ ، وأن يرتب على سيرها وتفاعلها قوانين اجتماعية عامة . ولكن مكياڤيللى يدرس الدولة فقط ، أو يدرس أنواعاً معينة من الدول هى التى يعرضها التاريخ اليونانى والرومانى القديم ، وتاريخ ايطاليا فى عصره ؛ ويدرس شخصية الأمير أو المتغلب الذى يحكم الدولة ، وما يلحق بها من الخلال الحسنة أو السيئة ، وما يعرض لها من وسائل الحكم . وهذه الدراسة المحدودة المدى تكون جزءاً صغيراً فقط من دراسة ابن خلدون الشاسعة ، هو الفصل الثالث من الكتاب الأول من المقدمة ، وهو الذى يدرس فيه أحوال الدول العامة والملك والمراتب السلطانية . وحتى فى هذا المدى المحدود يتفوق ابن خلدون على مكياڤيللى تفوقاً عظيما ؛ ويبتدع هنا نظرية العصبية ، ونظرية أعمار الدول ، ويتناول خواص الدولة من الناحية الإجتماعية ؛ وإن كان مكياڤيللى من جهة أخرى يتفوق على ابن خلدون فى سلاسة المنطق ، ودقة العرض والتدليل ، ورواء الأسلوب .

كتب مكياڤيللى كتابه « الأمير » سنة **١٥١٣** وأهداه الى لورنزو دى مديتشى (الثانى) أمير فيرنتزا ، وهو يشير الى غرضه من وضع كتابه فى قوله للأمير فى خطاب الإهداء : « ومع أنى أعتبر هذا المؤلف غير خليق بمطالعة محياك ، فانى أعتمد جل الاعتماد على عطفك ورقتك فى قبوله ، فلست أستطيع فى إهدائك خيراً من أن أقدم اليك فرصة لتفهم فى أقصر الأوقات كل ما عرفته

خلال أعوام طويلة ، وفى غمار من المتاعب والأخطار » وفى قوله : « فتناول ياذا الفخامة هذه الهدية الصغيرة بنفس الروح الذى أرسلها به ؛ وإنك إذا قرأته بامعان وتأمل ، فسوف تعرف خالص رغبتى فى أن تظفر بهذه العظمة التى يمنى بها حسن الطالع وتمنى بها خلالك »[١] . وإذن فقد أراد مكياڤيللى أن يقدم بكتابه «الأمير» مرشداً لأمراء عصره يرشدهم الى أمثل طرق الحكم ، وأمثل الوسائل السيادة الشعوب التى يحكمونها . ومكياڤيللى يستمد آراءه ونظرياته من حوادث التاريخ القديم ، وبالأخص من حوادث عصره التى شهدها وخبرها ، ويرتب عليها أحكاماً وقواعد عامة كما يرتب ابن خلدون مثل هذه الأحكام والقواعد على دراسته للمجتمع ؛ ويبسط مكياڤيللى دراسته فى بحوث موجزة ، ويبدأ بالحديث عن أنواع الإمارات ، ووسائل اكتسابها ، وعن الوسائل التى تحكم بها المدن أو الإمارات التى كانت تعيش فى ظل قوانينها قبل أن تغلب ، وعن الإمارات التى تقوم بالفتح وكفايات الأمير الشخصية ، وعن تلك التى تغنم على يد آخرين أو بطريق الحظ ، أو تلك التى تغنم بالغدر والخيانة ، وعن الإمارات المدنية والدينية ، وعن أنواع الجيوش والجنود المرتزقة ، وما يجب أن يعرفه الأمير عن فن الحرب . ثم يتناول بعد ذلك شخصية الأمير ، وما يحمد فيه من الخلال وما يذم ، وعن الكرم والشح ، والرأفة والقسوة ، وعن الطريقة التى يجب أن يحفظ بها الأمراء وعودهم ، وعما يجب عليهم لتجنب

(١) كتاب الأمير The Prince الترجمة الانجليزية طبعة إفريمان ص ٢ و ٣ .

بغض الشعب واحتقاره ، وما يجب عليهم لاكتساب الشهرة والمجد ، وأخيراً يتحدث عن حُجاب الأمير (أمنائه) وعن وجوب تجنب الملق ؛ وعن الأسباب التي فقد بها أمراء ايطاليا دولهم ، وعما يمكن أن يؤديه حسن الطالع فى سير الشئون البشرية ، ثم يختتم بالحث على تحرير إيطاليا من نير الأجانب أو غزوات البرابرة كما يسميهم .

تلك هى المباحث التى جعلها مكيافيللى قوام فلسفته عن الدولة والأمير . ويبدو بالأخص مما كتبه عن « الأمير » أنه يعالج موضوعاً عالجه المفكرون المسلمون قبـــل ابن خلدون بعصور طويلة ، هو موضوع « السياسة الملكية » وهو موضوع ينتظم منذ القرن الثالث الهجرى فى التفكير الإسلامى الى بحث أو علم خاص ، هو علم السياسة على نحو ما بينا فى فصل سابق . وقد رأينا مما تقدم أن « السياسة » كانت تفهم عند العرب فى العصور الأولى بمعنى ضيق جداً هو شرح الخلال الحسنة التى يجب أن يتصف بهـــا الأمير ، والعيوب التى يجب أن يبرأ منها لكى يصلح لرآسة الدولة وتبوىء الملك ؛ ولكى يستطيع الحكم بأهلية وكفاية . ثم توسع المفكرون المسلمون فى فهم معنى « السياسة » وقسموها الى عدة أنواع ، وتناولوا « السياسة الملكية » من الناحية الفقهية وكذا من الناحية الإدارية ، وبحثوا مركز الأمير من الناحية الشرعية ، وتحدثوا عن الخطط السلطانية . وظاهر انّ ما يتناوله المفكر الإيطالى من خواص الأمير وخلاله وواجباته ، هو ضرب مما تناوله المفكرون المسلمون منذ أواخر القرن الثالث الهجرى . من ذلك ما كتبه ابن قتيبة فى كتاب « عيون الأخبار » والماوردى فى كتاب « الأحكام السلطانية »

والطرطوشى فى كتاب «سراج الملوك» والغزالى فى كتاب «التبر المسبوك» ثم ابن الطقطقى فى كتاب « الآداب السلطانية » . وهو موضوع تناوله ابن خلدون فيما تناول من أحوال الدول العامة والملك ، إذ يتحدث هنا عن حقيقة الملك وأصنافه ، وعن معنى الخلافة والإمامة وعن مختلف المذاهب والآراء فى حكم الإمامة ، ثم عن الخطط السلطانية[١] ، وحديثه فى ذلك يمتاز عن حديث أسلافه بما يتخلل بحثه وتدليله من الملاحظات والتأملات الاجتماعية التى لم يوفق اليها باحث قبله .

على أن مكياڤيللى يمتاز فى بحثه بروح عملية جافة . وبينما يتحدث المفكرون المسلمون عن الأمير أو الحاكم كما يجب أن يكون ، وعن خلاله المثلى كما يجب أن تكون ، إذا بالمفكر الإيطالى ينظر الى الأمير الأمثل نظرة عملية محضة . فيصفه كما هو فى الواقع ، ويتصور خلاله المثلى فيما هو حادث بالفعل ، ويرتب تدليله ونتائجه على ما أحرز الأمير وأحرزت خلاله من النجاح أو الفشل دون تأثر بما إذا كانت هذه الصور والخلال تتفق مع مبادىء الأخلاق المثلى كما فهمت خلال العصور . ومن هنا تستمد فلسفة مكياڤيللى لونها القاتم ، وتوصم آراؤه ونظرياته السياسية بتلك الصرامة والقسوة والخبث التى جعلتها حتى عصرنا مضرب الأمثال للسياسة الغادرة التى لا ضمير لها ولا وازع ، والتى جردت من كل نزاهة وعفة ، وتغاضت عن كل المثل الإنسانية والأخلاقية . والى القارىء

---

(١) راجع المقدمة ، ص ١٥٦ و ١٥٨ إلى نهاية الباب .

بعض نماذج من تلك الآراء التى طبعت فلسفة مكياڤيللى ، وأميره الأمثل ، بذلك الطابع الأسود :

١ — « ليس على الأمير أن يجزع لما يناله من لوم على تلك الرذائل التى لا يمكن دونها إنقاذ الدولة إلا بصعوبة ، ذلك انه إذا بحث كل شىء بعناية ، ألفينا أن شيئاً يبدو كالفضيلة ، إذا اتبع ، فانه يؤدى الى خرابه (أى الأمير) وألفينا شيئاً آخر يبدو كالرذيلة ، إذا اتبع فانه مع ذلك يؤدى الى سلامه ورخائه » .

٢ — « ليس أكثر تبديداً للمال من الجود والبذخ ، إذ سرعان ما تعجز عن المضى فيهما ، وتغدو إما فقيراً أو محتقراً ، أو تغدو إذا أردت أن تجتنب الفقر ، جشعاً مكروها . ويجب على الأمير أن يحرص قبل كل شىء على ألاّ يكون محتقراً أومكروها . وإذاً فخير أن يشتهر الأمير بالضعة التى تثير اللوم دون بغض ، من أن يرغم الإنسان من طريق البحث عن الشهرة بالجود ، على أن يوصم بالجشع الذى يثير اللوم والبغض » .

٣ — « كان شيزارى بورچيا يعتبر قاسياً ؛ ومع ذلك فان قسوته أرضت رومانيا (من الولايات البابوية) ووحّدتها وردت إليها السلام والولاء . ولو تأملت ذلك حق التأمل ، لرأيت أنه كان أكثر رحمة من الشعب الفيرنتسى الذى أراد أن يتجنب الشهرة بالقسوة ، فترك « پستويا » حتى خربت ؛ وإذاً فما دام الأمير قادراً على الاحتفاظ لشعبه بالوحدة والولاء ، فليس عليه أن يهتم بوصمة القسوة ، لأنه بذلك يكون أكثر رحمة من أولئك الذين يفرطون فى استعمال الرحمة ، فتثور القلاقل ، ويعقبها القتل والنهب» .

٤ — « وهنا يبدو سؤال : هل خير أن يُحب الإنسان من أن يُرهب أو يرهب من أن يحب ؟ ويمكن أن نجيب بأنه من المرغوب أن يكون الإنسان محبوباً مرهوباً ، ولكن ما دام اجتماعهما في شخص واحد غير ممكن ، فانه لخير وأكثر سلامة أن يُرهب الإنسان من أن يحب ، إذا وجب أن يتصف باحدى الصفتين » .

٥ — « لا يستطيع الأمير العاقل ، وليس عليه أن يحفظ العهد ، إذا كان مثل هذا الوفاء قد ينقلب ضده ، وإذا لم يبق للأسباب التي حملته على قطعه وجود » .

٦ — « وإذاً فليس من الضروري أن يتصف الأمير بالخلال الحسنة التي ذكرتها ، ولكن من الضروري أن يبدو كأنه يتصف بها ... ولا يستطيع الأمير ، ولا سيما الأمير الجديد أن يراعي كل الأمور التي يُقدر الناس من أجلها ؛ لأنه كثيراً مايرغم لكي يحفظ الدولة على أن يتصرف بغير ما يقضي به الإخلاص والصداقة والإنسانية والدين . وإذاً فمن الضروري أن يكون عقله متأهباً ليعمل طبقاً لتقلب الريح والحظ » .

٧ — وقال مشيراً الى سياسة ملك اسبانيا فرديناندالكاثوليكي ضد المسلمين عقب سقوط غرناطة : « إنه ينتحل الدين دائماً عذراً للقيام بأعمال عظيمة ؛ وقد ثابر بقسوة صالحة على إخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم ، وليس ثمة أبدع من هذا العمل وأندر منه »(١) .

(١) راجع الترجمة الانجليزية لكتاب الأمير The Prince — ص ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٧٨ (الطبعة المشار إليها) .

نستطيع من هذه النماذج الموجزة أن نفهم روح الفلسفة المكيافيللية فى تصوير الدولة والأمير . وهى فلسفة تقوم على الحقائق العملية ، وتحل هذه الحقائق رغم جفائها وروعتها المكان الأول فى بناء الدولة وفى سياسة الأمير . فالنفاق ، والشح والضعة ، والقسوة والإرهاب ، والغدر والنكث بالعهد ، وإهدار الإخلاص والصداقة والأمانة والدين ، وما إليها مما ينافى المثل الفاضلة ، وتأباه الأخلاق والإنسانية ، ليس مما تنكره الفلسفة المكيافيللية ، ولا مما يشين السياسة التى تقوم عليها ؛ ومن ثم كان الأمير والسياسى الأمثل فى نظر مكيافيللى طغاة لجأوا فى تأييد سلطانهم الى أروع الوسائل وأشنعها مثل البابا اسكندر السادس ، وابنه شيزارى بورچيا (دوق ڤالنتينو)[1] . ويتناول مكيافيللى طرفاً من حياة شيزارى بورچيا الذى عرفه واتصل به فى رسالة خاصة ، ويبدى إعجابه بتلك الخطط والوسائل الدموية التى ابتدعها ودبرها شيزارى للبطش بخصومه من الأمراء والقادة وقتلهم غدراً وغيلة . ومن ثم كان ذلك الطابع الأسود الذى ما يزال يدمغ « السياسة المكيافيللية » الى عصرنا . بيد أنه من الحق أن يقال إن المفكر الإيطالى يبدى فى صوغ فلسفته كثيراً من القوة والبراعة وبعد النظر ، وان هذه النظريات والمبادىء التى قد يحكم عليها من الوجهة النظرية الخالصة ،

---

(١) البابا اسكندر السادس أو اسكندر بورجيا تولى البابوية من سنة ١٤٩٢ الى وفاته سنة ١٥٠٣ ، وابنه شيزارى طاغية رومانيا و بعض الولايات الايطالية الأخرى ، ولد سنة ١٤٧٦ وتوفى سنة ١٥٠٧ بعد خطوب وحوادث عظيمة . واشتهر بالجرأة والغدر والقسوة الرائعة .

كانت وما زالت على كر العصور قوام السياسات الظافرة ، وما تزال الى يومنا عنوان السياسة العملية القوية .

— ٢ —

يتناول ابن خلدون كما قدمنا موضوع الدولة والملك بإفاضة ويبحثه من نواح أوسع وأبعد مدى ، ويتفوق على مكياڤيللى تفوقاً عظيماً فى معالجته من الناحية الاجتماعية . ويلتقى المفكران العظيمان فى مواطن كثيرة . مثال ذلك ما يقوله ابن خلدون فى فاتحة مقدمته عن قيمة التاريخ فى درس أحوال الأمم ، ثم أقواله عن آثار البطش والسياسة العاسفة فى نفوس الشعب ، وعن خلال الأمير وتطرفه أو توسطه فيها ، وعن حماية الدولة وأعطيات الجند ، وعن منافسة الأمير للرعية فى التجارة والكسب ، وعن تطلع الأمير الى أموال الناس ، وأثر ذلك فى حقد الشعب عليه ، وعن تطرق الخلل الى الدولة وامتداد يد الجند الى أموال الرعية ، وكذا ما يقوله عن كتبة (أمناء) السلطان[١] ، فهذه كلها نقط أو موضوعات يعالجها مكياڤيللى أو يقترب منها ، سواء فى كتابه الأمير أو فى كتاب آخر له هو تاريخ فيرنترا (Istorie Fiorentine) تتخلله تأملات فلسفية واجتماعية كثيرة[٢] . وقد لا يتفق مكياڤيللى مع ابن خلدون فى الرأى

(١) راجع المقدمة ، ص ٧ و١٥٧ و١٥٨ و٢٣٥ و٢٣٩ و٢٤٨ و٢٠٥ و١٤١ .

(٢) قارن ما كتبه مكيافيللى فى موضوعات مماثلة فى كتاب «الأمير» ص ٩٨ و١٠٨ و١١٨ و١٢٦ و١٣٥ و١٤٩ و١٨٣ وغيرها .

أو فى منحى التفكير دائماً ، ولكن كثيراً مما يقوله المفكر المسلم يتردد صداه فيما يقوله المفكر الإيطالى . فابن خلدون هو بحق أستاذ هذه الدراسة السياسية الاجتماعية التى تناول مكياڤيللى بعده بنحو قرن بعض نواحيها ، وهو بالأخص صاحب الفضل الأول فى فهم الظواهر الاجتماعية ، وفى فهم التاريخ وحوادثه وتعليلها ، وترتيب القوانين الاجتماعية عليها بهذا الأسلوب العلمى الفائق .

قال العلامة الاجتماعى جمبلوڤتش : « ان فضل السبق يرجع بحق الى العلامة الاجتماعى العربى (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه النصائح التى أسداها مكياڤيللى بعد ذلك الى الحكام فى كتابه « الأمير » . وحتى فى هـــذه الطريقة الجافة لبحث المسائل ، وفى صبغتها الوقعية الخشنة ، كان من المستطاع أن يكون ابن خلدون نموذجاً للإيطالى البارع الذى لم يعرفه بلا ريب »(١) . وقال استفانو كلوزيو مقارناً ابن خلدون بمكياڤيللى : « إذا كان الفلورنسى العظيم (مكياڤيللى) يعلمنا وسائل حكم الناس فانه يفعل ذلك كسياسى بعيد النظر ؛ ولكن العلامة التونسى (ابن خلدون) استطاع أن ينفذ الى الظواهر الاجتماعية كاقتصادى وفيلسوف راسخ ، مما يحمل بحق على أن نرى فى أثره من سمو النظر والنزعة النقدية ما لم يعرفه عصره »(٢) .

وقد نتساءل أخيراً ، هل وقف المفكر الإيطالى على شىء من تراث ابن خلدون واسترشد به ، أم وقف على شىء من آثار

---

(١) Gumplowicz : Aperçus sociologiques (p. 217).

(٢) Colosio : Introduction à l'étude d'Ibn Khaldoun (ibid).

المفكرين المسلمين فى موضوع السياسة الملكية وانتفع بها ؟ نعتقد مع العلامة جمبلوفتش أن مكياڤيللى لم يعرف حين كتابة « الأمير » شيئاً عن ابن خلدون أو عن آثاره ، ولم يعرف من جهة أخرى شيئاً من آثار المفكرين المسلمين فى موضوعه . صحيح أن بعض نواحى التفكير الإسلامى كانت معروفة فى إيطاليا قبل مكياڤيللى وفى عصره ؛ وكانت ثمة علائق فكرية قديمة بين مسلمى الأندلس وشمال إفريقية ، وبين المجتمعات الفكرية فى إيطاليا ، وكانت آثار إسلامية كثيرة قد ترجمت يومئذ الى اللاتينية . ولكنا لا نلمح فى أثر مكياڤيللى شيئاً يدل على أنه عرف ابن خلدون أو أى مفكر مسلم فى موضوعه . وإذا كانت ثمة وجوه شبه كثيرة بين المفكرين من حيث فهم التاريخ وتحليله ، واستقراء الحوادث ، وترتيب القوانين الاجتماعية ، فذلك يرجع كما قدمنا الى تقارب عظيم بين الذهنين ، والى تماثل فى العصر والظروف التى عاش فيها كل منهما ، والى تماثل فى الخبرة السياسية التى اكتسبها كل منهما ، بخوض حوادث عصره والاتصال بأمرائه وساسته . وربما يكون مكياڤيللى قد عرف شيئاً عن ابن خلدون ومقدمته فى أواخر حياته بعد أن وضع كتابه « الأمير » بنحو عشرة أعوام ، أعنى حوالى سنة ١٥٢٣ أو ١٥٢٤ ؛ ففى ذلك الحين كان الكاتب الأندلسى المتنصر ، الحسن بن محمد الوزان المعروف باسم ليون الإفريقى Léo Africanus يقيم فى رومة ويتجول فى شمال ايطاليا . وهو غرناطى ولد حوالى سنة ١٤٩٥ م ، ونشأ فى فاس وتولى لبلاطها بعض المهام السياسية ؛ ثم حج الى مكة سنة ١٥١٦ ، وعاد بطريق قسطنطينية ؛ وفى أثناء ركوبه البحر

الى المغرب أسرته عصابة من لصوص البحر الصقليين ، فأخذ الى رومة حيث نصره البابا باسم « يوهانس ليو » أو يوحنى الأسد . وفى رومة انقطع للبحث والتأليف ، ووضع قاموساً عربياً لاتينياً ، وألف كتابه الشهير فى وصف إفريقية ، وترجمه بعد ذلك الى الإيطالية . وكان فى مدينة بولونيا بشمال ايطاليا على مقربة من فيرنتزا سنة ١٥٢٤ حسبما يقرر فى خاتمة قاموسه اللاتينى الذى توجد منه نسخه بخطه فى مكتبة الإسكوريال[١]. ومن الممكن بل لعله من المرجح أن يكون ابن الوزان قد التقى بمكياڤيللى وعرفه فى رومة باعتباره من أعلام التفكير والكتابة يومئذ . وكان مكياڤيللى بالفعل فى رومة سنة ١٥٢٥ ، قصدها ليرفع كتابه « تاريخ فيرنتزا » الى صديقه وحاميه البابا كلنمضوس السابع (چوليانو دى مديتشى) . ولو صح هذا اللقاء والتعارف لكان ثمة مجال للقول بأن مكياڤيللى قد وقف على شىء من آثار التفكير الإسلامى التى لابد أن يكون ابن الوزان قد أذاعها وتحدث عنها بين أصدقائه الإيطاليين ؛ ومن المرجح أن يكون ابن خلدون فى مقدمة المفكرين المسلمين الذين يشملهم مثل هذا الحديث ، لا سيما وقد كان صيته ما يزال قوياً ذائعاً فى إفريقية والمغرب حيث نشأ ابن الوزان ودرس . على أنه مهما كان من شأن هذه الفروض ، فلسنا نستطيع أن نقول إن مكياڤيللى قد انتفع فى صوغ فلسفته السياسية والاجتماعية بشىء

(١) راجع معجم المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال
Casiri: Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis I. (p. 172).
ففيه تنقل هذه الخاتمة .

من آثار التفكير الإسلامى ؛ ولسنا نلمح فى كتابه أثراً لهذا التفكير . ومكيافيللى ذهن مبتدع مبتكر بلا ريب ، كما كان ابن خلدون ذهناً مبتكراً مبتدعاً ، وقد شق كلا المفكرين العظيمين طريقه لنفسه ، وألهم وحى نفسه ؛ وكان كتاب « الأمير » فتحاً عظيما فى تفكير عصر « الإحياء » الأوربى (الرينصانص) كما كانت مقدمة ابن خلدون فتحاً عظيما فى التفكير الإسلامى .

الملحق الأول

بيان فهرسى عن كتاب العبر

ظهور القطع الأولى من مؤلف ابن خلدون . نشر المقدمة فى باريس ومصر . إخراج مطبعة بولاق للمؤلف كله . صيغة الاهداء فى النسخة المتداولة ومدلولها . ما ترجم من أثر ابن خلدون الى مختلف اللغات . ما يوجد من مخطوطات أثره .

— ١ —

لبث تراث ابن خلدون رغم أهميته ونفاسته حتى منتصف القرن الماضى محتجباً ، بعيداً عن التداول العام إلا فقرات ومقتطفات صغيرة من مقدمته وتاريخه تنشر ترجمتها من وقت لآخر . وفى ذلك الحين بدأت العناية بنشر آثاره ؛ فنشرت المقدمة ، ونشرت قطع مختلفة من تاريخه . وظهرت أول قطعة كبيرة من آثاره بباريس سنة ١٨٤١ حيث نشر المستشرق نوئيل دى ڤرچيه مقتطفات من « كتاب العبر » تتضمن تاريخ بنى الأغلب ودولة الإسلام فى صقلية مع ترجمة فرنسية بعنوان Histoire de l'Afrique sous les Aghlabites et la Sicile sous la Domination musulmane. وفى سنة ١٨٥٨ ظهرت مقدمة ابن خلدون فى باريس فى ثلاث مجلدات ، أصدرها المستشرق كاترمير عن نسخة مخطوطة بالمكتبة الملكية ، ضمن المجموعة المسماة « مذكرات ومقتطفات من مخطوطات مكتبة الملك » Notices et Extraits des Manuscrits de la Bibliothèque du Roi. وهى تشمل ضمن هذه المجموعة ، المجلدات السادس عشر

الى الثامن عشر . وفى نفس ذلك التاريخ نشرت المقدمة بمصر لأول مرة (سنة ١٢٧٤ هـ — ١٨٥٨ م) بعناية الشيخ نصر الهورينى عن نسخة مخطوطة أخرى ، تتضمن بالديباجة فقرة إهداء للمؤلف لم ترد بنسخة باريس . ونشرت المقدمة فى بيروت سنة ١٨٧٩ ، ثم نشرت بعد ذلك مراراً . وعنيت مطبعة بولاق باخراج أثر ابن خلدون (كتاب العبر) كله ، فظهر تباعاً فى سبعة مجلدات كبيرة ، وتم طبعه سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٨ م) واعتمد فى إخراجه على عدة نسخ مخطوطة كلها ناقصة[١] ، ولكنها تكمل بعضها بعضاً ، ونقلت المقدمة عن نفس النسخة المخطوطة التى نقلت عنها طبعة سنة ١٢٧٤هـ فجاءت متضمنة فقرة الإهداء المشار اليها . ولهذه الفقرة أهمية خاصة فى التعريف عن تاريخ النسخة التى تضمنتها وعن قيمتها ؛ ففيها يتقدم المؤلف باهداء هذه النسخة من كتابه الى خزانة « مولاه السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أبى الحسن من بنى مرين » ويقول إنه « بعثها الى خزانتهم الموفقة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حضرة ملكهم » . والسلطان عبد العزيز المذكور هو ابن أبى العباس بن أبى سالم بن السلطان أبى الحسن ؛ تولى عرش المغرب الأقصى سنة ٧٩٦ هـ ، وتوفى فى صفر سنة ٧٩٩ هـ . وإذاً فقد وقع إهداء ابن خلدون كتابه للسلطان عبد العزيز فى هذه الفترة

---

(١) يوجد من هذه النسخ الناقصة بدار الكتب إثنتان ، وتوجد أيضاً بها مجلدات مخطوطة متفرقة من كتاب العبر . وتحفظ هذه النسخ بالأرقام الآتية : ١٨٥ م تاريخ ، و٦٥٩ م تاريخ ، و٦٦٦ م تاريخ ، و١٩ ش .

٧٩٦ – ٧٩٩ هـ . وقد انتهى البحث الحديث بأن وقف على مجلدين من هذه النسخة التى بعثها ابن خلدون الى فاس لا زالا بمكتبة جامع القرويين ؛ عثر بهما الأستاذ ألفرد بل Bel وذكرهما ضمن الفهرس الذى وضعه لمكتبة جامع القرويين ، وأشار الى أن أحدهما يحمل صيغة الوقف (١) . وقد عاد الأستاذ ليفى بروفنسال فحقق صحة هذا الاكتشاف ، ونشر بحثه فى المجلة الأسيوية مشفوعاً بصورة فتوغرافية لصيغة الوقف المرقومة على غلاف أحد المجلدين ؛ والمجلدان هما الثالث والخامس (مما يقابل نسخة بولاق تقريباً) . والخامس يحمل صيغة الوقف ، وتاريخ هـــذا الوقف هو ٢١ صفر سنة ٧٩٩ هـ . وفى نهاية هذا المجلد إشارة من الناسخ تفيد أنه « نقل من الأصل المعتمد لمؤلفه »(٢) . وقد وقع إهداء ابن خلدون لهذه النسخة فى نفس الوقت الذى أرسل فيه الظاهر برقوق سلطان مصر هديته الى سلاطين المغرب كأثر للصلات التى عمل ابن خلدون على عقدها بين بلاط القاهرة وقصور المغرب ؛ وأرسل ابن خلدون نسخة كتابه هـــذه الى المغرب مع رسل السلطان الظاهر ؛ وتوفى السلطان عبد العزيز فى ذلك الحين . ولكن أنباء وفاته لم تكن قد وصلت بعد الى القاهرة . ومن المحقق أن هذه النسخة المهداة الى بنى مرين سادة ابن خلدون وحماته الأوائل كانت من أتم نســـخ الكتاب وأوفاها ، إذ كان قد مضى على كتابة ابن خلدون نسخة

---

(١) Catalogue des Livres arabes de la Bibliothèque de la Mosquée d'El Quaruiyin à Fez (p. 6).

(٢) J. Asiatique, 1923 (Juillet-Sep. p.p. 163-164).

وقد نشرنا صورة فوتوغرافية لصيغة الوقف المشار إليها فى فاتحة الكتاب.

كتابه الأولى نحو خمس عشرة سنة ؛ وقد عنى ابن خلدون أثناء مقامه بالقاهرة فى هذه الفترة بتنقيح كتابه وتهذيبه والزيادة فيه ؛ وشمل التنقيح والزيادة جميع أقسام الكتاب ، ووصل ابن خلدون فى تدوين أخبار الحوادث المعاصرة فى كثير من المواطن الى سنى ٧٩٥ و ٩٦ و ٩٧ هـ حسبما بينا فيما تقدم . وتوجد بدار الكتب (بمجموعة مصطفى باشا) نسخة مخطوطة من كتاب العبر فى عشرة مجلدات تنقص عن النسخة الكاملة مجلداً (المجلد السابع من المطبوع)، وتحتوى مقدمتها على صيغة الإهداء المشار اليها (ورقة ٤ من المجلد الأول) مما يدل على أنها قد تكون صورة مطابقة للنسخة الأصلية المهداة الى بلاط فاس(١) .

والخلاصة أن نسخة «كتاب العبر» المتداولة التى أصدرتها مطبعة بولاق عن النسخ الخطية المشار اليها ، هى بالرغم من كثرة أغلاطها المطبعية، من أتم النسخ التى انتهت الينا من أثر ابن خلدون .

— ٢ —

بعد أن نشرت مقدمة ابن خلدون فى باريس بعناية العلامة كاترمير سنة ١٨٥٨ ؛ جاء البارون دى سلان فترجم المقدمة الى الفرنسية ، وهو العمل الذى كان يعتزمه كاترمير وحالت وفاته دون إتمامه . وظهرت ترجمة دى سلان الفرنسية بين سنتى ١٨٦٣ و١٨٦٨ فى ثلاثة مجلدات كبيرة بعنوان Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun (par M. de Slane Membre de l'Institut). واتبع دى سلان فى ترجمته ، النص الذى نشره كاترمير إلا فى مواطن

(١) تحفظ هذه النسخة بدار الكتب برقم (٦٥ تاريخ م).

قليلة جداً ، قارن فيها المخطوطات المختلفة . وصدر المقدمة بترجمة « للتعريف بابن خلدون » وأكمل ترجمته حتى وفاته بالاعتماد على المصادر المصرية المعاصرة (المقريزى والعينى وابن قاضى شهبه) . ويشكو دى سلان من أسلوب ابن خلدون ويقول إنه ركيك وغامض فى أحيان كثيرة ، وإنه يستعمل الضمائر بكثرة تحول أحياناً دون فهم مقاصده[1]. والواقع أنه يوجد فى ترجمة دى سلان غموض كثير ؛ ولكنا نعتقد أن ذلك لا يرجع دائماً الى غموض النص الأصلى ، وإنما يرجع فى معظم الأحيان الى ضعف الترجمة ذاتها .

كذلك نشر دى سلان قسماً كبيراً من تاريخ ابن خلدون هو المتعلق بتاريخ الدول البربرية فى مجلدين كبيرين بعنوان « تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب » (الجزائر سنة ١٨٦٣) ؛ ورجع فى نشر هذا القسم الى عدة نسخ مخطوطة ، واختصر فيه فى بعض المواضع ، وأضاف اليه مقتطفات لمؤلفين آخرين ، ونشر ترجمة فرنسية لهذا القسم فى أربعة مجلدات ظهرت بالجزائر سنة (١٨٥٢—١٨٥٦) بعنوان

Histoire des Berbères et des Dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale.

وترجمت المقدمة الى التركية منذ أوائل القرن الثامن عشر ، ترجمها اليها پيرى زاده المتوفى سنة ١٧٤٩ م (١١٦٢ هـ). وترجمت الى الفرنسية أجزاء أخرى من التاريخ ، منها قطعة عن تاريخ بنى زيان Hist. de Benou Zayan ، ترجمها دوزى ، وقطعة عن

---

(١) راجع ترجمة دى سلان ، ج ١ ص ١١٢ .

بنى الأحمر ملوك غرناطة Hist. des Benou al Ahmar Rois de Grenade ، ترجمها جودفرى دومومبين ، وقد نشرتا فى المجلة الأسيوية (Journal Asiatique) ؛ وقطعة مطولة أخرى عن ملوك بنى عبد الواد ترجمها المستشرق بل ، وظهرت بالجزائر فى ثلاثة مجلدات بعنوان Hist. des Beni Abdel-Wad Rois de Telemçan

وترجمت قطع الى الألمانية ، من ذلك ما ترجمه تيزنهاوزن عن تاريخ بنى عُقيل : Die Geschichte der Oqailiden-Dynastie. وفصول عن تاريخ احتلال الفرنج لشواطىء سوريا أيام الصليبيين بقلم تورنبرج : Geschichte der Franken, welche die Küsten und Grenzlaender Syriens besetzten. وفصول أخرى مختلفة من المقدمة والتاريخ بقلمى فون هامار وفون كريمر. وظهرت سنة ١٩٣٢ ترجمة ألمانية لآراء ابن خلدون عن الدولة بقلم ادوين روزنتال مقرونة بشروح وتعليقات تحت عنوان : Ibn Khaldouns Gedanken über den Staat.

وترجمت قطع من المقدمة الى الإيطالية إحداها عن الكتابة العربية بقلم لانشى ، وأخرى عن تاريخ صقلية بقلم العلامة أمارى. وترجم الجزء المتعلق بتاريخ اليمن الى الانجليزية بقلم كاسلس كى (Kay) وشذور أخرى بقلم الأستاذ فلنت . وترجمت أيضاً قطع مختلفة أخرى الى اللاتينية والروسية .

— ٣ —

وتوجد نسخ مخطوطة من المقدمة فى مكاتب برلين وليدن وفلورنس ولننجراد والمتحف البريطانى وميلان وميونيخ وباريس

وقينا . وتوجد نسخ مخطوطة من المؤلف كله أو بعضه بالقاهرة بدار الكتب المصرية (وبها نسختان كاملتان تقريباً وبعض مجلدات مفردة) ومكتبة الأزهر . وفى قسطنطينية فى عثمانية وينى جامع وابراهيم باشا . وفى فاس بجامع القرويين . وفى المتحف البريطانى وأكسفورد وتورينو وتبنجن وتونس والجزائر . وتوجد نسخة كاملة من التعريف أو الرحلة بدار الكتب المصرية (مصطفى باشا) ، وتوجد نسختان أخريان فى استانبول ، وعنهما أخرجت الطبعة المحققة من «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً» فى سنة ١٩٥٢ وهى التى أشرنا اليها فيما تقدم [١] .

---

(١) راجع وصف هذه النسخ الخطية وتواريخ كتابتها فى فهارس هذه المكتبات .

الملحق الثانى

ثبت بالمصادر

- ١ -

المصادر العربية

كتاب العبر (تاريخ ابن خلدون) ، والمقدمة .
التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (النسخة المخطوطة) .
التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (النسخة المطبوعة)
مقدمة ابن خلدون ، طبعة كاترمير (باريس سنة ١٨٥٨) .
مقدمة ابن خلدون ، (مصر) سنة ١٢٧٤ هـ .
لباب المحصل لابن خلدون (مخطوط بالاسكوريال) .
لباب المحصل لابن خلدون (طبع تطوان ١٩٥٢) .
اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى .
رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر (مخطوط) .
أنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر (مخطوط) .
المنهل الصافى لابن تغرى بردى (مخطوط) .
الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى (مخطوط ومطبوع).
الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للسخاوى .
السلوك فى دول الملوك للمقريزى (مخطوط ومطبوع) .
الخطط والآثار للمقريزى .

إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى .
عجائب المقدور لابن عربشاه .
تاريخ مصر لابن إياس .
حسن المحاضرة للسيوطى .
الأحكام السلطانية للماوردى .
قوانين الوزارة للماوردى .
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن الطقطقى (جريفزولد سنة ١٨٥٨) .
سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى وبهامشه التبر المسبوك للغزالى.
المنهج المسلوك فى سياسة الملوك لعبد الرحمن بن محمد .
عيون الأخبار لابن قتيبة .
رسائل إخوان الصفا .
آراء أهل المدينة الفاضلة لأبى نصر الفارابى .
صبح الأعشى للقلقشندى .
مصر الاسلامية لمحمد عبد الله عنان .

— ٢ —

المصادر الغربيــــة

هذا وننشر فيما يلى ثبتا بأهم المراجع والبحوث النقدية التى ظهرت عن ابن خلدون وتراثه بمختلف اللغات الأوربية :

Von Hammer-Purgstall : Ueber den Verfall des Islams nach den ersten drey Jahrhunderten der Hidschrat (1812).

A. von Kremer : Ibn Chaldun and seine Kulturgeschichte der islamischen Reiche : Wien 1879.
L. Gumplowicz : Ibn Khaldun, ein arabischer Soziologe des 14. Jahrhunderts ; in Sociologische Essays.
T.J. de Boer : Ibn Chaldun : in Geschichte der Philosophie im Islam : Stuttgart 1901. p. 177-84.
Lewine : Ibn Chaldun, ein arabischer Soziologe des XIV. Jahrhunderts. (بالروسية)

Von Wesendonk : Ibn Khaldun, ein arabischer Kulturhistoriker des 14. Jahrhunderts (Deutsche Rundschau Januar 1923). وألحقت ترجمتها العربية بقلم محمد عبد الله عنان بكتاب فلسفة ابن خلدون الاجتماعية .

Müller : Der Islam ; II. p. 668 ff.
Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur ; II. p. 243. ff.

Wuestenfeld : Geschichtschreiber der Araber No. 456.
Rosenthal : Ibn Khalduns Gedanken über den Staat ; München, 1932.
T. Khemiri : Der Asabisa Begriff in der Muquaddima des Ibn Ḥuldun (Hamburg 1936).

* * *

Encyclop. de l'Islam: art.: Ibn Khaldoun par Alfred Bel.
Biographie Universelle t. XX. art. Ibn Khaldoun par S. de Sacy.

Schulz : Ibn Khaldoun ; (art. au Journal Asiatique 1825).
Reinaud : Ibn Khaldoun : dans Nouvelle Biographie Générale (1858).
De Slane : Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun.
S. Colosio : Contribution à l'étude d'Ibn Khaldoun (Revue du Monde musulman XXVI, 1914).

René Maunier: Les idées économiques d'un philosophe arabe (Revue d'Histoire économique et sociale, 1912).

R. Maunier : Les idées sociologiques d'un philosophe arabe au XIVème siècle : (L'Egypte contemporaine, 1917, p. 31).

Taha Hussein : La philosophie sociale d'Ibn Khaldoun.
وترجمتها العربية : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية بقلم محمد عبد الله عنان .

* * *

Graberg de Hemsoe : Account of the great historical work of the african philosopher Ibn Khaldoun. (Transactions of the A.R.S. 1833).

R. Flint : Historical philosophy. Edinbourgh 1893. p. 157 ff.

N. Schmidt : Ibn Khaldun. Historian, Sociologist and Philosopher, New-York 1930.

* * *

Ferreiro : Un sociologo arabo del secolo XIV (La Riforma Sociale anno III Vol. VI. Fasc. 4. 1886).

ورجعنا أيضاً الى الكتب الآتية :

N. Machiavelli : The Prince.

N. Machiavelli : Florentine History.

Aristotles' : Politics.

Dozy : Recherches sur l'Hist. et la Littérature d'Espagne au moyen-âge.

Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.

الملحق الثالث

تراجم ابن خلدون

بأقلام معاصريه

ترجم لابن خلدون عدة من أكابر المؤرخين والمفكرين المصريين الذين عاصروه وعرفوه ، أوعاشوا قريباً من عصره مثل الحافظ بن حجر العسقلانى وقد ترجمه فى كتاب « رفع الإصر عن قضاة مصر » وتقى الدين المقريزى وقد ترجمه فى كتاب « درر العقود الفريدة » الذى لم يصلنا منه سوى قطعة صغيرة ، وأبى المحاسن ابن تغرى بردى وقد ترجمه فى كتابه « المنهل الصافى » ثم السخاوى وقد ترجمه فى كتابه « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » . وقد رأينا أن ننقل هنا هذه التراجم ومعظمها مخطوط ، زيادة فى التعريف بابن خلدون وبالأثر الذى أحدثته إقامته الطويلة بمصر ، فى تقدير الكتاب المصريين وآرائهم بالنسبة لشخصه وتفكيره .

— ١ —

ترجمة الحافظ ابن حجر

منقولة عن كتاب « رفع الإصر عن قضاة مصر »

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر ابن ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى ، الإشبيلى الأصل ، التونسى المولد ، أبو زيد ولى الدين المالكى من المائة

التاسعة . ولد فى أول شهر رمضان سنة اثنين وثلاثين وسبعماية ، واشتغل فى بلده ، وسمع من الوادى آشى وابن عبد السلام وغيرهما ، وأخذ القرآن عن محمد بن سعد بن برال ، واعتنى بالأدب وأمور الكتابة والخط ، حتى مهر فى جميع ذلك . وولى كتابه العلامه عن صاحب تونس ، ثم توجه الى فاس فى سنة ثلاث وخمسين ، فوقع بين يدى سلطانها أبى عنان ؛ ثم حصلت له نكبة وشدة ، واعتقل نحو عامين ، وولى كتابه السر لأبى سالم والنظر فى المظالم ؛ ثم دخل الأندلس وقدم الى غرناطة فى سنة أربع وستين ، فتلقاه السلطان ابن الأحمر عند قدومه ونظمه فى أهل مجلسه ، وأرسله الى عظيم الفرنج بإشبيلية ، فعظمه وأكرمه وحمله وقام بالأمر الذى ندب اليه ؛ ثم توجه فى سنة ست وستين الى بجاية ففوض اليه صاحبها تدبير مملكته مدة ؛ ثم نزح الى تلمسان باستدعاء صاحبها وأقام بوادى العرب مدة ؛ ثم توجه الى فاس من بسكره فنهب فى الطريق ، ومات صاحب فاس قبل قدومه ، فأقام بها قدر سنتين . ثم توجه الى الأندلس ثم رجع الى تلمسان فأقام مدة أربعة أعوام . ثم ارتحل عنهم فى رجب سنة ثمانين الى تونس ، فأقام بها الى أن استأذن فى الحج فأذن له ، فاجتاز البحر الى أن وصل الى الاسكندرية ، ثم قدم الديار المصرية فى سنة أربع وثمانين وسبعماية فى ذى القعدة ، وحج ثم رجع فلازم ألطنبغا الجوبانى ، فاعتنى به الى أن قرره الملك الظاهر برقوق فى قضاء المالكية بالديار المصرية ، فباشرها مباشرة صعبة ، وقلب للناس ظهر المجن ، وصار يعزر بالصفع ، ويسميه الزج فاذا غضب على انسان قال زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته .

قرأت بخط البشبيشي ، كان فصيحاً ، مفوهاً جميل الصورة ، حسن العشرة ، وخصوصاً إذا كان معزولا . أما إذا ولى فلا يعامل بل ينبغي أن لا يرى . وقد ذكره لسان الدين بن الخطيب فى تاريخ غرناطه ، ولم يصفه بعلم ، وإنما ذكر له تصانيف فى الأدب وشيئاً من نظمه ، ولم يكن بالماهر فيه . وكان يبالغ فى كتمانه مع أنه كان جيد النقد للشعر . وسئل عنه الركراكى فقال ، عرى عن العلوم الشرعية ،له معرفة بالعلوم العقلية من غير تقدم فيها ، ولكن محاضرته إليها المنتهى وهى أمتع من محاضرة الشيخ شمس الدين الغمارى. ولما دخل الديار المصرية تلقاه أهلها وأكرموه ، وأكثروا ملازمته والتودد اليه ، فلما ولى المنصب تنكر لهم وفتك فى كثير من أعيان الموقعين والشهود . وقيل ان أهل المغرب لما بلغهم أنه ولى القضاء، عجبوا من ذلك ونسبوا المصريين الى قلة المعرفة، حتى ان ابن عرفه قال لما قدم فى الحج كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب : فلما بلغنا أن ابن خلدون ولى القضاء عددناها بالضد من ذلك . ولما دخل القضاة للسلام عليه لم يقم لأحد منهم ، واعتذر لمن عاتبه على ذلك . وباشر ابن خلدون بطريقة لم يألفها أهل مصر حتى حصل بينه وبين الركراكى تنافس يتضمن الحط على برقوق فتنصل الركراكى وعقد له مجلس فأظهر ابن خلدون فتوى زعم أنها خط الركراكى من ذلك ، وتوسل بمن اطلع على الورقة فوجدت مدلسة ، فلما تحقق برقوق ذلك عزله وأعاد ابن خير وذلك فى جمادى الأولى سنة سبع وثمانين ، فكانت ولايته الأولى دون سنتين ؛ واستمر معزولا ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ، وحج فى سنة تسع

وثمانين ولازمه كثير من الناس فى هذه البطالة ، وحبس خلفه فيها ومازح الناس وباسطهم ، وتردد الى الأكابر وتواضع معهم ، ومع ذلك لم يغير زيه المغربى ، ولم يتزى بزى قضاة هذا البلد . وكان يحب المخالفة فى كل شىء . ولما مات ناصر الدين التنسى طلبه الملك الظاهر فوجده توجه الى الفيوم بسبب بلد القمحية ، وكان له نصيب فى تدريسها ، فحضر صحبة البريد ففوض اليه القضاء فى خامس عشر شهر رمضان سنة احدى وثمانمائة فباشر على عادته من العسف والجنف ، لكنه استكثر من النواب والشهود والعقاد على عكس ما كان منه فى الأول فكثرت الشناعة عليه الى أن صرف ببعض نوابه ، وهو نور الدين بن الجلال صرفاً قبيحاً ، وذلك فى ثانى عشر المحرم سنة ثلاث وثمانماية ، وطلب الى الحاجب الكبير فأقام للخصوم وأساء عليه بالقول ، وأدعوا عليه بأمور كثيرة أكثرها لا حقيقة له ، وحصل له من الإهانة ما لا مزيد عليه وعزل . ثم مات ابن الجلال بعد أربعة أشهر فى جمادى الأولى ؛ فولى جمال الدين الأقفهسى ثم صرف بعد أربعة أشهر أيضاً فى رمضان ، وأعيد بن خلدون وذلك بعد مجيئه من الفتنة العظمى وخلاصه منها سالماً ، وكانوا استصحبوه معهم معزولا فتحيل لما حاصر تيمورلنك دمشق الى أن حضر مجلسه ، وعرفه بنفسه فأكرمه وقربه ، وكان غرضه الاستفسار عن أخبار بلاد المغرب فتمكن منه الى أن أذن له فى السفر وزوده وأكرمه . فلما وصل أعيد الى المنصب ، فباشره عشرة أشهر ثم صرف بجمال الدين البساطى الى آخر السنة ؛ ثم أعيد ابن خلدون وسار على عادته إلا أنه تبسط بالسكن على البحر وأكثر من سماع المطربات ومعاشرة

الأحداث وتزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط ، فكثرت الشناعة عليه . هكذا قرأت بخط جمال الدين البشبيشى فى كتابه القضاة . قال وكان مع ذلك أكثر من الازدراء بالناس ، حتى شهد عنده الإستادار الكبير بشهادة فلم تقبل شهادته مع أنه كان من المتعصبين له ولم يشهد عنه فى منصبه إلا بالصيانة الى أن صرف فى سابع شهر ربيع الأول سنة ثمانماية ، ثم أعيد فى شعبان سنة سبع فباشر فى هذه المدة الأخيرة بلين مفرط وعجز وخور ، فلم يلبث أن عزل فى أواخر ذى القعدة . وقرأت بخط البشبيشى أنه كان يوماً بالقرب من الصالحية فرأى ابن خلدون وهو يريد التوجه الى منزله وبعض نوابه أمامه وهو تاج الدين بن الطريف ، فالتفت فرأى البشبيشى فتلا قوله تعالى: « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له » فلما وصل ابن خلدون عاتب ابن الطريف ، فقال لم تلوت هذه الآية؟ فقال اتفق كذلك ، فقال بل أردت أن البشبيشى بلغ جمال الدين البساطى . وقرأت بخط الشيخ تقى الدين المقريزى فى وصف تاريخ ابن خلدون ، «مقدمته لم يعمل مثالها وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، إن هى زبدة المعارف والعلوم ، وبهجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود وتنبى على أهل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدر النظيم وألطف من الماء إذا مر بالنسيم» . انتهى كلامه . وما وصفها به فيما يتعلق بالبلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية مسلم فيه ، وأما ما أطراه به زيادة على ذلك فليس الأمر كما قال إلا فى بعض دون بعض ، إلا أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسناً ماليس

بالحسن . وقد كان شيخنا الحافظ أبو الحسن بن أبي بكر يبالغ في الغض منه فلما سألته عن سبب ذلك ذكر لى أنه بلغه أن ذكر الحسين بن على رضى الله عنه فى تاريخه فقال قتل بسيف جده ؛ ولما نطق شيخنا بهذه اللفظة أردفها بلعن ابن خلدون وسبه وهو يبكى ، قلت ولم توجد هذه الكلمة فى التاريخ الموجود الآن وكان ذكرها فى النسخة التى رجع عنها . والعجب أن صاحبنا المقريزى كان يفرط فى تعظيم ابن خلدون لكونه كان يجزم بصحة نسب بنى عبيد الذين كانوا خلفاء بمصر واشتهروا بالفاطميين الى على ، ويخالف غيره فى ذلك . ويدفع ما نقل عن الأئمة فى الطعن فى نسبهم ويقول : إنما كتبوا ذلك المحضر مراعاة للخليفة العباسى ؛ وكان صاحبنا ينتمى الى الفاطميين فأحب ابن خلدون لكونه أثبت نسبهم وغفل عن مراد ابن خلدون ، فانه كان لانحرافه عن آل على يثبت نسبة الفاطميين اليهم لما اشتهر من سوء معتقد الفاطميين وكون بعضهم نسب الى الزندقة وادعى الألوهية كالحاكم ، وبعضهم فى الغاية من التعصب لمذهب الروافض حتى قتل فى زمانهم جمع من أهل السنة ، وكانوا يصرحون بسب الصحابة فى جوامعهم ومجامعهم فاذا كانوا بهذه المثابة وصح أنهم من آل على حقيقة التصق بآل على العيب وكان ذلك من أسباب النفرة عنهم والله المستعان .

(ص ١٥٨ — ١٦١) نسخة دار الكتب

(ص ٢٧٤ — ٢٧٨) نسخة مكتبة الأزهر

— ٢ —

ترجمة شمس الدين السخاوى

منقولة عن كتاب « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع »

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر ابن محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن ولى الدين أبو زيد الحضرمى ، من ولد وائل بن حجر الإشبيلى الأصل التونسى ثم القاهرى المالكى ويعرف بابن خلدون — بفتح المعجمة وآخره نون . ولد فى أول رمضان سنة اثنين وثلاثين وسبعماية بتونس ، وحفظ القرآن والشاطبيتين ومختصر ابن الحاجب الفرعى والتسهيل فى النحو ، وتفقه بأبى عبد الله بن عبد الله الجيانى وأبى القسم محمد بن القصير وقرأ عليه التهذيب لأبى سعيد البرادعى وعليه تفقه ، وانتاب مجلس قاضى الجماعة أبى عبد الله محمد بن عبد السلام واستفاد منه وعليه وعلى أبى عبد الله الوادياشى ، سمع الحديث وكتب بخطه أنه سمع صحيح البخارى على أبى البركات البلقينى وبعضه بالإجازة ، والموطأ على ابن عبد السلام وصحيح مسلم على الوادياشى انتهى . وأخذ القراءات السبع إفراداً وجمعاً بل قرأ ختمة أيضاً بزاوية يعقوب عن المكتب أبى عبد الله محمد بن سعد بن برال الأنصارى ، وعرض عليه الشاطبيتين والتقصى والعربية عن والده وأبى عبد الله محمد بن العربى الحصائرى وأبى عبدالله بن بحر ، والمقرى أبى عبدالله محمد بن الشواش الزواوى وأبى عبد الله بن القصار ، ولازم العلاء أبا عبدالله الإشبيلى وانتفع به ، وكذا أخذ عن أبى محمد عبد المهيمن الحضرمى

وأبي عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلى شيخ المعقول بالمغرب وآخرين، واعتنى بالأدب وأمور الكتابة والخط ، وأخذ ذلك عن أبيه وغيره ومهر فى جميعه ، وحفظ المعلقات وحماسة الأعلم وشعر حبيب بن أوس وقطعة من شعر المتنبي وسقط الزند للمعرى ، وتعلق بالخدمة السلطانية وولى كتابه العلامة عن صاحب تونس ؛ ثم توجه سنة ثلاث وخمسين الى فاس فوقع بين يدى سلطانها أبى عنان، ثم امتحن واعتقل نحو عامين ، ثم ولى كتابه السر لأبى سالم أخى أبى عنان وكذا النظر فى المظالم ؛ ثم دخل الأندلس فقدم غرناطة فى أوائل ربيع الأول سنة أربع وستين وتلقاه سلطانها ابن الأحمر عند قدومه ونظمه فى أهل مجلسه ، وكان رسوله الى عظيم الفرنج بإشبيلية فعظمه وأكرمه وحمله وقام بالأمر الذى ندب اليه ، ثم توجه فى سنة ست وستين الى بجاية ففوض اليه صاحبها تدبير مملكته مدة ثم نزح الى تلمسان باستدعاء صاحبها وأقام ببوادى العرب مدة، ثم توجه من بسكرة الى فاس فنهب فى الطريق ومات صاحبها قبل قدومه ومع ذلك فأقام بها قدر سنتين ، ثم توجه الى الأندلس ثم رجع الى تلمسان فأقام بها أربعة أعوام، ثم ارتحل فى رجب سنة ثمانين الى تونس فأقام بها من شعبانها الى أن استأذن فى الحج فأذن له فاجتاز البحر الى الاسكندرية، ثم قدم الديار المصرية فى ذى القعدة سنة أربع وثمانين فحج، ثم عاد اليها وتلقاه أهلها وأكرموه وأكثروا من ملازمته والتردد عليه بل تصدر للإقراء بجامع الأزهر مدة ، ولازم هو ألطنبغا الجوبانى فاعتنى به الى أن قرره الظاهر برقوق فى تدريس القمحية بمصر، ثم فى قضاء المالكية بالديار المصرية فى جمادى الآخرة سنة

ست وثمانين فتنكر للناس بحيث لم يقم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه مع اعتذاره لمن عتب عليه فى الجملة ، وفتك فى كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وصار يعزر بالصفع ويسميه الزج فاذا غضب على إنسان قال زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته ، ويقال إن أهل المغرب لما بلغهم ولايته القضاء تعجبوا ونسبوا المصريين الى قلة المعرفة بحيث قال ابن عرفه كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما وليها هذا عددناها بالضد من ذلك ؛ وعزل ثم أعيد وتكرر له ذلك حتى مات قاضياً فجأة فى يوم الأربعاء لأربع بقين من رمضان سنة ثمان عن ست وسبعين سنة ودون شهر ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر عفا الله عنه . ودخل مع العسكر فى أيام انفصاله عن القضاء لقتال تيمور فقدر اجتماعه به وخادعه وخلص منه بعد أن أكرمه وزوده ، وكذا حج قبل ذلك فى سنة تسع وثمانين وهو أيضاً منفصل عن القضاء ، ولازمه كثيرون فى بعض عزلاته فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم ، وتردد هو للأكابر وتواضع معهم ، ومع ذلك لم يغير زيه المغربى ولم يلبس زى قضاة هذه البلاد لمحبته المخالفة فى كل شيء ، واستكثر فى بعض مراته من النواب والعقاد والشهود عكس ما كان منه فى أول ولاياته وكان ذلك أحد ما شنع عليه به ؛ وطلب بعد انفصاله فى المحرم سنة ثلاث وثمانمائة الى الحاجب الكبير فأقامه للخصوم وأساء عليه القول وادعوا عليه بأمور كثيرة أكثرها لا حقيقة له وحصل له من الإهانة ما لا مزيد عليه . وقد ولى مشيخة البيبرسية وقتاً وكذا تدريس الفقه بقبة الصالح بالبيمارستان الى أن مات ، وتدريس الحديث بالصرغتمشية ،

ثم رغب عنه للزين التفهني. وقد ترجمه جماعة فقال الجمال البشبيشي إنه في بعض ولاياته تبسط بالسكن على البحر وأكثر من سماع المطربات ومعاشرة الأحداث وتزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط فكثرت الشناعة عليه، وكان مع ذلك أكثر من الإزدراء بالناس حتى أنه شهد عند الإستادار الكبير بشهادة فلم يقبله مع أنه كان من المتعصبين له، قال ولم يشتهر عنه في منصبه الا الصيانة وأنه باشر في أواخر مراته بلين مفرط وعجز وخور يعني بحيث أنه سمع بعض نوابه وهو راكب بين يديه يتلو حين رؤيته بعض المؤرخين « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له » فلم يرد على معاتبته وقال له وقد اعتذر النائب له بما لم يقبله منه إنما أردت أن تبلغ ذلك الجمال البساطي؛ قال البشبيشي كان فصيحاً مفوهاً جميل الصورة حسن العشرة إذا كان معزولا فأما إذا ولي فلا يعاشر بل ينبغي أن لا يرى. وقال ابن الخطيب فيما حكاه عنه شيخنا: رجل فاضل جم الفضائل رفيع القدر أصيل المجد وقور المجلس عالي الهمة قوي الجأش، متقدم في فنون عقلية ونقلية، متعدد المزايا شديد البحث كثير الحفظ صحيح التصوير بارع الخط حسن العشرة مفخر من مفاخر المغرب، وقال هذا كله في ترجمته وهو في حد الكهولة ومع ذلك فلم يصفه فيما قال شيخنا أيضاً بعلم وإنما ذكر له تصانيف في الأدب وشيئاً من نظمه، قال شيخنا ولم يكن بالماهر فيه وكان يبالغ في كتمانه مع أنه كان جيد النقد للشعر؛ وسئل عنه الركراكي فقال عري عن العلوم الشرعية له معرفة بالعلوم العقلية من غير تقدم فيها ولكن محاضرته اليها المنتهى وهي أمتع من محاضرة الشمس الغماري.

وقال المقريزى فى وصف تاريخه ، مقدمته لم يعمل مثالها وانه لعزيز أن ينال مجتهد منالها إذ هى زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود وتنبىء عن أصل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدر النظيم وألطف من الماء مر به النسيم . قال شيخنا وما وصفها به فيما يتعلق بالبلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية مسلم فيه ، وأما ماأطراه به زيادة على ذلك فليس الأمر كما قال إلا فى بعض دون بعض ؛ غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى ترى حسناً ما ليس بحسن ؛ قال وقد كان شيخنا الحافظ أبو الحسن يعنى الهيثمى يبالغ فى الغض منه فلما سألته عن سبب ذلك ذكر لى أنه بلغه أنه ذكر الحسين بن على رضى الله عنهما فى تاريخه فقال قتل بسيف جده ، ولما نطق شيخنا بهذه اللفظة أردفها بلعن ابن خلدون وسبه وهو يبكى ؛ قال شيخنا فى رفع الإصر ولم توجد هذه الكلمة فى التاريخ الموجود الآن وكأنه كان ذكرها فى النسخة التى رجع عنها ؛ والعجب أن صاحبنا المقريزى كان يفرط فى تعظيم ابن خلدون لكونه كان يجزم بصحة نسب بنى عبيد الذين كانوا خلفاء بمصر واشتهروا بالفاطميين الى على ويخالف غيره فى ذلك ، ويدفع ما نقل عن الأئمة من الطعن فى نسبهم ويقول إنما كتبوا ذلك المحضر مراعاة للخليفة العباسى ، وكان صاحبنا ينتمى الى الفاطميين فأحب ابن خلدون لكونه أثبت نسبهم وغفل عن مراد ابن خلدون فانه كان لانحرافه عن آل على يثبت نسب الفاطميين اليهم لما اشتهر من سوء معتقد الفاطميين ، وكون بعضهم نسب الى الزندقة وادعى

الإلهية كالحاكم وبعضهم فى الغاية من التعصب لمذهب الرفض حتى قتل فى زمانهم جمع من أهل السنة ، وكان يصرح بسب الصحابة فى جوامعهم ومجامعهم ، فاذا كانوا بهذه المثابة وصح أنهم من آل على حقيقة التصق بآل على العيب ، وكان ذلك من أسباب النفرة عنهم . وقال فى أنبائه انه صنف التاريخ الكبير فى سبع مجلدات ضخمة ظهرت فيه فضائله وأبان فيه عن براعته ولم يكن مطلعاً على الأخبار على جليتها لا سيما أخبار المشرق وهو بين لمن نظر فى كلامه ، قال وكان لا يتزيا بزى القضاة بل هو مستمر على طريقته فى بلاده . وقال فى معجمه اجتمعت به مراراً وسمعت من فوائده ومن تصانيفه خصوصاً فى التاريخ ، وكان لسناً فصيحاً بليغاً حسن الترسل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمور خصوصاً متعلقات المملكة ؛ وكتب لى فى استدعاء ، أجزت لهؤلاء السادة والعلماء القادة أهل الفضل والإجادة جميع ما سألوه من الإجازة ؛ وكذا أثنى عليه الحافظ الأقفهسى فى معجم الجمال بن ظهيرة وهما ممن أخذ عنه وساق له شعراً ، وقال إنه باشر القضاء بحرمة وافرة . وقال العينى كان فاضلاً صاحب أخبار ونوادر ومحاضرة حسنة ، وله تاريخ مليح ، وكان يتهم بأمور قبيحة ، قال شيخنا كذا قال ومن نظمه فى قصيدة طويلة جداً :

أسرفن فى هجرى وفى تعذيبى　　وأطلن موقف عبرتى ونحيبى
وأبين يوم البين وقفه ساعة　　لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا　　قلبى رهين صبابة ووجيب

وعندى له تقريظ فى أحمد بن يوسف بن محمد الشيرجى وكذا لنزول الغيث لابن الدمامينى ؛ وحكى لنا شيخنا الرشيدى

من أخباره جملة، وهو وغيره من شيوخنا ممن روى لنا عنه ،وترجمه ابن عمار أحد من أخذ عنه بقوله، الأستاذ المنوه بلسان سيف المحاضرة وسحبان أدب المحاضرة كان يسلك فى إقرائه الأصول مسلك الأقدمين كالإمام والغزالى والفخر الرازى ، مع الغض والإنكار على الطريقة المتأخرة التى أحدثها طلبة العجم ومن تبعهم فى توغل المشاحة اللفظية، والتسلسل فى الحدية والرسمية اللذين أثارهما العضد وأتباعه فى الحواشى عليـــه ، وينهر الناقل غضون إقرائه عن شىء من هذه الكتب ، مستنداً الى أن طريقة الأقدمين من العرب والعجم وكتبهم فى هذا الفن على خلاف ذلك ، وأن اختصار الكتب فى كل فن والتعبد بالألفاظ على طريقة العضد وغيره، من محدثات المتأخرين ، والعلم وراء ذلك كله ، وكان كثيراً ما يرتاح فى النقول لفن أصول الفقه خصوصاً عن الحنفية كالبزدوى والخبازى وصاحب المنار، ويقدم البديع لابن الساعاتى على مختصر ابن الحاجب قائلا انه أقعد وأعرف بالفن منه، وزاعماً أن ابن الحاجب لم يأخذه عن شيخ وإنما أخذه بالقول، قال وهذا فيه نظر. وله من المؤلفات غير الإنشاءات النثرية والشعرية التى هى كالسحر، التاريخ العظيم المترجم بالعبر فى تاريخ الملوك والأمم والبربر ، حوت مقدمته جميع العلوم وجلت عن محجتها ألسنة الفصحاء فلا تروح ولا تحوم؛ ولعمرى ان هو إلا من المصنفات التى سارت ألقابها بخلاف مضمونها كالأغانى للأصبهانى سماه الأغانى وفيه من كل شىء ،والتاريخ للخطيب سماه تاريخ بغداد وهو تاريخ العالم، وحلية الأولياء لأبى نعيم سماه حلية الأولياء وفيه أشياء جمـــة كثيرة ، وكان الإمام أبو عثمان الصابونى يقول كل بيت فيه الحلية

لا يدخله الشيطان ، وطول المقريزى فى عقوده ترجمته جداً وهو كما قدمت ممن يبالغ فى اطرائه ومدحه عفا الله عنهما .

(ج ٤ ص ١٤٥ - ١٤٩ طبع القاهرة)

- ٣ -

ترجمة أبى المحاسن بن تغرى بردى

منقولة عن كتاب « المنهل الصافى »

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد ابن جابر بن محمد بن ابرهيم بن محمد بن عبد الرحمن ، قاضى القضاة ولى الدين أبوزيد الحضرمى الإشبيلى المعروف بابن خلدون .

مولده فى يوم الأربعاء أول شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة (بمدينة تونس ببلاد المغرب ونشأ بها) ، وحفظ القرآن العزيز ، وقرأه على الأستاذ أبى عبد الله محمد بن سعد بن برال الأنصارى بالقراءات السبع إفراداً وجمعاً فى إحدى وعشرين ختمة ، ثم جمعها فى ختمة واحدة ، ثم قرأ ختمة بزاوية يعقوب جمعاً بين الروايتين عنه ، وعرض عليه قصيدتى الشاطبى اللامية والرائية ، وكتاب النفطى لأحاديث الموطأ لابن عبد البر ، وكتاب التسهيل فى النحو لابن مالك ، ومختصر ابن الحاجب الفقهى . وأخذ العربية عن أبيه وأبى عبد الله محمد بن الشواش الزرزالى ، وأبى العباس أحمد بن القصار وأبى عبد الله محمد بن بحر . ولازم مجلسه ، وأشار عليه بحفظ الشعر فحفظ المعلقات وحماسة الأعلم وشعر حبيب بن أوس وقطعة من شعر المتنبى ، وكتاب سقط الزند لأبى العلاء المعرى . وسمع صحيح مسلم بتونس إلا فوتاً يسيراً من كتاب الصيد ، وسمع موطأ مالك على أبى عبد الله محمد بن جابر بن

سلطان القيسى الوادياشى ، وأجازه إجازة عامة . وأخذ الفقه بتونس عن أبى عبد الله محمد بن عبد الله الجيانى ، وأبى القاسم محمد بن القصير ، وقرأ عليه كتاب التهذيب لأبى سعيد البراذعى وعليه تفقه — وانتاب مجلس قاضى الجماعة أبى عبد الله محمد بن عبد السلام وأفاد منه وسمع عليه ، وأخذ عن أبى عبدالله محمدبن سليمان البسطى وأبى محمد عبد المهيمن الحضرمى وأبى العباس أحمد الزواوى وأفاد من القاسم عبد الله بن يوسف المالقى وجماعة أخر .

واستمر بالمغرب الى أن كان طاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة — ومات أبواه ، فاستدعاه أبو محمدبن تافراكين المستبد إذ ذاك بتونس الى كتابه العلامة عن سلطانه أبى إسحاق ابراهيم بن السلطان أبى بكر خامس الملوك الحفصيين بتونس ، فكتب العلامة عن السلطان وهى : الحمد لله والشكر لله بقلم غليظ .

ثم انصرف عن تونس عام ثلاث وخمسين ، وقدم على أبى عنان فارس بن على بن عثمان فنالته السعادة عنده وعظم ، ثم حصل له محنة عند موت فارس المذكور . ولحق بالسلطان أبى سالم فلما غلب على الملك رعى له السابقة ، وولاه كتابة الإنشاء . فصدر عنه أكثرها بالكلام المرسل الذى كان انفرد به ، حاكى فيها طريقة عبد الحميد ابن يحيى الكاتب .

ثم تنقل عنه عند عدة ملوك الى أن خرج عن تونس منتصف شعبان سنة أربع وثمانين فوصل ثغر الاسكندرية يوم عيد الفطر .

ودخل القاهرة فى عشر ذى القعدة من السنة ، واستوطن القاهرة وتصدر للإقراء بجامع الأزهر مدة وأشغل وأفاد .

ثم صحب الأمير علاء الدين الطنبغا الجوبانى فأوصله الى الملك الظاهر برقوق ، فولاه تدريس المدرسة القمحية ، بجوار جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه . ثم ولاه الملك الظاهر برقوق قضاء القضاة المالكية بديار مصر فى يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وسبعمائة ، فباشر بحرمة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته ، ودفع رسائل أكابر الدولة وشفاعات الأعيان ، فأخذوا فى التكلم فى أمره ، ولازالوا بالسلطان حتى[1] عزله فى يوم السبت سابع جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وسبعمائة بقاضى القضاة جمال الدين عبد الرحمن بن خير ، فلزم المذكور داره الى أن أعيد الى القضاء بعد مدة طويلة فى يوم الخميس النصف من شهر رمضان سنة إحدى وثمانمائة ؛ واتفق بعد توليته بمدة يسيرة موت الملك الظاهر برقوق فى شوال من السنة ، فصرف أيضاً فى يوم الخميس ثانى عشر المحرم من سنة ثلاث وثمانمائة .

وخرج مع السلطان الملك الناصر فرج الى البلاد الشامية لقتال تيمورلنك بطالا ، الى أن ملك تيمور دمشق وأحاط بها ، نزل اليه المذكور من سور دمشق بحبل ، وخالط عساكر تيمور وطلب منهم (أن) يوصلوه تيمور فساروا به اليه ، فأمر باحضاره فحضر فأعجبه حسن هيئته وجمال صورته ، وكلمه بعذوبة منطقه ودهاه بكثرة مقالاته باطرائه ، فأجلسه واستدناه ، وشكر له سعيه ، وحظى عنده ، الى أن أطلقه وزوده . وعاد الى القاهرة بعد عود تيمور خزاه الله الى بلاده .

ولما وصل الى القاهرة سعى ، فولى القضاء مرة ثالثة فى يوم

السبت ثالث شهر رمضان سنة ثلاث ، واستمر الى أن عزل فى رابع عشرين شهر رجب سنة أربع وثمانمائة . ثم أعيد فى يوم الخميس لأربع بقين من ذى الحجة من السنة، ثم صرف يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأول سنة ست ، ثم أعيد فى شعبان سنة سبع وثمانمائة ، ثم صرف فى سادس عشرين ذى القعدة منها ، ثم أعيد فى شعبان سنة ثمان وثمانمائة فلم تطل مدته .

ومات وهو قاض فجأة ، فى يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر رمضان سنة ثمان وثمانمائة ، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر وله من العمر ست وسبعون سنة وخمسة وعشرون يوماً .

وكان له نظم ونثر من ذلك قصيدة طويلة جداً (منها) :

أسرفن فى هجرى وفى تعذيبى   وأطلن موقف عبرتى ونحيبى
وأبين يوم البين موقف ساعة   لوداع مشغوف الفؤاد كئيب

وشعره كله من هذا النمط رحمه الله ، ماكان أحبه فى المنصب.

(الورقة ٣٠٠ — ٣٠٢ من الجزء الثانى) .

— ٤ —

ترجمة لسان الدين بن الخطيب

منقولة عن كتاب « الإحاطة فى تاريخ غرناطة »

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر ابن محمدبن ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى ، من ذرية عثمان أخى كريب المذكور فى نبهاء ثوار الأندلس ، وينسب سلفهم الى وائل بن حُجر ، وحاله عند القدوم على

رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة . انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك فاستقر بتونس منهم ثانى المحمدين محمد بن الحسن ، وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة . وتصرف جدالمترجم به فى القيادة. وأماالمترجم به ، فهو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الحصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، خاصى الزى ، عالى الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامح لقنن الرياسة ، خاطب للحظ ، متقدم فى فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط ، مغرى بالتجلة ، جوّاد ، حسن العشرة ، مبذول المشاركة ، مقيم لرسم التعين ، عاكف على رعى خلال الإصالة ، مفخر من مفاخر التخوم المغربية . قرأ القرآن ببلده على المكتب بن برال ، والعربية على المقرى الزواوى وغيره ، وتأدب بأبيه ، وأخذ عن المحدث ابى عبد اللهبن جابر الوادى آشى ، وحضر مجلس القاضى ابن عبد الله بن عبد السلام . وروى عن الحافظ أبى عبد الله السطى ، والرئيس ابن محمد عبد المهيمن الحضرمى ، ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الآبلى ، وانتفع به . انصرف من إفريقية منشأه ، بعد أن تعلق بالخدمة السلطانية على الحداثة ، واقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، وعرف فضله ، وخطبه السلطان منفق سوق العلم والأدب ابى عنان فارس بن على بن عثمان ، واستحضره بمجلس المذاكرة ، فعرف حقه ، وأوجب فضله ، واستعمله على الكتابة ، أوائل عام

ستة وخمسين . ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة ، لبعده عن حسن التأنى ، وشغوفه بثقوب الفهم وجودة الإدراك ، فأغروا به السلطان ، اغراء عضده ما جبل عليه عهدئذ من اغفال التحفظ مما يريب لديه ، فأصابته شدة ، تخلصه منها أجله ، كانت مغربة فى جفاء ذلك الملك ، وهناة جواره ، واحدى العواذل لأولى الهوى فى القول بفضله ، وعدم الخشوع واهمال التوسل ، وإبادة المكسوب فى سبيل النفقة ، والإرضاخ على زمن المحنة ، وجار المنزل الخشن ، الى أن أفضى الأمر الى السعيد ولده ، فأعتبه قيم الملك لحينه ، وأعاده الى رسمه ، ودالت الدولة الى السلطان أبى سالم ، وكان له به الاتصال قبل تسوغ المحنة بما أكد حظوته ، فقلده ديوان الإنشاء مطلق الجرايات ، محرر السهام ، نبيه الرتبة الى آخر أيامه . ولما ألقت الدولة مقادها بعده الى الوزير عمر بن عبد الله مدبر الأمر ، وله اليه وسيلة ، وفى حيله شركة ، وعنده حق ، رابه تقصيره عما ارتمى اليه أمله ، فساء ما بينهما بما آل الى انفصاله عن الباب المرينى . وورد على الأندلس فى أول ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعمائة ، واهتز له السلطان ، وأركب خاصته لتلقيه ، وأكرم وفادته ، وخلع عليه ، وأجلسه بمجلسه ، ولم يدخر عنه برا ومؤاكلة ومراكبة ومطايبة وفكاهة . وخاطبنى لما حل بظاهر الحضرة مخاطبة لم تحضرنى الآن ، فأجبته عنها بقولى :

حللت حلول الغيث فى البلد المحل ... على الطائر الميمون والرحب والسهل
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه ... من الشيخ والطفل المهد أو الكهل
لقد نشأت عندى للقياك غبطة ... تنسى اغتباطى بالشبيبة والأهل

أقسمت بمن حجت قريش لبيته، وقبر صرفت أزمة الأحياء لميته ، ونور ضربت الأمثال بمشكاته وزيته ؛ لو خيرت أيها الحبيب الذى زيارته الأمنية السنية ، والعارفة الوارفة، واللطيفة المطيفة بين رجع الشباب يقطر ماء ، ويرف نماء ، ويغازل عيون الكواكب فضلا عن الكواعب اشارة وإيماء ، بحيث لا الوخط يلم بسياج لمته ، أو يقدح ذبالة فى ظلمته ، أو يقوم حواريه فى ملته من الأحابش وأمته ، وزمانه روح وراح ، ومغدى فى النعيم ومراح ، وقصف صراح ، ورقى وجراح ، وانتحاب واقتراح ، وصدور ما بهـا الانشراح ، ومسرات تردفها أفراح ، وبين قدومك خليع الرسن ، ممتعاً والحمد لله باليقظة والوسن ، حكماً فى نسلك الجنيد أو فتك الحسن. ممتعاً بظرف المعارف، مالئاً أكف الصيارف، ماحيا بأنوار البراهين شبه الزخارف ، لما اخترت الشباب وان راقنى زمنه ، وأعيانى ثمنه ، وأجدت سحائب دمعى دمنه ، فالحمد لله الذى رقى جنون اغترابى ، وملكنى أزمة آرابى ، وغبطنى بمائى وترابى ، ومألف اترابى ، وقد أغصنى بلذيذ شرابى ، ووقع على سطوره المعتبرة اضرابى ، وعجلت هذه مغبطة بمناخ المطية ، ومنتهى الطية ، وملتقى السعود غير البطية ، ومنتهى الآمال الوتيرة الوطية ، فما شئت من نفوس عاطشة الى ريك ، متجملة بزيك ، عاقلة خطى مهريك ،ومولى مكارمه نشيدة أمثالك ، ومظان مثالك، وسيصدق الخبر ماهنالك ، ويسع فضل مجدك فى التخلف عن الأصحار ، لا بل اللقاء من وراء البحار والسلام . ولما استقر بالحضرة جرت بينى وبينه مكاتبات أقطعها الظرف جانبه ،وأوضح الأدب مذاهبه .

(تواليفه) شرح البردة شرحاً بديعاً دل به على انفساح ذرعه وتفنن إدراكه ، وغزارة حفظه . ولخص كثيراً من كتب ابن رشد . وعلق للسلطان أيام نظره فى العقليات تقييداً مفيداً فى المنطق ، ولخص محصل الإمام فخر الدين الرازى ، وألف كتاباً فى الحساب . وشرع فى شرح الرجز الصادر عنه فى أصول الفقه بشىء لا غاية فوقه فى الكمال . (وأما نثره وسلطانياته السجعية) فخلج بلاغة ، ورياض فنون ،ومعادن ابداع يفرغ عنها يراعه الجرىء ، شبيهة البداءات بالخواتم ، فى نداوة الحروف ، وقرب العهد بجرية المداد ، ونفوذ أمر القريحة ، واسترسال الطبع . (وأما نظمه) فنهض لهذا العهد قدماً فى ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه ، فانثال عليه جوه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة ، خاطب السلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعمائة بقصيدة طويلة أولها :

أسرفن فى هجرى وفى تعذيبى وأطلن موقف عبرتى ونحيبى

وهنا يورد ابن الخطيب نص القصيدة ثم يورد مختارات طويلة أخرى من نظم ابن خلدون ثم يستأنف ترجمته فيما يلى :

وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجاهة والحظوة ، قد استعمل فى السفارة الى ملك قشتالة فراقه وعرف حقه ، مولده بتونس بلده فى شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائة .

قال المقرى ، بعد أن أورد هذه الترجمة (فى نفح الطيب) :

هذا كلام لسان الدين فى حق المذكور (ابن خلدون) فى مبادى أمره وأواسطه ، فكيف لو رأى تاريخه الكبير الذى نقلنا منه فى مواضع ؛ ورأيته بفاس وعليه خطه فى ثمان مجلدات كبار جداً

وقد عرف فى آخره بنفسه ، وأطال وذكر أنه لما كان بالأندلس ، وحظى عند السلطان أبى عبد الله ، شم من وزيره ابن الخطيب رائحة الانقباض ، فقوض الرحال ، ولم يرض من الإقامة بحال ، ولعب بكرته صوالجة الأقدار حتى حل بالقاهرة المعزية ، واتخذها خير دار ، وتولى بها القضاء وحصلت له أمور رحمه الله تعالى .

وكان ، اعنى الولى ابن خلدون كثير الثناء على لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى . ولقد رأيت بخط العالم الشهير ، الشيخ ابراهيم الباعونى الشامى فيما يتعلق بابن خلدون ما نص محل الحاجة منه : تقلبت به الأحوال حتى قدم الى الديار المصرية ، وولى بها قضاءقضاةالمالكية فى الدولةالشريفة الظاهرية ،وصحبته رحمه اللهتعالى فى سنة ٨٠٣ عند قدومه الى الشام صحبة الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق فى فتنة تيمورلنك ، وأكرمه تيمورلنك غاية الإكرام وأعاده الى الديارالمصرية ، وكنت أكثر الاجتماع به بالقاهرة المحروسة للمودة الحاصلة بينى وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين بن الخطيب ، ويورد من نظمه ونثره ما يشنف بهالأسماع ، وينعقد على استحسانه الإجماع ، وتتقاصر عن إدراكه الأطماع ، فرحمة الله عليهما ، وأزكى تحياته تهدى اليهما ؛ ولقد كان ابن خلدون هذا من عجائب الزمان ، وله من النظم والنثر مايزرى بعقودالجمان ، مع الهمة العلية ، والتبحر فى العلوم النقلية والعقلية ، وكانت وفاته بالقاهرة المعزية سنة ٨٠٧ ، سقى الله تعالى عهده ، ووطأ فى الفردوس مهده.

(تراجع الترجمة كاملة فى نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٤١٤ — ٤٢٦) .

فهرس

الكتاب الأول

حياة ابن خلدون

١ — فى المغرب والأندلس

٢ — ابن خلدون فى مصر

الكتاب الثانى

تراث ابن خلدون الفكرى والاجتماعى

مطبعة مصر
شركة مساهمة مصرية
بالقاهرة